



الدرس الأول



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



باب معرفة الله عزوجلّ والإيمان به -باب رد الشرك.

{الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمشاهدين يا رب العالمين.

قال المؤلف: (باب معرفة الله عزوجلّ والإيمان به -باب رد الشرك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رواه مسلم)}.

- هذا الكتاب المعنون بـ "أصول الإيمان" للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- المتوفى سنة (١٢٠٦هـ)، وهو الإمام الأثري السلفي.

  وقد ألف هذا الكتاب -رحمه الله تعالى- وجمع فيه أصول الإيمان.

- المقصود بأصول الإيمان: أركان الإيمان هي التي جاءت في حديث جبريل الطويل، والذي رواه الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-لَّما جاء جبريل في صورة بشر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم، وفيه أنه سأله عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

  هذا الحديث خرَّجه الإمام مسلم في صحيحه، وهو حديث صحيح.

- وهذه الأصول -أصول الإيمان وأركانه- مذكورة في غير هذا الحديث من نصوص من كلام الله ومن كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم.

- وبوَّب الشيخ -رحمه الله تعالى- بأبواب -كما سيأتي معنا- وأورد أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- تنص وتدل على هذه الأصول التي هي أصول الإيمان، وهي العقيدة الصحيحة؛ لأن العقيدة تقوم على هذه الأصول، كالإيمان بالله -عزَّ وجلَّ، فالإيمان بالله -عزَّ وجلَّ- يشمل الإيمان بربوبيَّته، وبألوهيَّته، وبأسمائه وصفاته -سبحانه وتعالى- وعُلِمَت هذه الأقسام باستقراء النصوص؛لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُبيِّن أنه يجب أن يُؤمن بأنه هو الرب -سبحانه وتعالى- الخالق المدبر الرازق المحيي المميت، الذي يعرفه أهل العلم بتوحيد الربوبية.

❑ **النوع الأول: توحيد الربوبية.**

- وأيسر تعريف، وأخصر تعريف لتوحيد الربوبية ، أن يُقال: "هو توحيد الله تعالى بأفعاله". هذا هو توحيد الربوبية، فالصغار يُعلَّمون هذا، ويكون أخصر عبارة، كالخلق والرزق، والإحياء، والإماتة، فتعتقد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر إلا الله -سبحانه وتعالى.

وهذا التوحيد مغروس في الفِطَر، وجميع الملل السابقة كانوا في الجملة على الإقرار بهذا التوحيد، وهذا لا ينفك إنسان عن الإقرار به إلا ما ندُرَ.

- وحتى كفار قريش كانوا يُقرُّون بهذا التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦١]، فهذا مستقر في نفوسهم، ولا يخاصمون النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه.

❑ **النوع الثاني: توحيد الألوهية.**

- ويعبر عنه أهل العلم بمسميات في دلالة على شيء واحد، فيقولون: "توحيد القصد والطلب"، وهو أن يُقصد ويُطلب من الله -سبحانه وتعالى.

وأخصر تعريف لهذا التوحيد، أي: توحيد الألوهية أو العبادة هو: "توحيد الله تعالى بأفعال العباد".

- فأفعال العباد على وجه التَّعبُّد لا تُصرَف إلا لله -عزَّ وجلَّ- فكما أنك لا تصلي إلا لله، ولا تسجد إلا لله؛ فكذلك لا تدعُو إلا الله، ولا تستغيث إلا بالله، ولا ترجو إلا الله -سبحانه وتعالى- ولا تخاف خوف السِّر إلا من الله -سبحانه وتعالى- ولا تذبح إلا لله -سبحانه وتعالى- فهذا هو توحيد الألوهية، وهو ما يعبر عنه أهل العلم بـ "توحيد القصد والطلب"، فيكون قصدك ومطلوبك هو الله -سبحانه وتعالى.

- **ولاحظ**: قلنا في تعريف توحيد الربوبية: "بأفعاله" أما توحيد الألوهية: "بأفعال العباد" حتى يسهل على طالب العلم وعلى الصغير أن يتعلم هذه المختصرات، ويفهمها، ويعرفها، ولهذا يقبح بالمسلم ألا يعرف هذه الأصول، ولهذا فمن العلم ما يجب على كل مسلم أن يتعلمه، ولا يسع الإنسان أن يجهله، ومنه هذه الأنواع.

- ولهذا فقد ألَّف الشيخ الإمام المجدد -رحمه الله- مختصرًا مشهورًا ومتداولاً، من كان عامِّيًّا يُلقَّن به، ويسمون هذا "تلقين العقيدة" فلهذا فإن العامي يجب عليه أن يعرف الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذه المور لا يُقبل فيها التقليد. لماذا؟

- لأن إيمان المقلد لا يصح؛ ولأن هذه الجملة العظيمة يسأل عنها الإنسان في قبره، فأول ما يُقبر الإنسان ويُفارق الدنيا ويدخل في دار البرزخ؛ يتوجه إليه الإمتحان، الأسئلة التي تُوجَّه إليه:
  - من ربك؟
  - ما دينك؟
  - من نبيك؟

ولهذا ألف الشيخ -رحمه الله- مِن حرصه وشفقته وإخلاص -نحسبه والله حسيبه- كتاب "الأصول الثلاثة" في الدلالة على هذه الأصول (من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟) التي لا يسع الإنسان أن يجهلها.لماذا؟
لأنه جاء في الحديث أنَّ المنافق يُسأل عن هذه الأسئلة فيقول: «هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي»، «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»؛ لأنَّ مبناه على التقليد وليس على حقيقة الاعتقاد.

- ولهذا فالإنسان يعتقد هذه الأمور ويعرفها، ولهذا يُعَلَّم الطفل وهو صغير هذه الأنواع، ويُفرِّق بينها، هذا هو توحيد "الإلهية" أو الأُلوهية" أو "القصد والطلب".

النوع الثالث: توحيد الله -عزَّ وجلَّ- بأسمائه وصفاته.

- فتعتقد أن الله -عزَّ وجلَّ- لا مثيل له في أسمائه ولا في صفاته -سبحانه وتعالى- كما جاء في كلام الله، وفي كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم.
- هذه هي أصول الدين، وهذا هو جوهر العقيدة الإسلامية، وهذا هو دين الإسلام، وهذا دين الأنبياء، ما تغيَّر من أول الأنبياء آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- فدينهم واحد، وأما شرائعهم فتختلف. هذه هي العقيدة التي جاء الأنبياء والرسل بتحقيقها.
- والخصومة -كما سيأتي- بين أقوام الأنبياء إنما كانت في توحيد الإلهية، ولهذا فالإنحراف كان في توحيد الإلهية، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[سبأ:٣٧].
- إذن هم يعترفون أنَّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، ولكن حصل لهم الخلط واللبس في جهة توحيد العبادة، فظنوا وأوحى إليهم الشيطان أن هؤلاء الشفعاء، سواء كانوا أصنامًا أو أوثانًا أو ملائكةً أو جنًا أو أي شيء كان؛ لأنه لا فرق بين الوثن والصنم وبين قبر الرجل الصالح أو الولي أو أي شخص كان يُدعى من دون الله -كما سياتي من الشيخ -رحمه الله- البيان وإيراد هذه الأحاديث في مثل هذا.

{الحديث الأول: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ»)}.

ما معنى الحديث القدسي؟

- هو ما يرويه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ربه تبليغًا، ولهذا يقال:إن الحديث القدسي هو: كلام الله تعالى لفظًا ومعنى.
- ولا يقال:إنه كلام الله معنى فقط، واللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم! هذا غلط في التعريف.

ما الفرق بين الحديث القدسي وبين القرآن؟

- **الفرق الأول**: أن القرآن يُتعبَّد بتلاوته، وهذا لا يُتعبَّد بتلاوته.
- **الفرق الثاني**: أنَّ القرآن مُعجِز، تحدَّى الله كفار قريش أن يأتوا بمثله، وأن يأتوا بِعَشْرِ سُور، وأن يأتوا بسورة؛ فما استطاعوا، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، أمَّا الحديث القدسي فليس بمعجز، ولهذا قد تجد من الأحاديث القدسية أحاديث موضوعة.

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ»**، هذا الحديث اشتمل على توحيد الربوبية، فالله -عزَّ وجلَّ- ما كان أغنى الشركاء عن الشرك إلا لكمال ربوبيته -سبحانه وتعالى؛ لأنه الرَّب المدبر، الذي أحاط بكل شيء، وكل ما في هذه العوالم تحت تدبيره -سبحانه وتعالى- وهذه العوالم منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو خفي، فالإنسان يُدرك من العوالم عوالم كثيرة جدًا، كعالم البحار، وعالم النجوم، وعالم الأرض، وهناك عوالم لا يدركها الإنسان، فالله -سبحانه وتعالى- يدبرها ويصرفها كيف شاء -سبحانه وتعالى، فهو ليس بحاجة لشريك لأنه كامل -سبحانه وتعالى- في أسمائه وصفاته.
- ولهذا قال الله: **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ»**، فلربوبيته -سبحانه وتعالى- غني، وسوف نتعلم من خلال هذا الحديث التلازم بين أنواع التوحيد، فأنواع التوحيد يستلزم بعضها بعض.
- **فمثلًا**: توحيد الربوبية، إذا أقررت أنَّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ ماذا يحملك عليه؟ أن تخلص العبادة، فإذا كان التدبير بيده -سبحانه وتعالى- فنخلص له العبادة، كل أنواع العبادة تصرفها، ولهذا فإن الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن احتجَّ على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية أنه يجب عليهم أن يُقرُّوا بتوحيد الألوهية، فقال الله تعالى على وجه الاحتجاج: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[الزخرف:٨٧]، فإذا كنتم تقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؛ فكيف تشركون معه غيره؟! هذا ضلال وانحراف!
- فلهذا قال الله -عزَّ وجلَّ- لربوبيته **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ»**، ثم قال: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**، وهذه مسألة عظيمة تدلك على توحيد الألوهية، وأن الله -سبحانه وتعالى- لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه -سبحانه وتعالى- فلا يقبل الشرك، فلا يُصرف التوحيد إلا له -سبحانه وتعالى- ولا يُشرَك معه غيره -سبحانه وتعالى؛ لأنه أغنى الشركاء عن الشرك.

وهذا يدلك إلى أن تحرص كل الحرص لتكون أعمالك خالصة لله -سبحانه وتعالى.

- ولهذا فإن أعمال القلوب لها أثر عظيم في سلوك الإنسان، وفي ثوابه عند الله -سبحانه وتعالى- ألَا ترى أن الله -سبحانه وتعالى- قد يُدخل الإنسان الجنة بعمل ظاهر بسيط، بغيّ من بغايا بني إسرائيل سقت كلبًا بموقها فغفر الله لها، ورجل أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له؛ وهذا لعظم الإخلاص في القلوب.
- ولهذا ينبغي للمسلم أن يُعنَى بقضية الإخلاص، وانظر إلى إخلاص السلف الصالح، وعنايتهم بالإخلاص في مثل هذه الأمور، وانظر إلى قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)**

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان:٨]. انظر إلى الثواب العظيم!

- إذن ينبغي للإنسان أن يعرف أن الله -سبحانه وتعالى- لا يقبل الشرك في عبادته ولو كان شيئًا قليلًا، ولهذا ورد في كتاب التوحيد من حديث طارق بن شهاب عن أبيه عن جده: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»[1]، فهذا قَرَّبَ شيئًا قليلًا، وليس المقصود قلة الشيء ذاته، ولكن المقصود أنَّ العبادة لا تكون إلا لله، ولو كان شيء قليل يُصرف لغير الله فإنه يُحبط العمل ويوجب الخلود في النار لمن مات عليه -نسأل الله العافية.



باب: إن الله لا ينام.

{(عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ:«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ»وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ «النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ الْأَعْمَشِ وَلَمْ يَقُلْ حَدَّثَنَا حَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ عَنْ الْأَعْمَشِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ خَلْقِهِ وَقَالَ حِجَابُهُ النُّورُ.رواه مسلم)}.

- الشيخ -رحمه الله- في هذا الحديث شرع في بيان صفات الله -عزَّ وجلَّ- وهي داخلة في الإيمان بالله؛ لأن الإيمان إمَّا إيمان بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

يقول أبو موسى الأشعري: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ)، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يختصر الكلام اختصارًا، وأوتي -صلى الله عليه وسلم- جوامع الكلم.

- قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ».

؟ الله -عزَّ وجلَّ- لا ينام لماذا؟!

- لكمال قيُّوميَّته ولكمال حياته-سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، لينفي عمَّا يتبادر إلى الذهن أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يغفل عن خلقه وعن هذه العوالم التي يدبرها -سبحانه وتعالى.

- والله -عزَّوجلَّ- لا يوصف بما يوصف به خلقه، وهذا يبعث في النفس أنَّ الله مطلع على كل شيء، فالله تعالى «لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»، فمن أوصاف الرب -سبحانه وتعالى- أنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

والسِّنة: هي مقدمة النوم.

---

[1] رواه الإمام أحمد في "الزهد" (٨٤)، وصححه الألباني موقوفا على سلمان رضي الله عنه، كما في "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (١٢ / ٧٢٢)؛ حيث قال: " وبالجملة؛ فالحديث صحيح موقوفا على سلمان الفارسي رضي الله عنه

والنوم: هو الاستغراق.

- فلا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].
- قال: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ».

القسط: هو الحظ والنصيب والرزق الذي يوسعه الله لمن شاء، ويضيقه على من شاء بتدبيره الموافق لحكمته -سبحانه وتعالى.

- وهذا يبعثك على أن تتعلق بالرب -سبحانه وتعالى- أنه «يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»، الذي هو النصيب والرزق، فأرزاق الناس ليست على وجه واحد، وأحوالهم ليست على وجه واحد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩]، قال أهل العلم: يُفقر غنيًّا، ويُغني فقيرًا، ويُمرض صحيحًا، ويشفي مريضًا، ويدبر خلقه وهو الحكيم الخبير -سبحانه.

فالقسط يشمل معانٍ كثيرة جدًا، فهو النصيب والحظ والرزق.

- قال: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»، فالقسط هو الحظُّ والنَّصيبُ، وما يكون من حال الإنسان، فتارة يخفضه، وتارة يرفعه، بما يوافق تدبيره وحكمته في مُلكه -سبحانه وتعالى.
- ثم قال: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ».

أعمال بني آدام ترفعها الملائكة، ولهذا ورد في الحديث أنَّ الملائكة تجتمع في صلاتي الفجر والعصر، ولهذا يحسن بالمسلم ألا يغفل عن هاتين الصلاتين.

- وجاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢]؛ ولأن الأعمال ترفع فيها، فالملائكة تتعاقب في صلاة الفجر وصلاة العصر.
- قال: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ»، وهذا يدلك على أنَّ أعمال العباد محفوظة، وأن الليل والنهار راحلتان ومستودعان لأعمال الإنسان.

✸ فيا عبد الله! احرص ألَّا ينقضي عليك النهار وألَّا ينقضي عليك الليل إلَّا وقد تزودت فيهما بعمل صالح بهذه المراحل التي توصلك إلى الدار الاخرة.

- ثم قال: «حِجَابُهُ النُّورُ».

الله -عزَّ وجلَّ- احتجب عن خلقه بالنور، ولهذا لا يستطيع خلقه الوصول إلى رؤيته، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، يوم المزيد، يوم يطلع عليه أهل الجنة، ولهذا احتجب الله تعالى عن خلقه، فهذا الرب عظيم -سبحانه وتعالى.

- وهذا النور الذي هو حجاب عن رؤيته -سبحانه وتعالى- (لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ)، يعني: كل شيء من العوالم.

---

[٢] متفق عليه.

- ولذلك من رحمة الله -سبحانه وتعالى- بهم أنه احتجب عنهم بهذا الحجاب، وهذا الحجاب يُرفع إذا دخلوا الجنة حينما يرون ربهم، فيكون هذا أعظم النعيم الذي يحصل لأهل الجنة.



باب إثبات أن لله يمينا.

{وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ أَوْ الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». أخرجاه)}.

- إثبات صفة اليد -سبحانه وتعالى- على الوجه اللائق به التي وردت في النصوص؛ لأنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، وورد وصف اليد في كونه -سبحانه وتعالى- يقبضها ويبسطها، فصفة القبض والبسط لهذه اليد التي نقطع أنها ليست كأيدينا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

وإثبات اليد من عقيدة أهل السنة والجماعة، فالله -سبحانه وتعالى- له يد، وهذه الصفة لها أثر، فالله تعالى وصف هذه اليد بأنها يمين، فقال: «يَمِينَ اللَّهِ مَلْأَى»، يعني: ملأى بالخير.

- قال: «لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ»، عطاء الرب -سبحانه وتعالى- لا ينقص منه شيء، والإنسان إذا أعطى ينقص منه، أما الرب فعطاؤه لا ينقص من ملكه شيء.

وكما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في وصف اليد «سَحَّاءُ»، يعني: دائمة الصَّبِّ بالعطاء والنفقة.

- قوله: «سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، يعني: عطاء الله لا ينقطع عن خلقه بالليل والنهار، وهذا يبعثك على حُسن ظنك بالله -سبحانه وتعالى- فتعرف أنَّ الله كريم، وكرمه لا ينقطع.

تتمثل هذه النصوص وتستقر في نفسك، فتعرف أن الله -سبحانه وتعالى- إن منعك عطاءً فهو لحكمته، وإلَّا فهو الكريم -سبحانه وتعالى.

- قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، يعني: إنفاق الرب وعطاؤه لخلقه لم يُنْقِص ما في يمينه سبحانه.

- ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَالقسط بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ».

تكلمنا عن القسط وقلنا هو: العطاء والنصيب والحظ والرزق، وأحوال الإنسان لتي يتقلب فيها؛ فكلها بين خفض ورفع لموافقة حكمته -سبحانه وتعالى.

تحت هذا الحديث كذلك وصف الرب -سبحانه وتعالى- بصفة اليد، وأن كلتا يديه -سبحانه وتعالى- يمين بالخير والإنفاق، وليس ثَمَّ فضل يدٍ على أخرى.

- وجاء في بعض الروايات أنَّ الرب -سبحانه وتعالى- له يَدان، وجاء في بعض الروايات ذكر "الشمال"، قال بعض أهل العلم: إنَّ الرواية التي في مسلم غير محفوظة -يعني شاذَّة- أي: انفرد بها.

- ومن العلماء مَن أثبت هذه الرواية، وذكر أنه وإن ذكرت "الشمال" في الحديث أنها كاليمين في اليُمنِ والبركة، فوصفها بالشمال لا يتضمَّن نقص بأي وجه؛ لأن صفات الرب -سبحانه وتعالى- كاملة من جميع الوجوه.

باب علم الله سبحانه.

{(وعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ فَقَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ ؟ قَالَ: لَا قَالَ لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا وسيحكم بينهما» رواه أحمد)}.

- هذا الحديث رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- **وفيه مسائل:**
  - **المسألة الأولى:** يتضمن هذا الحديث إثبات صفة العلم لله -سبحانه وتعالى- فالله يعلم كل شيء، ودراية الله -عزَّ وجلَّ- هي عِلمه، ووصف الله تعالى بأنه يدري خطأ؛ فلا يوصف الله تعالى بها، وإنما هذا من باب الإخبار، وباب الإخبار أوسع من باب الصفات كما هو مقرر في قواعد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة، وهي من فروع صفة العلم، فكون الله يدري أي: أنه يعلم -سبحانه وتعالى.
  - **المسألة الثانية:** أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟»، هذا على وجه الاستفهام لإخباره بهذه الصفة وبآثار هذه الصفة؛ لأن العجماوات لا تفصح عن مكنونات نفوسها، ولا شك أن لها إحساس، ولها شعور، ولها حاجيَّات، ولكنها عجماويات لا تفصح ولا تنطق، ولا يعرف الإنسان ما يكون بينها، ولا شك أن بين هاتين الشاتين شيء، لأنهما ينتطحان، فتغلب هذه الشاة الأخرى.
- قال: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي»؛ لأنَّ عِلم الله محيط بكل شيء، حتى بهذه البهائم والحيوانات والحشرات. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]. الله أكبر!

  علم الله الشامل محيط بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء.
- ثم أفادك الحديث إفادة عظيمة ينبغي أن لا تغفل عنها، وهي: أن عدل الله -عزَّ وجلَّ- في غاية التَّناهي، فهذه العجماوات وهذه البهائم لا تكليف عليها، ولهذا سيحكم بينهما الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا سمي يوم القيامة بيوم "الدين" يوم يوفى الإنسان ما عمل، فإذا كان الله -سبحانه وتعالى- لم يغفل عن شاتين تنتطحان؛ فكيف يغفل عن مكلفين يختصمان؟!

  والله -عزَّ وجلَّ- أعلم بما كانت فيه الخصومة؛ ولذا يحكم الله -عزَّ وجلَّ- بين الناس.
- فإذا كان عدل الله تناهى إلى العجماوات والبهائم ومَن لا تكليف له؛ ففي هذا الحديث أن يوم القيامة تُؤدَّى الحقوق حتى بين الحيوانات، وجاء في صحيح مسلم **«حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

  الجلحاء: التي ليس لها قرون. والقرناء: هي التي لها قرون.

  فالقرناء يكون أذاها أكبر للجلحاء، ومع ذلك يحكم الله بينهما.

- فبما بالك أنت يا عبد الله في حقوقك التي تُسلب، فأبشر فالله -عزَّوجلَّ- سيوفيها لك يوم القيامة غير منقوصة، وإن حُرمت حقك في الدنيا.
- وذلك الظالم حَري به أن يُعدَّ العدَّة لأداء الحقوق يوم القيامة، فإنه سَيُجْزى بها يوم القيامة؛ فَتَخَلص من الحقوق في الدنيا قبل أن تؤديها في الآخرة؛ لأنَّ عدل الرَّب -سبحانه وتعالى- متناهي في كل شيء، وسيحكم الله -عزَّوجلَّ- بين الناس جميعًا، ويتناهى عدله -سبحانه وتعالى- إلى مَن لا تكليف له، فمن باب أولى تعرف أنَّ هناك يوم ستقضى فيه الحقوق.



باب إثبات السمع والبصر لله.

{(عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ النبي قرأ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[النساء:٥٨]، ويَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ. رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم)}.

- هذا الحديث كما رواه الأئمة ثابت وصحيح من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه- **وأفادك في مسائل:**
  - **المسألة الأولى:** أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ هذه الآية، وذكر صفتي السمع والبصر. وهذا هو الشاهد، فلما ذكر هاتين الصفتين قال: "ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تلها على عينيه"، وهذا يفيدك أن إثبات الصفة بالإشارة منقول عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو ظاهر الحديث.
  - **المسألة الثانية:** أنَّ الإشارة مقصود بها إثبات الصفة بما يعهده المخاطب مع نفي المماثلة.
- **أمران لا ينبغي للإنسان أن يغفل عنهما:**

أنَّ الله لا مثيل له، هذا متقرر ومحكم وهذا هو الأصل، فعلى وجه الإثبات أنه سميع بصير، فيجب إثبات هذه الصفات، مع نفي ما يدَّعيه المعطلة والمؤولة لهذه الصفات.

- ولهذا جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إثبات ذلك، فهذا لا يتعارض مع النصوص، بل هذا يدل على أنَّ الله -عزَّوجلَّ- يسمع بسمعه -سبحانه وتعالى- وبصير ببصره، وهذا السمع لا يماثل أسماعنا، وهذا البصر لا يماثل أبصار المخلوقين؛ لأن الله ليس كمثله شيء.
- فإذن حقيقة الصفة: إثبات أن الصفة ثابتة على وجه الحقيقة، ليست على وجه التأويل، ولا على وجه المثال والمجاز كما يدَّعيه أهل التأويل وأهل التعطيل.
- ولهذا لما سُئِلَ الإمام مالك عن الاستواء قال: "الاستواء معلوم" أي: معلوم دلالته في اللغة، وكذلك السمع معلوم دلالته في حق الله، فالله يخاطب العرب وهم يعلمون المعنى، فهم يعلمون أنه له سمع وله بصر -سبحانه وتعالى- مع نفي المماثلة.

؟ كيفية اتِّصاف الله -عزَّوجلَّ- بالصفات؟.

- هذا لا سبيل له، وهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولهذا فإنَّ من قواعد السلف: قطع الطمع عن إدراك كيفيَّة الصفات، فلا يمكن أن تصل إلى كيفيتها، مع إثبات هذه الصفات وآثار هذه الصفات.

- إذن كون الله سميع وبصير، وله يد، وله وجه، وسائر ما وصف الله -سبحانه وتعالى- به نفسه، أو وصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- نثبتها كما جاءت مع قطع المماثلة، فالله -عزَّ وجلَّ- ليس سمعه كأسماعنا، ولا بصره كبصرنا، ولا كلامه -سبحانه وتعالى- ككلامنا، تعالى الله في عظمته.



باب: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله.

{(عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللَّهُ. لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلاَّ اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ اللَّهُ»الحديث رواه البخاري ومسلم)}.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان:٣٤]، هذه مفاتح الغيب، ذكرها الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أشار إليها.
- **الغيب**: هو: ما غاب عنك، **وهو نوعان:**
  - ❖ **غيب مطلق**: وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما ورد في الآية:﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[الزخرف:٨٥] ، والوارد في الحديث.
  - ❖ **غيب نسبي**: يغيب عنك، ولكن يطلع بعض الخلق عليه، هذا يسمى غيبًا بالنسبة لك، ولا يقال في حق من عَلِمَ مَا جَهلتَه أنت أنه يعلم الغيب؛ لأنه غيب بالنسبة لك أنت، فقد يعلم أشياء وحوادث بالأجهزة الحديثة والتي ربما قربت بعض الأمور، فهذا يسمى الغيب النسبي، وهذا يطلع عليه آحاد الناس، وهو لا يُعدُّ من علم الغيب.

وهذا يبعث على إشكال يتصوره بعض الناس مما جاء في الحديث «وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّهُ»، يعني: ما سوف يأتي في الغد لا يعلمه إلا الله -سبحانه وتعالى- على وجه التفصيل والشمولية.

- «لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ»، يعني: الأرحام وما فيها.

تغيض: يعني تُنقص، فحينما تحمل المرأة أو تحمل أي دابَّة؛ فكمال الحمل ونقصانه وسقوطه؛ هذا كله بعلم الله تعالى.

وهذا يبعث على إشكال، قوله «لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ»، بعض الناس الآن يقولون: هذا من علم الغيب؛ لأنَّه قد صار من خلال الأجهزة الحديثة التي تسمى "السونار" معرفة جنس المولود في الأشهر الأخيرة من الحمل. **فهل هذا علم ما في الأرحام؟**

الجواب: لا؛ لأنَّ المقصود بقوله:«لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ» "ما" هنا اسم موصول بمعنى "الذي" أي: الذي يعلم كل شيء، فعلم الله -عزَّ وجلَّ- لما في الأرحام شامل لجنسه، ولما يكون عليه من الرزق والأجل، والشقاوة والسعادة، وما سوف يكون عليه.

؟ فهل علم جنس الجنين يعد من قبيل علم ما في الأرحام أم علم جزء بسيط لما في الأرحام؟

- مع أنه علم ظني وليس قطعيًّا، ولا يكون إلا في الأشهر الأخيرة، وهذا أصلا موجود قبل الأجهزة الحديثة، كان القافة وأهل العناية بهذه الأمور قد يميزون من خلال حمل المرأة جنس المولود، وقد تقطع بذلك، فهل يقال:إنه علم الغيب؟

ولهذا بعض النساء من خلال تجربة الحمل قد تقطع بأن ما في بطنها ذكر أو أنثى من حركة الجنين، وقد يكون ذلك صحيحًا؛ فهل يقال:إن هذا علم ما في الأرحام؟

هذا إشكال حتى تُدفع الشبهة فيها.

- فما يتعلق بهذا فيه مُلحة، وهذا يدلك على أنَّ الأمور بيد الله -سبحانه وتعالى- ومفاتح الغيب هذه بيد الله تعالى.

يذكر أهل السِّيَرِ أنَّ رجلًا رأى ملك الموت في المنام، فسأله سؤالًا -ما كان ينبغي له أن يسأله- فقال: كم بقي من أجلي؟ فأشار إليه ملك الموت بخمس.

فلما أفاق من نومه استشكل عليه، لكن كان في زمن إمام المعبرين ابن سيرين، فجاءه فقال له: يا إمام، إني رأيت ملك الموت، فسألته كم بقي من عمري، فأشار إليَّ بخمسٍ. فلا أعلم هل هي خمسة أيام أو خمسة أشهر، أو خمسة سنين، فأفتنا!

وهذا يفيدك في علم التعبير، أنَّ من قواعد التعبير: العلم بالشريعة.

- قال محمد بن سيرين: يقول لك ملك الموت: أنت سألت عن خمسٍ لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]، أنت سألته عمَّا لا يعلم.

- فحتى الملائكة -كما ذكر أهل العلم- أن علمهم بموتك إنما يكون في التقدير الحولي السنوي، وهذا يبعثك على أن تعلق قلبك بالله -سبحانه وتعالى- فتعلم أنَّ الأمور بيد الله -عزَّوجلَّ، فلا يعلم ما في الغد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر على وجه اليقين إلا الله -سبحانه وتعالى- ولهذا يتفاجأ الناس بالأمطار والزلازل مع ما يملكون من أجهزة واستشعارات عظيمة، ومع ذلك يتفاجأ أهل الأرض بأشياء لم يحسبوا له حساب، وما تسونامي الذي حدث في إندونيسيا ولا تسونامي الذي حدث في اليابان عندهم به علم.

- إذن كل هذه الأمور في غيب الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]، فلا يعلم أحد متى تقوم الساعة التي أخفاها الله عن خلقه.

وهذه الأحاديث التي نسمعها الآن ونقرأها تفيد الإنسان بالتعلق بالله -سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الله تعالى بيده الحياة والموت، فلا أنا ولا أنت نعرف متى نموت، ولا نعرف في أي مكان نموت، وحتى إذا عرفت هذا فإن الإنسان إذا أراد الله أن يقبضه في بلد معيَّن جعل الله له فيها حاجة، فيأتي فيموت، فتعرف أن الله قَدَّر أن هذا يموت في المكان الذي أراده الله -عزَّوجلَّ.



باب: إثبات صفة الفرح لله.

{(وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ، فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا»، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» أخرجاه)}.

- أول المسائل وهي من فروع الأسماء والصفات: إثبات صفة الفرح لله -سبحانه وتعالى- فالله يفرح، ويرضى، ويسخط، ويغضب؛ وهو في هذه الصفات لا يماثل صفات المخلوقين بوجه من الوجوه، ومن أثبت له هذه الصفة هو مَن أوحي له بذلك -صلى الله عليه وسلم.
- هذه الأوصاف التي يوصف بها الرب أنه يفرح، وأنه يغضب، وأنه يرضى ويسخط، وأنه -سبحانه وتعالى- يضحك إلى رجلين؛ لا يفهم منها كما يُفهم من صفات المخلوقين؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- ليس كمثله شيء -سبحانه وتعالى.
- ولهذا بعض الناس قد يستشكل مثل: صفة الضحك؛ لأن هذا الحديث يبين أنَّ فرح الله -عزَّ وجلَّ- بتوبة عبده، وأن الله يفرح لكون العبد يتوب، وهذا يبعثك على أثر هذه الصفة، ولهذا لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ»[3]، قال الصحابي: أوَيضحك ربنا؟ قال صلى الله عليه وسلم: «نعم». فهل قال: إن الله -سبحانه وتعالى- يضحك، ثم دخل في دائرة التمثيل، وإن كان الله -عزَّ وجلَّ- يضحك فإن له كذا وكذا من لوزام ما يعتقده في ذهنه؟!!
- لا؛ بل انتقل إلى الأثر مباشرة، وهذه فائدة أثر الصفات، فالله أخبرك أنَّ له يد كما في قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى»[4]، وكما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، بالخير والإحسان والإنعام والإكرام -سبحانه وتعالى.
- فقال: "لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا"[5]، وهذا هو أثر الصفة، أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يفرح بتوبة عبده، مع أن الله -سبحانه وتعالى- هو المحسن، وهو الغني عن خلقه، فالله تعالى يفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه. فالعبد قد يحصل منه العصيان والجنوح، والابتعاد؛ ومع ذلك فالله -عزَّ وجلَّ- يمهله، ويرزقه، ويعافيه، ويفسح له في الأجل، ويعطيه الرزق، ويفتح له؛ حتى يرجع ويتوب، فإذا حصلت منه التوبة فرح الله تعالى به، فإذا كان الله يفرح بتوبة العبد ألا تسارع لتوبة يا عبد الله!
- ومثَّل النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثال حتى يتضح عظيم فرح الرب -سبحانه وتعالى- فقال: إنسان كان على راحلته بأرض فلاة -أي صحراء- فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يخاطب الناس بما يعقلون، فالنبي -

[3] مسلم (١٨٩٠)
[4] البخاري (٦٩٧٦)
[5] روى ابن ماجة (١٨١)، وأحمد (١٦١٨٧)، والطبراني في "الكبير" (٤٦٩) عَنْ وَكِيعِ بْنِ حُدُسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ :(نَعَمْ)، قُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا.وهذا إسناد ضعيف، وكيع بن حدس - ويقال ابن عدس - مجهول، قال الذهبي في "الميزان :(٤/ ٣٣٥) "لا يعرف، تفرد عنه يعلى بن عطاء. " وقد ذهب إلى تقوية الحديث: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فحَسَّنه في مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٩)، وحسنه – أيضا – بطرقه: الشيخ الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (٢٨١٠)، وانتصر لذلك ابن القيم بقوة

صلى الله عليه وسلم- بُعث في مكة، والصحراء تحيط بها، وقلة الماء والمرعى، فهذا رجل أضل راحلته، فراحلته هي سبيل النجاة، فإذا ما كان عنده راحلة يموت.

- قال: «فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ»، يعني: شردت.

والراحلة: هي الناقة، وقد يصيبها شيء فتنفلت.

والراحلة كان عليها طعامه وشرابه، قال: «قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ»، وهذا يفيد أنَّ العبد مخلوق لله -عزَّ وجلَّ- فإذا انفلت وأعرض وسلك سبيل الغواية ثم رجع؛ فإن الله يفرح بهذا الرجوع، كما أنَّ ذاك فرح برجوع دابته.

- قال: «فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا» ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

وهذا يفيدك مسألة: أنَّ الألفاظ المكفِّرة -لأن هذا الكلام كفري- إذا وقع فيها الإنسان من غير قصد؛ فهو من الخطأ المعفو عنه؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- لا يؤاخذ الناس إلا بما تعمَّد المرء فيه، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٥].

- فهذا وقع في لفظ كفري على وجه الغلط، أي: ما لم يقصده، لكن لو قاله بقصد لكان هذا الكلام كفريًّا، فكيف يصف الرب بأنه عبد؟!!

فلمَّا لم يقصد اعتُبِرَ القصد، ولكن لغلبة الفرح عليه أخطأ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.







الدرس الثاني



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{قال المؤلف -رحمه الله: (وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِلِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رواه مسلم)}.

- فهذا الحديث -كما قرأتَ- فيه مسائل:

✸ المسألة الأولى: إثبات صفة اليد لله -سبحانه وتعالى- وتقدَّم أنَّ لله -سبحانه وتعالى- يدين كلتاهما يمين -كما ورد في الحديث- وهنا إثبات هذه الصفة لله -عزَّوجلَّ- على طريقة أهل السُّنة والجماعة على حدِّ قوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌۖوَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، فلله يد ليست كأيدينا قطعًا؛ لأنَّ الله لا مثيل له -سبحانه وتعالى- وهذه اليد وَصَفَهَا الله –عزَّوجل- بأوصافٍ، وجاء في هذا الحديث وصفها بأنها تُبسَط، فَيَدُهُ -سبحانه وتعالى- تُبسَط بالليل؛ ليتوبَ مُسيءُ النهار، وتُبسَطُ بالنَّهارِ؛ ليتوب مُسيءُ الليل، وتقدَّم الكلام على صفة اليد.

✸ المسألة الثانية: مما يجدر التنبيه عليه عند هذا الحديث: أنَّ اليد نُسبَت إلى الله -عزَّوجلَّ- وأُضيفَت، «يَبْسُطُ يَدَهُ»، فالضمير يعود إلى ذاته الكريمة -سبحانه وتعالى.

والمضاف إلى الله -عزَّوجلَّ- كما هو مُقرر عند أهل العلم في باب الأسماء والصفات:

- إمَّا إضافة أعيانٍ قائمة، وهو من إضافة المخلوق إلى خالقه، وهي إضافة تشريفٍ وتكريمٍ، مثـل: إضافة الناقـة لله-سـبحانه وتعـالى- كمـا قـال الله تعـالى:﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[الشمس:١٣]، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه.
- أو إضافة أوصافٍ ومعانٍ، وهذه الأوصاف والمعاني لا تقوم بذاتها، فهي من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهنا إضافة اليد لله -سبحانه وتعالى- من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو الرَّبُّ -سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- وصف هذه اليد بأوصاف، ففي هذا الحديث وَصَفَها بالبسط، ووصفُها بالبسط يمتنع من خلال هذا النَّصِّ أن تُؤوَّل اليد كما يؤولها مَن تأوَّلها بالنِّعمة أو بالقدرة، أو ما شابه ذلك، وهذا ممَّا يُثبتُ أنَّ منهج السَّلف متوافق مع النُّصوص ومع دلالات النُّصوص، وأنَّه المنهج الأعلم والأحكم، والذي به تتَّسق النُّصوص الشَّرعيَّة، بينما سلوك مسلك التأويل هو خروج عن ظاهر النَّصِّ، وهذا الخروج يُوقِعُ في محاذير -كما سوف يأتي بيانها عند الحاجة إلى ذلك.

{قال -رحمه الله تعالى: (ولهما عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ»قُلْنَا: لَا والله! فقال: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» الحديث)}.

- هذا الحديث مخرَّج في صحيح مسلم، والشيخ نسبه إلى الشيخين، وهو من حديث عمر-رضي الله عنه- وفيه أنَّ امرأة من سبايا هوازن، هوازن: قبيلة عربية معروفة حصل بينها وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- معركة حنين.
- ثم بعد هذه المعركة حدث هذا الحدث الذي رآه الصحابة -رضوان الله عليهم- حينما رأوا المرأة التي تبحث في السَّبي، ووجدت ذلك الصبي، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته؛ فهذا المشهد المؤثر الذي يدل على رحمة الأم بولدها، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»، ولهذا يأتي معنا في هذا الحديث مسائل:

المسألة الأولى: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- موصوف بالرحمة، وأنَّ صفة الرحمة لله ثابتة، وإثباتها في هذا الحديث على وجهٍ يمنع تأويلها لِمَا يفعله المعطِّلة الذين يؤولون رحمة الله -عزَّ وجلَّ- بإرادة الإنعام أو إرادة الإحسان، فدلالة الحديث تدل على أنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- أراد الرحمة التي يعرفها النَّاس من أنفسهم ومن واقعهم، مع أنَّ الله -سبحانه وتعالى- رحمته لا تماثل رحمة المخلوقين.

المسألة الثانية: يدل هذا الحديث على عموم رحمة الله-عزَّ وجلَّ- لخلقه،ورحمته تعالى التي هي صفة من صفاته والتي لا مثيل لها -لأنَّ الله رحمته ليست كرحمة غيره- لها آثار، فآثار رحمة الله -عزَّ وجلَّ- لا تماثل رحمة المخلوقين بعضهم ببعض.

وهذه الرحمة التي جعلها الله -عزَّ وجلَّ- في هذه المرأة لولدها هي من الرحمة التي سوف يأتي -إن شاء الله- الكلام عليها من الرحمات التي يتراحم بها الخلق، وهي من آثار رحمة الله -سبحانه وتعالى.

{قال -رحمه الله: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» رواه البخاري)}.

- تحت هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- وهو مُخرَّجٌ في البخاري -كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى- مسائل:

✵ المسألة الأولى: بحث هذا الكتاب الذي كتبه الله -عزَّ وجلَّ- لأن الحديث فيه «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»، فدلَّ على أنَّ ثَمَّ كتاب وثَمَّ مكتوب، أمَّا الكتاب فهو بحث هذه المسألة:

- هذا الكتاب الذي كتبه الله -عزَّ وجلَّ- هل هو اللوح المحفوظ؟ أو هو في اللوح المحفوظ؟ أو في كتاب؟ أو في كتاب خاصٍّ عنده فوق عرشه -سبحانه وتعالى؟
- أقوال لأهل العلم، والذي يهمنا: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- كتبَ هذا الكتاب لأجل هذه القضية المهمة، أو هذا الذي كتبه الله -عزَّ وجلَّ- على نفسه -سبحانه وتعالى- لبيان أنَّ رحمته تغلب غضبه، وأن رحمته -كما في بعض الروايات- تسبق غضبه-سبحانه وتعالى.
- وهذا مما يبعث المؤمن على تعظيم الرَّب -سبحانه وتعالى- فتصور هذه الرحمة، وأن رحمته -سبحانه وتعالى- عظيمة بخلقه، كما سوف يأتي من سياق المصنف -رحمه الله تعالى- للأحاديث التي من خلالها يستفيد طالب العلم معانٍ عن الرحمة -كما سوف يأتي.

✵ من المسائل التي يجدر أن يُنبَّه عليها: أنَّ هذه الرحمة هي من صفاته-سبحانه وتعالى- والله في صفاته لا يُماثل خلقه، كما قال-سبحانه وتعالى:﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥]، وقال:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

- وهذه الرحمة من صفاته الذاتية-سبحانه وتعالى- ومعنى قولنا "صفات ذاتية" أي: لا تنفك عن الرَّب -سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الرَّب يوصف بالصفة الذاتية، والصفة الاختيارية الفعلية.

؟ كيف أتينا بهذه التقسيمات؟

- أتينا بها من خلال استقراء النُّصوص، فَعَلِمنَا أنَّ وصف الرَّب -سبحانه وتعالى- تارة يكون بصفة لا تنفك عنه بحالٍ من الأحوال، وتارة تأتي صفات مما يُبين أن هذه الصفة تحت مشيئته -سبحانه وتعالى- يفعلها أو لا يفعلها، وصفة الرحمة من صفاته الذاتية-سبحانه وتعالى- التي لا تنفك عنه بحال من الأحوال.
- ويُماثلها ويُقاربها صفة العلم، وصفة الحياة؛ فلا يمكن أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- في وقتٍ يعلم وفي وقت لا يعلم -تعالى الله عن ذلك- وكذلك صفة الحياة، فلا ينفك الرب أن يكون موصوفًا بهذه الصفات، وهي الصفات الذاتية.

- كما أنَّ بعض صفات الرب -سبحانه وتعالى- تكون الصفات الفعلية -أو الاختيارية- يفعلها الله -عزَّ وجلَّ- متى شاء، فهي متعلقة بالمشيئة، مثل: صفة الغضب -كما سيأتي معنا إن شاء الله في بعض هذه النصوص وبيانها.
- **وكذلك مثل**: صفة النزول، فالله -عزَّ وجلَّ- ينزل في الثُّلث الآخر مِنَ الليلِ، ونزوله -سبحانه وتعالى- ليس كنزول المخلوقين، والنزول ليس مُلازمًا له -سبحانه وتعالى- بل هو ينزل في وقت دون وقت، ويغضب في وقتٍ دون وقتٍ؛ أمَّا الحياة والعلم والقدرة والإرادة وسائر الصفات الذاتية؛ فهذه لا تنفك عن الرب -سبحانه وتعالى.
- **المسألة التالية**: آثار رحمة الله -عزَّ وجلَّ- باقية ودائمة، بينما آثار غضب الله -سبحانه وتعالى- غير دائمة، ويدل على ذلك حديث **«إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»**[6]، فيه دلالة على أنَّ الرَّحمة سابقة لغضبه -سبحانه وتعالى.

{**قال -رحمه الله:** (ولهما عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»**، ولمسلمٍ معناهُ مِن حديثِ سلمان، وفيه: **«فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»**)}.

- هذان الحديثان تحتهما مسائل جمعهما المصنف -رحمه الله تعالى- فأول هذه المسائل: أنَّ هذه الرَّحمة التي ذكرها الله-عزَّ وجلَّ- جعلها مائة جزءًا، **«فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا»**، هذه الرحمة التي أنزلها الله -عزَّ وجلَّ- هي من آثار رحمة الله -سبحانه وتعالى- وهي من إضافة المفعول إلى فاعله، فهي رحمة مخلوقة، وليست الرحمة التي يُوصف الرب -سبحانه وتعالى- بها، إذن الرحمة المتعلقة بذاته لا يمكن أن يتطرق إليها هذا الوجه.
- كذلك من المسائل التي ينبغي التنبيه عليها عند ذكر هذا الحديث: أنَّ الرحمة المضافة إليه -سبحانه وتعالى- **تنقسم إلى قسمين:**
  - ❑ **قسم يُضاف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف**، التي قلنا فيما سبق أنها المعاني والأوصاف، مثل قول الله -عزَّ وجلَّ:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فهذه الرحمة من إضافة الصفة إلى الموصوف، فالله رحيم موصوف بالرحمة-سبحانه وتعالى.
  - ❑ **وقسم يُضاف إلى الله -عزَّ وجلَّ- من إضافة المخلوق إلى خالقه**، ومنه هذا الحديث **«جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ»**، هذه رحمة مخلوقة. ومثل قول الله تعالى في الحديث القدسي للجنَّة: **«أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»**[7].

---

[6] رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤).
[7] صحيح البخاري (٤٤٩٧).

- وهذه الأحاديث لها آثار تربوية عظيمة، فمن آثارها التربوية العظيمة التي ينبغي للإنسان أن يفهمها وأن يعرفها: أن رحمة الله -عزَّ وجلَّ- واسعة، وهذه الرحمة حتى لا يقنط أحد من رحمته-سبحانه وتعالى- ويثق بهذا الرب الكريم الرحيم، ويتلمَّس رحمة الله -عزَّ وجلَّ: لأنَّ الرحمة لا تتأتَّى للعبدِ دون أسباب، فلابد لها من أسباب، قال تعالى:﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، الله أكبر!

إذن فالإحسان من أسباب الرحمة، وهكذا أشياء كثيرة جدًّا يفعلها الإنسان وهو يتعرض لآثار رحمة الله -سبحانه وتعالى- ومن ذلك:

الاستقامة على طاعة الله -عزَّ وجلَّ، والإحسان إلى الخلق، وبر الوالدين، وأشياء كثيرة في هذا الدين العظيم القويم الذي رَبَّى النَّاس على الإحسان وعلى البِرِّ وعلى الرَّحمة، فديننا -بحمد الله- دين الرَّحمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- هو نبي الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ولهذا فإنَّ الدُّعاة والوعَّاظ، ومَن يريدون أن يقومون بالدعوةِ إلى الله -عزَّ وجلَّ- لابد ألا يغيب عنهم خلق الرحمة، فديننا دين الرَّحمة، لابد أن يكون تعاملنا فيه الرحمة، ونجتنب البغي والظلم؛ لأنَّ هذا -والعياذ بالله- مِن أسباب منع الرحمة، فالإنسان يكون محسن، ويتسامح، ويتسامى على الأحقاد والضَّغائن، وعلى الظلم، يُعامل النَّاس بهذه الأخلاق العظيمة التي هي أخلاق أهل الإسلام؛ لأنَّه يُريد الله -عزَّ وجلَّ.

- والآية العظيمة في سورة الإنسان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩]، فالإنسان يعمل العمل ويتعرض إلى آثار رحمة الله، قال تعالى:﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان ٩-١٢]. فهم يتعرَّضون لنفحات الرَّحمات طلبًا لهذه الرحمة التي أمسك الله منها تسعة وتسعين، وجعل للنَّاسِ رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق، حتى هذه العجماوات جعلها الله -عزَّوجلَّ- تتراحم بهذه الرَّحمة التي خلقها الله فيها، فإذا كان الله أمسك عنده رحمات عظيمة؛ ليرحم بها مَن يشاء فنسأل الله الرحمة، ونسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء الذين يُرحمون وهم في أمسِّ الحاجة إلى الرحمة.

- ولهذا فالحديث الذي بعده: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»، وهذا يبعث الإنسان على العمل، ولا يبعثه على التكاسل والتهاون -نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

{قال المؤلف: (وعن أنس -رضي الله عنه قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» رواه مسلم)}.

✸ هذا الحديث العظيم يُبيِّن أحوال النَّاس في هذه الدنيا، فالناس إمّا مؤمن وإمّا كافر، فالكافر لا ينفك أنه قد يعمل حسنات، وأمور نافعة للخلق، لكن هذه الأعمال لا توافق التقوى، ولا يكون فيها مخلصًا -كما سيأتي إن شاء الله- في بيان هذه المسائل.

فَيُجيب النَّبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذه التساؤلات، فالمسألة الأولى التي ينبغي للإنسان أن يستفيدها من حديث أنس: أنَّ هذا الحديث يدل على كمال عدلِ الربِّ -سبحانه وتعالى- وأنه لا يظلم

الناس مثقال حبة من خردل، ويوم الدِّين هو يوم الحساب وهو يوم الجزاء، ويوم أن يُوفَّى كل عامل ما عمل، ومن عدله -كما تقدَّم- أنه يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، وكذلك فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- مِن عَدله أنَّه لا يُبطل عمل الكافر من جهة الدُّنيا، فإنه يكون له نصيب منها في الدنيا، «أُطْعِمَ بِهَا»، كما في الحديث أنَّ الكافر قد يحصل منه بر لوالديه، قد يحصل منه إحسان للفقراء والمساكين، فهو يُطعَم بها في الدنيا، وهذه الطُّعمَة لم يُبيِّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد تكون مثلًا راحة نفسيَّة، قد تكون زيادة في المال، قد تكون دفع بلاء عنه؛ فهذا من أنه يُوفَّى عمله في الدنيا؛ لأنه ليس ذلك له في الآخرة.

- **المسألة الثانية التي يُفيدها هذا الحديث:** أنَّ ما يعمله الكافر في الدنيا من عمل صالح فعمله في الآخرة حابط ولا ينفعه، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]، ولهذا استشكلت عائشة -رضي الله عنها- هذا، فقالت: "ابن جدعان" وهذا كان مشهورًا في الجاهلية أنه يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟

- فقال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[٨]، فنفعه في الآخرة منقطع؛ لأنَّ الله يُحبط عمله، فالتوحيد شرط قبول العمل؛ لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- لا يقبل من الأعمال إلَّا ما كان خالصًا له، موحَّدًا فيه -سبحانه وتعالى- وصوابًا على سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- أبطل الأديان كلها، قال تعالى:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولا يقبل من العمل إلا ما أُريد به وجهه -سبحانه وتعالى.
  وقد يستشكل أنَّ الكافر قد يعمل -كما قلنا- الحسنات؛ فإنه يُطعَم بها.

- في الحديث لمسة تربوية -إن صحَّت العبارة- يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المؤمن: «فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ»، وهذه لفتة مهمَّة؛ إذن الجزاء بالنسبة لأهل الإيمان ليس في الدنيا، ولذلك نهى الله -عزَّ وجلَّ- عن الالتفات إلى الدنيا، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، فدار الدنيا ليست دار جزاء لأهل الإيمان، بل يدخر الله -عزَّ وجلَّ- لهم في الآخرة النعيم العظيم والنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، فالمؤمن وهو يعمل العمل لا ينبغي له أن يلتفت إلى حظِّ الدنيا، فالكافر قد يعمل العمل لأجل ذلك، فهو يُطعم بها حسنة في الدنيا، وأما المؤمن فإنه يعمل العمل لأجل الآخرة، ولهذا في الآية ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، فالجزاء والشكور يكون في الدنيا، وما الذي حملهم على الإطعام؟

- ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، إذن خوفهم من يوم القيامة، ومما يكون في الآخرة حملهم على الإحسان، وحملهم هذا الإحسان وعظيم الإخلاص أنهم لا يطلبون جزاءً في الدنيا؛ بل إنَّ بعض أهل العلم ومنهم فقهاء الصَّحابة -رضي الله عنهم- ومنهم عبد الرحمن بن عوف وجمع من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يخافون إذا رأوا هذه الحسنة في الدنيا، ويخافون أن تكون

---

[٨] صحيح مسلم (٣٢٠).

عُجِّلَت لهم حسناتهم في الدنيا، فكانوا يخشون من هذا الأمر خشية عظيمة، وهذا يجعلك أنك تعمل وتدَّخر ما تعمله للآخرة لِمَا عند الله -عزَّ وجلَّ- في الآخرة.

- ثم قال: «وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ»، وهذا من فضل الله -عزَّ وجلَّ، فمن بركة الطاعة أنَّ الله قد يمنحه شيئًا في الدنيا، لكنَّ الدنيا ليست هي المقصد، بل الآخرة.

{قال المؤلف -رحمه الله تعالى: (وله عنه مرفوعا: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»)}.

- **هذا الحديث فيه مسائل:**

✸ أنه يُبيّن أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يرضى من عبده أفعال، وأنه عند أكله وعند شربه ينبغي أن يستشعر نعمة الله -عزَّ وجلَّ- فإن المَنعِم حقُّه أن يُشكر وأن يُحمَد، فالذي أنعم على العبد بالأكل والشُّربِ هو المَنعِم -سبحانه وتعالى- فحقُّه أن يُحمَد وأن يُشكّر -سبحانه وتعالى- وحمده باللسان، وشكره بالأعمال، بأن تُستعمَل هذه النِّعَم في طاعته -سبحانه وتعالى.

✸ **كذلك من المسائل المهمَّة في هذا الحديث:** صفة الرضى، وهي من صفات الربِّ -سبحانه وتعالى- الفعليَّة الاختياريَّة، كصفة الغضب، وهي متعلقة بمشيئة الرب، فقد تقرر عندنا أن الصفات إمَّا ذاتية، وإمَّا فعلية واختيارية -فدائمًا نربط بين الصفات الفعلية والاختيارية.

- فالله -عزَّ وجلَّ- يرضى في وقت دون وقت؛ لأنَّ الرضى متعلق بأفعال، قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا».

كذلك مما يستدعيه المُقام من بيان المسائل العلمية في هذا الحديث: أنَّ الرضى لله -سبحانه وتعالى- من صفاته الفعلية الاختيارية التي يفعلها إذا شاء، وَيُعَلِّقها بأعمالٍ يقومُ بها العبد، وهذا بخلاف ما عليه أهل الكلام من متكلمة الأشاعرة والكُلَّابيَّة الذين يجعلون الرضى صفةً أزليَّة لا تعلُّق لها بالمشيئة والاختيار.

؟ ما الذي حملهم على الوقوع في هذه المزالق ومخالفة النصوص؟

- لاشك أنهم يُريدون التَّنزيه، ولكنهم لم يسلكوا مسلك السَّلف في باب أسماء الله وصفاته، هم معترفون بأنهم لم يسلكوا هذا المسلك، يعني أنهم يعرفون أن مسلكهم مخالف لمنهج السلف، ولهذا يقولون -كما يجعلون لهم شعارًا: "مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم".

- فهم يعرفون ذلك، طبعًا هم ظنوا أنَّ مذهب السلف هو التفويض، وهذا ليس بمذهب السلف، ويعترفون أن مذهبهم مخالف لمذهب السلف، والذي حملهم على جعل الصفات الفعلية الاختيارية أنها صفات أزليَّة لا تتعلق بها المشيئة ولا الاختيار: دليل كلامي أخذوه من تراث اليونان والمنطق الأرسطي وعلم الكلام، وهو ما يسمى بدليل حدوث الأجسام -أو دليل الحوادث- فهذا الدليل من خلاله ومن خلال مقدمات أثبتوا أن العالم حادث وليس بمخلوق في مناظرتهم للفلاسفة، ولأجل لوازم هذا الدليل التزموا ما وقعوا فيه من نفي أن الرضى متعلق بالمشيئة والاختيار؛ لأنهم يظنون ويتصورون أنهم إذا أثبتوا الرِّضى لله -عزَّ وجلَّ- في وقت دون وقت أن الرب -سبحانه وتعالى- تحلُّ به الحوادث، وما تحل به الحوادث فهو حادث؛ وعلى ذلك

ينفون هذه الصفات التي وُصفَ الرب -سبحانه وتعالى- بها لأجل هذه المقدمات الكلاميَّة، التي هي في الحقيقة دلائل عقلية مقدوح في مقدماتها وفي نتائجها، وهم ليسوا على منهج واحد في إثبات هذا الدليل، بل هم يختلفون في المقدمات؛ لكن المقصد والحاصل أنَّ الذي حملهم على جعل هذه الصفات صفات أزليَّة وثابتة ولا تعلق لها بالمشيئة والاختيار هو دليل الأعراض وحدوث الأجسام.

- والشبهة التي لأجلها التزموا شبهة حلول الحوادث، فالله -سبحانه وتعالى- منزَّه عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ونحن نُثبت ما أثبته الله -عزَّ وجلَّ- لنفسه، وما أثبته رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولا نتجاوز القرآن ولا السنة، ونحن كما فَعَلَ أسلافنا على هذا المنهج.

- طبعًا النصوص دالَّة على أنَّ الرضى والغضب يكون في وقتٍ دون وقتٍ؛ لأنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»، فهذا دليل على أنَّ الرضى مُتَعَلِّق بحمد العبد لله إذا أكل أو شرب.

ولذلك فإن الله يقول في صفة الغضب: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١]، فدلَّ على أنَّ الغضب يحلُّ في وقت دون وقت.

- وفي الحديث: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»، فهذه أدلة واضحة وبيّنة.

ومن اللمسات التربوية في هذا الحديث: أنَّ أهل الإيمان -بحمد الله- على خير عظيم فيما يتعلق بما يفعلونه في هذه الدنيا، فإنهم في عبادة عظيمة لربهم -سبحانه وتعالى- من جهة أن كلَّ نعمةٍ تُسدَى إليهم فالرب -سبحانه وتعالى- يطلب منهم في هذه النعم الشكر والحمد، ولهذا لا يغيب عن الإنسان حينما يأكل أن يحمد الله-عزَّ وجلَّ.

- كيف لا تحمد الله -عزَّ وجلَّ- وأنت قد سمعت من النبي -صلى الله عليه وسلم- «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»، فإذا انتهيت من الأكل فاحمد الله -عزَّ وجلَّ- على ما أولاك من نعمة، وتذكر نعمة الله -عزَّ وجلَّ- وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من الطعام قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا»[٩]، وتذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا»[١٠]، إلى غير ذلك من الأذكار التي يَتَعلمها الإنسان وَيُعَلِّمَها أبناءه.

❑ وإذا انتهى العبد من الشرب يحمد الله -عزَّ وجلَّ- ويُسَمِّي قبل أن يشرب، ويُسَمِّي قبل أن يأكل؛ فهذه كلها معانٍ لا ينبغي أن يغفل عنه الإنسان، يتأدب الإنسان بها، ويؤدب

[٩] صحيح مسلم (٤٨٩٦).
[١٠] صحيح البخاري (٥٠٦٢).

غيره، ويذكر بها المؤمن نفسه، وَتُذَكِّر بها الأم أبناءها، والأبُ أبناءه، إذا انتهوا من طعام أن يحمدوا الله -عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله هو المنعم -سبحانه وتعالى.

- كيف لا تفعل هذا وأنت تلتمس رضى الله -عزَّ وجلَّ؟! فرضى الله -عزَّ وجلَّ- عظيم وفضله عظيم، وهو بعمل يسير -عمل اللسان.

ثم إنَّ هذه النِّعم التي أنعم الله بها عليك لابد أن تستعملها في طاعة الله -عزَّ وجلَّ- وتكون هذه القوة التي يمنحك الله إيَّاها بالطعام والشراب عونًا لك على طاعته -سبحانه وتعالى- وعلى شكره، لا على محاربته أو معارضته بالمعاصي -نسأل الله العفو والعافية.

{قال: (وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال: «أَطَتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ» رواه الترمذي وقال: حديث حسن. قال «وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» في الصحيحين من حديث أنس)}.

- هذا الحديث فيه مسائل وهي متعلقة برحمة الله -عزَّ وجلَّ- فمن آثار رحمة الله -سبحانه وتعالى- أنَّ الله أخفى عن خلقه أشياء، ولم يبينها لهم لحكمته -سبحانه وتعالى.

  * أول هذه المسائل: عظمة ملكوت الرب -سبحانه وتعالى- وأنَّ ملائكته المُسبِّحة بقدسه خاضعة له -سبحانه وتعالى- وقائمة بعبادته، ومن عبادة الملائكة السجود، كما أن من عبادة الملائكة التسبيح لله-عزَّ وجلَّ، فقال في الحديث: «مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى»، فهذا يدل على عظمة الرب -سبحانه وتعالى- وأنَّ ملائكته هم عُمَّار السماء قد ملؤوا هذا الملكوت وملؤوا السماء بعبادته -سبحانه وتعالى- وبتسبيحه وبالخضوع له.

  * المسألة التي تليها: أنَّ السماء أطَّت، أي: صَدَرَ لها صوت، وهذا الصوت من كثرة عمَّارها ومَن فيها قائمون بعبادته -سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الله غني عن عبادة خلقه -سبحانه وتعالى.

  * كذلك من المسائل المهمة: أنَّ الله أخفى عن عباده ما لو كشفه لهم لامتنع بقاؤهم في هذه الأرض، وهذه من آثار رحمة الله -سبحانه وتعالى- ويدلك على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ»، وهذا يدل على أنه لو حصل هذا حصل معه امتناع النَّسل؛ لأنَّ التناسل من أسباب بقاء الخلق في الأرض.

- قال: «وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ»، يعني: الأفنية والأماكن الواسعة.

- قال: «تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ -عزَّ وجلَّ»، أي: تُصدرون الصوت والخوف، فلا تنعمون بحياتكم، فالله-عزَّ وجلَّ- من آثار رحمته أنه أخفى عليهم ما يحصل به امتحانهم وابتلاؤهم في هذه الدنيا، ولهذا يُفضَّل أهل الإيمان على غيرهم بأنهم ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة ١-٣]، موضع الشاهد قوله ﴿يؤمنون بالغيب﴾، فإيمانك بغيب الله -عزَّ وجلَّ- يحملك على العمل الصالح.

{قال -رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن جندب «أَنَّ رَجُلًا، قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»)}.

- هذا الحديث في تعظيم الرب -سبحانه وتعالى- ومناسبة هذا الحديث لِمَا قبله: بيان أنَّ رحمة الله -عزَّ وجلَّ- لا يجترئ عليها أحد، ولا يجوز لأحد أيًا كان أن يجترئ على رحمة الله -عزَّ وجلَّ- فرحمته -سبحانه وتعالى- وسعت كل شيء، ولهذا جاء في الحديث وهو في إخبار مَن كان قبلنا، قال: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ...».
- طبعًا للحديث مناسبة كما جاء في بعض الروايات: أن رجلًا كان يعظ أخاه فيما كان يفعله من المعاصي، ثم إنَّه لما رأى اجتراءه على معاصي الله -عزَّ وجلَّ- غفل وأُعجِبَ بعمله واستصغر عمل هذا الرجل وجرأته على الله -عزَّ وجلَّ- فوقع في المحظور وهو التألِّي على الله -عزَّ وجلَّ- إذ إنه حلف أن الله -جلَّ وعَلا- لا يغفر لفلان، وهذا لا شك أنه اجتراء على الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا قال الله تعالى كما في: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ!»[11]، أي: من ذا الذي يحلف على الله -عزَّ وجلَّ؟!
- قال: «... أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ»، المغفرة من خصائص الله تعالى، فيغفر لمن يشاء -سبحانه وتعالى- فلا يتأتى لأحد أيًا كان أن يتألَّى على الله -عزَّ وجلَّ.
- قال: «فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»، هذا يدل على أنَّ هذا العامل لم يقع في الكفر، ولكنه وقع في المعاصي، ولذا على الإنسان ألا ينظر للناس أهل المعصية بعين الازدراء والتَّنقُّص، ولكن بعين الرحمة، وألا يُعجب الإنسان بعمله، ولا يجترئ على ارتكاب المعاصي، فهذا صوَّر له الشيطان أنَّ ما فعله غيرَة على محارم الله، فوقع في منكر أعظم مما يفعله ذاك؛ فتألَّى على الله -عزَّ وجلَّ- فينبغي للإنسان ألا يجترئ على هذه الأمور.

كذلك من المسائل المهمة تحت هذا الحديث: تحذير العباد من الخوض في أعمال العباد، فالإنسان لا يتكلم في أحد، ولا يقول: هذا عمله مقبول، وهذا عمله مردود، هذا كذا، أو كذا؛ فينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه عن هذا، واللسان له مزالق، بل إنَّ اللسان من أعظم أسباب دخول النار -أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

- ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ: «هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[12].

{قال -رحمه الله: (وله عن أبي هريرة مرفوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ»)}.

✸ هذا الحديث فيه الجمع بين الرحمة والعذاب، وأنَّ رحمة الله -عزَّ وجلَّ- كما أنها قريبة من عباده، كذلك غضبه وسخطه قريب من عباده، ولهذا نقول في مسائل هذا الحديث في تقرير صفتي العذاب والرحمة، ولهذا جمع الله تعالى بينهما فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

[11] رواه مسلم
[12] مسند أحمد (٢١٤٩٤).

﴿الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، فرحمته-سبحانه وتعالى- سبقت غضبه، ولكن لا يأمن الإنسان من آثار غضبه-سبحانه وتعالى- العذاب الأليم وهي النار-أعاذنا الله وإياك من النار، وهذا من التقابل.

ولهذا جاء في الحديث «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[١٣]، إذن يكون الإنسان بين هذا وذاك، بين الرحمة وبين العذاب، فلا يتَّكل على الرحمة، وفي نفس الوقت يخشى من العذاب؛ لأنَّ الله جمع بينهما، فهو الغفور الرحيم، فلا يأتي أحد ويقول: إنَّ الله هو الغفور الرحيم؛ ثم يجترئ على محارم الله وعلى المعاصي.

إذا قال: "إن الله غفور رحيم" قلنا: "وعذابه عذابٌ أليم"، فكما أنك ترجو رحمته ومغفرته فعليك أن تخشى عذابه ونقمته-سبحانه وتعالى.

* **كذلك من المسائل المتعلقة بهذا الحديث:** أنَّ المؤمن يكون في حال الدنيا بين حالي الخوف والرجاء، ولهذا قال أهل العلم: "إنَّ الخوف والرجاء بالنسبة للمؤمن هما كجناحي الطائر"، هذا الطائر يطير بجناحين؛ إذن لا يغلب جناحٌ جناحًا، فيكون بين الخوف والرجاء، كما قال الله تعالى:﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، فلا يجترئ على محارم الله -عزَّ وجلَّ- بزعمه أنَّ الله غفور رحيم، وأنَّ رحمته سبقت غضبه، فيخشى من عذابه، فإنَّ عذابه هو العذاب الأليم -سبحانه وتعالى.

* **المسألة التالية:** الأصل في الإنسان في حال الدنيا وحال السلام كما قرر أهل العلم في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح وغيره من أهل العلم، وكلام أصحاب الإمام أحمد فيما نقلوه عن الإمام أحمد، وعن عموم أهل السنة: أن الأصل أن يُغَلِّبَ الإنسانُ جانب الخوف على الرجاء في حال السلامة؛ لا يكون راجيًا بمزيد، ولا خائفًا بمزيد، فيكون الخوف أغلب، حتى يحمله الخوف على المسارعة؛ ولأنَّ الإنسان من طبعه أنه يميل إلى الدعَّة والكسل والتَّراخي، فإذا أحسَّ بالخوف حمله ذلك على الإقبال على الله -عزَّ وجلَّ.

- ولكن عند حضور أجله أو أحس بقرب أجله فعليه أن يُغلِّب جانب الرجاء؛ لأنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»[١٤]، فيكون حسن الظن بربه، ولهذا ذكر أهل العلم أنَّ من حضرَ مُحتضَرًا عند أجله فعليه ألا يحدثه بأحاديث الخوف، وإنما يُحدثه بأحاديث الرجاء التي وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم، ومن أحاديث الرجاء قوله -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، يُحدثه بهذه الأحاديث، وبفضائل الأعمال الصالحة حتى يُغَلِّبَ عليه جانب الرجاء، فيموت وهو حسن الظن بربه -سبحانه وتعالى-

---

[١٣] رواه مسلم (٢٧٥٥).
[١٤] صحيح مسلم (٥١٢٨)
[١٥] صحيح البخاري (٦٨٩٦)

والله تعالى يقول كما في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»[١٦]، فيكون حسن الظن بربه -سبحانه وتعالى.

وهذه الأحاديث تربي في نفس طالب العلم أشياء عظيمة جدًّا، فيكون الإنسان بين الخوف والرجاء في أعماله، فلا يغلب جانب على جانب، ويحدوه ذلك إلى الآخرة وإلى العمل الصالح.

؟ بعضهم إذا حضر عند شخص مريض بمرض الموت، تجده يذكر جانب من أعماله الصالحة. فهل هذا حسنٌ؟.

- هذا شيء طيب، إذا كان الرجل مريضًا وَأَحَسَّ أنَّه في آخر أيامه، فهذا جيد، وإن كان أهل العلم ذكروا أنَّه ذلك يكون في حال الاحتضار، يعني إذا بدأت مقدمات الموت، ولها علامات، فإنَّ الإنسان يُحدثه بذلك، والإنسان يُراعي في هذه الأحوال هذه الجوانب.

{قال -رحمه الله: (وللبخاري عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»)}.

- هذا حديث عظيم، وفيه جوامع كلام النَّبي -صلى الله عليه وسلم، فلو بحثت على ما تُرقِّق به النفوس من الكلام الفصيح البليغ لن تجد خيرًا من كلام الله ومن كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم. وهذا الحديث فيه موعظة عظيمة، فالجنة قريبة جدًّا منَّا -نسأل الله الجنة- وأن النار مثل ذلك.
- **وتحت هذا الحديث مسائل:**
- **المسألة الأولى:** أنَّ انتقال المؤمن للجنة، أو انتقال الفاجر أو الكافر إلى النَّار أقرب ما يكون؛ لأنَّ الإنسان لا يحول بينه وبين الجنة إلا مفارقة الروح للجسد؛ لأنَّ أول منازل الآخرة هي القبر، ويسميه أهل العلم "دار البرزخ" لأنَّ الدُّور ثلاثة:
  - دار الدنيا.
  - ودار البرزخ.
  - ودار الآخرة.
- والقبر هو أول منازل الآخرة، ولأرواح أهل الإيمان تعلُّق في الجنة، ولهذا ورد في الحديث أنَّ أرواح أهل الإيمان في الجنة تسرح[١٧]، وأنَّ الشهداء «أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضرٍ»[١٨]، إلى غير ذلك، أما أرواح الكفار ففي سجِّين، فالإنسان انتقاله قريب، فإذا تذكر الإنسان أنَّ الجنة قريبة وأنَّ النَّار قريبة فعلامَ يجترئ على محارم الله! وعلامَ يظلم الخلق! ويتجرئ على ظلم الخلق ونهب أموالهم والتَّعدِّي على أموالهم العامة، والتخوُّض في أخذ حقوق الناس وظلمهم!
- فما بينكم وبين الجنة والنار إلَّا شيء بسيط، ولهذا مثَّله بشراك النَّعل؛ لأنَّ أقرب ما يكون لك هو شِراك النعل، يعني معقد النَّعل، لأن النعل في السابق كان له شراك، فهو قريب جدًّا منك، ولذا فإن الجنة

---

[١٦] مسند أحمد (٨٨٧١).
[١٧] جاء في نص الحديث: " إنَّ نسمةَ المؤمنِ تسرحُ في الجنةِ حيثُ شاءت" حسنه السيوطي في شرح الصدور (٣٠٧).
[١٨] صحيح مسلم (١٨٨٧).

قريبة منك، وكذلك النار قريبة منك، والحديث يدل على أنَّ دار البرزخ الحكم فيها للأرواح والأبدان تبعٌ -كما قرَّر ذلك أهل العلم- وأنَّ الإنسان ما يحول بينه وبين الانتهاء والانفصال عن هذه الدنيا والانتقال لدار الآخرة -وأول منازل هذه الدار هو البرزخ إلا الموت، فنسأل الله حسن الختام، وأن يتوفانا على الإسلام والسُّنَّة غير مبدلين ولا محدثين.

- فالإنسان لا يكون في مأمن، وهذا يبعثك على الخوف من الله-سبحانه وتعالى- وعلى التَّعرُّض لرحمات الله -عزَّ وجلَّ- فإن الجنة قريبة، والنار قريبة، فكيف تجترئ أن تكون على حذر عظيم وحذرٍ بالغٍ من أنَّ قد يُختَم لك بعملٍ سوء، وما يدريك أن تُقبَض روحك وأنت على معصية من معاصي الله -عزَّ وجلَّ؟! فكيف تلقى الله -عزَّ وجلَّ؟!

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.







الدرس الثالث



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

في هذه الحلقة -بإذن الله- سنشرع في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه. قال: («إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا».

وقال: «دخلت النَّارَ امرأة في هرةٍ حبستها؛ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ». قال الزّهري: "لِئلا يتكل أحد ولا ييأس أحد". أخرجاه)}.

وكما ذكرت -أخي الفاضل- وقرأت هذين الحديثين من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه.

- الحديث: (وعن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- مرفوعا: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ له مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا»).

هذا الحديث مخرَّج في الصحيحين من حديث ابن عمر -رضي الله عنه- وكذلك من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

تحت هذين الحديثين مسائل:

❖ المسألة الأولى: بعض المفردات تحتاج بيان، مثلًا: النَّبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا»، البغيُّ: هي المومس التي تزني وتقبض أجرًا على فِعلها -نسأل الله العافية والسلامة.

- ومِن الألفاظِ التي تحتاج بيان في الحديث: قال: «فَنَزَعَتْ له مُوقَهَا»، المُوق: هو الذي يُلبَس فوق الخُف، وهي كلمة فارسيَّة معرَّبة.

فهذه المرأة رأت هذا الكلب بلغ به العَطش مَبلغًا عظيمًا جَعَلَه قد أدلع لسانه -وهذا وصف لحالة الكلب- في يوم حارٍّ، وهي قد وصلت إلى بئرٍ -الذي يؤخذ منه الماء- فعملت عملًا، وهو أنه من رحمتها بهذا الكلب نَزَعَتْ لَه هذا الموق وأخذت مِن خِلاله الماء فسقت هذا الكلب، هذا عمل فعلته وهي امرأة وقعت في كبيرة من كبائر الذنوب، وهي مُستديمة على هذه "الكبيرة"، وهي كَبِيرةُ الزِّنَا -أعاذنا الله وإيَّاكم مِن هذا- فَقَابَلَها اللهُ -عزَّ وجلَّ- بالمغفرةِ لها مِن أجل هذا العمل.

- نفسر الحديث الذي بعده: قال: «دَخَلَت النَّارَ امرأةٌ فِي هِرَّةٍ».

الهرة: هي أنثى القط.

- هذه الهرة «حَبَسَتْهَا»، أي: منعتها مِن أن تنطلق.
- قال: «لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا» حينما حبستها.
- قال: «وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»؛ لأنَّ الهِرَّة تأكل خشاش الأرض، أي: الحشرات وما شاكل ذلك.
- ثم ختم الزهري -رحمه الله تعالى- قال: (لِئلا يتكل أحد ولا ييأس أحد)، سنأتي عليه بالبيان -إن شاء الله- من خلال المسائل.

❖ **المسألة الثانية**: مما يُستفاد من هذين الحديثين: أنَّ العملَ الصَّالح إذا قَوِيَ الإخلاص فيه قد يأتي على السيئات كلها بالمحو، فالعمل الصَّالح ولو كان في نظرك قليلاً، ولكن إذا استكمل شروطه، وعَظُمَ الإخلاص فيه؛ يأتي على السيئات كلها فيمحوها، وهذا فضل الله ومن رحمته -عزَّ وجلَّ- بخلقه.

❖ **المسألة الثالثة**: حَبْسُ الحيوان وتعذيبه ليس في شريعة الإسلام، بل هو محرَّم، فالمرأة حبستها ولم تُطْعِمها ولم تتركها تأكل مِن خَشَاشِ الأرض، فكان ذلك العمل في صورته عملٌ يسيرٌ عند كثيرٍ مِنَ النَّاس ولكنه كان مِن أَسبابِ دخول النَّار -نسأل الله السَّلامة والعافية.

ولهذا فالإنسان ينبغي عليه أن يَعتني بمتابعته للنَّبي -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في عمله، وبتحقيق الإخلاص في الأعمال.

ولهذا يقول أهل العلم: تحقيق الإخلاص، وتجريد المتابعة؛ لأنَّ العملَ الصَّالِح إذا أخلص الإنسان فيه لله -عزَّ وجلَّ- كان ثَوابُه عند الله عظيم. ولك عبرة في قصَّة المرأة البغي.

❖ **المسألة الرابعة**: كان ابن المبارك -رحمه الله- يقول: **"كم من عمل قليل عظَّمته النيَّة، وكم عمل عظيم حقَّرته النيَّة"**. ولهذا فإنَّ تفاضل الأعمال ليس بصورته الظاهرة كما يتصور النَّاس، وإنما بحسب ما يقوم في القلوب.

ولهذا فالإنسان يرجو مِن كُلِّ عملٍ فضل الله -عزَّ وجلَّ، ويخشى مِن كُلِّ ذَنبٍ، فأنت ربما تَعمل بعض الأعمال الصَّالحة وأنت تظن أنَّها يسيرة، ولكنَّها عند الله عظيمة إذا تحقق الإخلاص، ولهذا كان السلف -رحمهم الله- يحبون أن يكون لهم خبيئة من عمل صالحٍ.

والخبيئة: هي الأعمال التي لا يطلع عليها أحد.

كانوا يُحبون ذلك حتى يَعظُم الإخلاص فيها؛ لأنَّه إذَا عَظُمَ الإخلاص في العمل عَظُم الأجر مِن الله -سبحانه وتعالى.

فانظر إلى تلك المرأة التي أسرفت على نفسها بالمعاصي، فَعَمِلَت هذا العمل وأخصلت فيه لله -عزَّ وجلَّ- رجاء ثوابه، فكان ذلك من أسباب المغفرة -نسأل الله أن يغفر لنا.

- لهذا -كما قلت: إنَّ الأعمالَ لا تتفاضل بصورتها الظَّاهرة، وإنما تتفاضل بحسب ما يقوم في قَلبِ العبدِ، ولهذا «**سبق درهم ألفي درهم، وسبق دينار ألف دينار**»[19]، ما الذي جعله يسبقه؟

الإخلاص لله -عزَّ وجلَّ.

فلهذا ينبغي للإنسان أن يُعنَى بتحقيق الإخلاص لله -سبحانه وتعالى.

- ولهذا وردت أحاديث كثيرة في غير هذا الموضع: «**أن رجلًا أماط شوكة عن الطريق فغفر الله له**»[20].

إذن لا تَحقرنَّ مِنَ المعروف شيئًا، ولا تحقرنَّ الأعمال في صورتها الظَّاهرة، فَرُبَّ العمل القليل عظَّمته النيَّة وجعلته عظيمًا، وعمل آخر يبدو عظيمًا في صورته ولكنه يضعف من جهة النيَّة. ولذلك فمدار الأمر على الإخلاص لله -سبحانه وتعالى.

❖ **المسألة الخامسة**: قال محمد بن شهاب الزهري -وهو أحد أئمة التابعين: **(لِئلا يتكل أحد ولا ييأس أَحد)**. الله أكبر!

سيكون الإنسان بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة الله -عزَّ وجلَّ- وفي نفس الوقت يخشى عذابه، فربما أعمالٌ صَالحة كانت من أسباب دخول الجنة، وربما أعمالٌ يَسيرةٌ تكون سببًا في دخول النَّار، ولهذا لابد أن يكون الإنسان على خوفٍ ورجاءٍ حتى يَسير في هذا الطريق حتى يبلغ فَضل الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا لِمَا يقوم في القلب من الإخلاص وإن كانت الأعمال في ظاهرها أنها يسيرة؛ يكون الثَّواب عند الله -سبحانه وتعالى.

ولهذا -أيُّها الإخوة- لابد للإنسان أن يُعنَى بتحقيق الإخلاص في قلبه، فيتذكر هذا الإخلاص، ويتذكر أنَّه يعمل لله -عزَّ وجلَّ- ويَعظُم هذا في قلبه، ويرجو ثواب الله على هذا.

{قال -رحمه الله: (وعنه مرفوعا: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ». رواه أحمد والبخاري.

وعن أبي موسى الأشعري -رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ». رواه البخاري.

[19] رواه النسائي وحسنه الألباني، ونصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا.

[20] صحيح البخاري: ٦٥٢، صحيح مسلم: ١٩١٤. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ.

وله عن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتعالى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»)}.

- تحت هذه الأحاديث التي ذكرها المصنف -رحمه الله تعالى- مسائل:

❖ المسألة الأولى: في قول النَّبي -صَلَّى الله عليه وَسَلَّم- «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ».

- هذا العجب صفة من صفات الله -عزَّ وجلَّ- وهي كغيرها من الصفات، تُثبَت لله مع قَطْعِ مُمَاثلة صفات الله -عزَّ وجلَّ- لخلقه على حدِّ قوله -سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

- وهذه الصِّفة وَرَدَت في النُّصوصِ مِن كلام الله، ومن كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذا من كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، حيثُ نِسبَةُ العَجَب للهِ -سبحانه وتعالى- وهو كَغيرِه مِن صِفَات الله -عزَّ وجلَّ- تثبَت كما جاءت في النُّصوص، ولا يُسأل عنها بكيفٍ، كصفة النزول، وصفة الضَّحِك، ويُقطَع نفي المماثلة لله -عزَّ وجلَّ- لخلقه في صفاته -سبحانه وتعالى.

❖ المسألة الثانية: أنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»، الحديث في أصح أقوال أهل العلم أنَّ هذا يَصدق على مَن وقع عليه الأسر من الكفار في الجهاد، وكان بعد الأسر مُسلمًا، وهذا وقع من عدد من أبناء التَّابعين، وتابعي التابعين، فإنَّ آباءهم كانوا موالي بسبب الأسر، ثم حصل لهم ولآبائهم بهذا الأسر الخير الكثير.

- على سبيل المثال: الحسن البصري -رحمه الله تعالى- وابن سيرين، كانا من أبناء موالي، ومع ذلك فمن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، والإسلام ليس حِكرًا على جنس دون جنس، وإنما ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الأسر في صورته الظَّاهرة عُقوبة وأذى ومصيبة، ولكن ربما محنة أعقبتها المنحة من الله -سبحانه وتعالى- فهذا هو موضع عَجَبُ الرَّبِّ -سبحانه وتعالى- أنَّ هَذا الأسر كان سببًا لدخولهم الجنة، ولهذا فإنَّ العبرة بالخواتيم.

- وكذلك حديث: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ»، فصفة الصبر تُثبَت لله -عزَّ وجلَّ- فالله يصبر على الأذى، ومن أسمائه -سبحانه وتعالى- الصبور.

- وآثار صبره -سبحانه وتعالى- ما ذُكر في هذا الحديث، فالله -عزَّ وجلَّ- لا يُقاس صبره بصبر خلقه، ولهذا حِلمُ الله -عزَّ وجلَّ- وصبره لا يُماثل صبر المخلوقين، ولهذا قال: «عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ»، يعني: أنَّ الله -جلَّ وعلا وتقدَّس- يدَّعون له الولد -وهذا نسبة تعطيل له وعجز- كما يقوله النَّصارى ومن سار على نهجهم، ومع ذلك فالله -عزَّ وجلَّ- يُعافيهم ويرزقهم؛ لأنَّ رُبوبية الله -سبحانه وتعالى- ليست حِكرًا على

أحد، فهي شاملة، ومع ذلك فالله -عزَّ وجلَّ- يُعافيهم وَيرزقهم، ويُقيم عليهم الحجج، حتى إذا جاء يوم القيامة وَفَّاهم أعمالهم وليس لهم حُجَّةً على الله -سبحانه وتعالى- بشيءٍ. فهذا من الأحاديث العظيمة

- كذلك حديث أبي هريرة الذي ذكرته قبل قليل عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتعالى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا**»، هذا فيه إثبات صفة المحبَّة لله -سبحانه وتعالى- وأنَّ الله يُحبُّ عباده، وأنَّ صفة المحبة لله تعالى كغيرها من الصفات، لا تُقاس بصفات المخلوقين على أيِّ وجهٍ كان، وبابها باب الصفات الكاملة، إثباتها كما جاء في النصوص، وعدم السؤال عنها بـ "كيف" ومعرفة معاني هذه الصفة، أنَّ لها معنًى ولها آثار.

وفي الحديث جاء أثر هذه الصفة:

- قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتعالى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا**»، فأثر هذه الصفة أنه «**نادى: يا جبريل**»، فيه إثبات صفة النِّداء، وأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُنادي ويتكلم، وكلامه ليس ككلام المخلوقين بأي وجهٍ من الوجوه.
- قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا**»، والله -عزَّ وجلَّ- يتكلم -كما هي عقيدة أهل السنة- بحرف يُكتب، وصوتٍ يُسمَع.
- قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ**».

طبعًا هذه مَرتبةٌ عظيمةٌ مِن مراتب الولاية، أنَّ الولي يَبلغ مِن مَحبةِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- له أنَّ الله تعالى يُنادي جبريل بهذا، وجبريل يُنادي في الملأ الأعلى بهذا، فهذه مَرتبةٌ عظيمةٌ لا تكون إلَّا لأولياءِ الله الذين حققوا الإخلاص، وجرَّدوا المُتابعة لرسولهِ -صَلَّى اللهُ عليه وسلم- فيُعلَم مِن هَذا أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُحبُّ عبدَه، وفيه إثبات أنَّه يُحب -سبحانه وتعالى.

- قال: «**ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ**»، يعني: يَقبله أهل الإيمان؛ لأنَّ العِبْرَةَ بالقبولِ ليس لعموم أهل الأرض؛ لأنَّ الأنبياء وهم أنبياء لهم أعداء، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فهذا يعني أنَّ القبولَ في الأرض يكون لأهلِ الإيمانِ، فيُحبُّه أهل الإيمان، وهذه مرتبةٌ عظيمةٌ مِن مراتبِ الولاية لعبده -سبحانه وتعالى.

{قال -رحمه الله: (**عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الآية رواه الجماعة**)}.

- هذا حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ البُجَلي، وجَرِير من أعيان الصَّحابة، ومن قبيلة عربية -قبيلة بجيلة- جهة اليمن، وجرير -رضي الله عنه- حدَّث عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم، فالنَّبي -صلَّى الله عليه وسلم- في مجالس متعددة يُحدث الصَّحابة ويُخبرهم بما يكون يوم القيامة، فهو يسوق لنا هذا الحديث.

- قال: (كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ)، القمر -كما هو معلوم- له أحوال، فتارة يكون هلالًا، وتارة يكون أحدبًا، وتارة يكون بدرًا، وهكذا حتى يصل إلى مرحلة المحاق، فالقمر في ليلة البدر يُعدُّ من أحسن ليالي الشهر من السُّمَّار والمسافرين، ورؤية القمر ليالي البدر من أعظم أحوال رؤية القمر، فيراه النَّاس كلهم، ولا يخفى على أحدً؛ لأنّهُ في مرحلة الهلال أو ما شاكلها يكون خفيًا، وأمَّا ليلة البدر فيمكث على أهل الأرض في الليل مُدة طويلة، ولهذا فالنَّبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنَّ أهل الإيمان يرون ربهم كما يرون هذا القمر، وهذه الرؤية تكون في عَرصات يوم القيامة، والعَرصات: جمع عَرَصَة، وهو المكان الواسع، وتكون في الجنة، وهذه الرؤية خاصة بأهل الإيمان.
- وأمَّا الكفار فقد ثبت أنهم محجوبون عن رؤيته -سبحانه وتعالى، وهذا من العذاب الذي يُعجله الله -عزَّ وجلَّ- لهم في عَرصات يوم القيامة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].
- ولهذا أثبت السَّلفُ الصالح مِن الصَّحابةِ والتَّابعين هَذه الصِّفة، وهي أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُرى، ورؤية الله -عزَّ وجلَّ- هي من أعظم نعيم أهل الجنة كما جاء في حديث صهيب الذي خرَّجه الإمام مسلم في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، حيثُ فَسَّرَ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- الزيادة برؤية الرَّب -سبحانه وتعالى- في الجنة، فهذا أعظم نعيم لأهل الجنة.
- ولهذا شبَّه النَّبي -صلى الله عليه وسلم- هنا الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي؛ لأنَّ القَمَرَ مخلوق، والله -سبحانه وتعالى- هو الخالق، ولكن شبَّه الرؤية بالرؤية، يعني: كما أنَّكم تَرَونَ القَمَرَ ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، أي: لا يلحقكم ضيمٌ، ولا يلحقكم أذى في رؤيتة، فما أحد يتزاحم على رؤية القمر، وكل النَّاسِ يَرَونَه؛ لأنَّه عالٍ في السماء، فيرونه على حدٍّ سواء، فكذلك شبَّه الرؤية بالرؤية، ولهذا قال: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ».

والله -عزَّ وجلَّ- يُرى، وحينما يُرى فرؤيته ليست كرؤية خلقه -سبحانه وتعالى- فهو لا مَثيلَ له، ولا سميَّ له، ولا نِدَّ له ولا نَظِير -سبحانه وتعالى- ونبين هذا فيما سيأتي -إن شاء الله.

- وهنا لفتةٌ تربويةٌ عظيمةٌ وهي أنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- حينما يُحدث الصَّحابة بما يكون يوم القيامة؛ يُبيِّن لهم أنَّ هذا الذي يكون يوم القيامة، وهذه الأعمال الصَّالحة لها أسباب في الدُّنيا، فعلى أهل الإيمان أن يتعاطوا أسباب هذا النَّعيم، ولهذا لمَّا حدثهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بما هو كائن يوم القيامة وأن أهل الإيمان سيرونه؛ ذَكَرَ لهم السَّبَبَ فقال: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ولاحظ عبارة النَّبي -صلى الله عليه وسلم!

يعني: كُن حَريصًا على هاتين الصَّلاتين، قبل طلوع الشَّمس، أي: صلاة الفجر، والصَّلاة قبل الغُروب، أي: صلاة العصر.

- ولهذا قال النَّبي -صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[21].

---

[21] صحيح البخاري (٥٤٢)، صحيح مسلم (١٠١١).

- إذن من أسباب حصول الرؤية لك يوم القيامة أن تكون -يا عبد الله- ممَّن واظبَ وحافظَ على صلاتي الفجر والعصر حيث يُنادى بهنَّ في المساجد؛ لأنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].
- وقال ابن مسعود: "لَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ"[٢٢]، هذه السنة الواجبة وليست السنة المستحبة.
- ولهذا ينبغي لأهل الإيمان ألَّا يُفرطوا في هذا الثَّواب العظيم، وفي هذا الفضل العظيم، كما أنَّ صلاة الصبح وصلاة العصر جاءت فيها أحاديث كثيرة، فينبغي للإنسان ألَّا يحولُ بينه وبين هاتين الصَّلاتين حائل، فيكون حريصًا كل الحرص أن يُصلي هاتين الصَّلاتين، وأن يتذكر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، فهذه وصية المُحب لمن يُحب -صلوات ربي وسلامه عليه- الذي ما ترك من خيرٍ إلَّا ودلَّ الأمة عليه -عليه الصلاة والسلام.

عند الكلام عن صفات الله -سبحانه وتعالى- وعن أسمائه، بعض الناس يقول: قد يقع في الذهن بعض التشبيه، فما السبيل إلى دفع هذا التشبيه؟.

- عند السلف -رحمهم الله- قواعد عظيمة.
- أولًا: ما يَقذفه الشيطان في قلبك فهذا من وسوسة الشيطان، وينبغي أن تعرف أنَّ الله -سبحانه وتعالى- أعظم وأجل من أن يُدرَك من جهة كيفية الصفات، لهذا فمن قواعد أهل العلم من أهل السنة والجماعة، يقولون: "قطع الطَّمع عن إدراك كيفية الصفات"؛ لأنَّ القَلبَ له طمع في إدراك هذه الكيفية، ولكن إذا قطعته انقطع، فتعلم أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لا يمكن أن يُدرك من جهة كيفيته، وتعرف أنَّ للصفةِ معنى، ولكنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أجل وأعظم من أن يُكيِّفه أهل التكييف -سبحانه وتعالى.
- ولهذا النَّبي -صلى الله عليه وسلم- فيما جاء عنه من النُّصوص؛ ليس المطلوب منَّا أن نكيِّفها، ولكن المطلوب أن نثبتها ونعرف معناها، ونثبت آثار هذه الصفة، وفي الحديث لما حدَّث النبي -صلى الله عليه وسلم- بحديث: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ»[٢٣]، فقال الصحابي: أوَيضحك ربنا؟!
- لكن لم يخض في مسألة التكييف؛ فلم يَقُل:
  - ✓ كيف يضحك الرب -سبحانه وتعالى؟!
  - ✓ هل له -تعالى وتقدَّس- أسنان وشفتان؟!

---

[٢٢] رواه مسلم (٦٥٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ).

[٢٣] صحيح البخاري (٢٦٢٧).

- الله -عزَّ وجلَّ- مُنزَّه عن ذلك؛ لأنَّه لا مَثِيلَ له، ولا سَمِيَّ له، ولكنَّ الصَّحابي نَظَرَ إلى آثَارِ هذا الضَّحِك فقال: "لن نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا"[٢٤]، فآثار هذا الضحك هي رحمة الله -عزَّ وجلَّ- بخلقه.

ولهذا فإنَّ مِن آثَارِ هذه الرُّؤية: أن يكون الإنسان محبًّا لربه -سبحانه وتعالى- سائلًا أن يريه الله -عزَّ وجلَّ- وأن يلحقه النعيم، وأعظم النعيم هو رؤية الربِّ -سبحانه وتعالى- في الجنة.

جاءت أحاديثٌ كثيرةٌ في أنَّ هذا يكون يوم المزيد، وأنه يحصل لهم من الحبور ومن اللذة، ومن السرور ومن النَّضارة لأهل الجنة ما يرجعون إلى أهليهم في الجنة فيرون أحوالهم قد تغيرت، وذلك فضل الله -عزَّ وجلَّ- نسأل الله ألا يحرمنا فضله.

{قال -رحمه الله: (وعن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- أنَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلا بُدَّ لَهُ مِنْهُ». رواه البخاري)}.

- هذا الحديث حديث عظيم، ويشتمل على أحكامٍ كثيرةٍ جدًّا، وعلى معانٍ عظيمة جدًّا، ولهذا بعض أهل العلم، منهم الشوكاني -رحمه الله تعالى- المتوفى ١٢٥٠ للهجرة شرحه في كتاب بعنوان: "قطر الولي على حديث الولي"، هذا يُسمى بحديث الولي؛ لأنَّه حدَّد ولاية الله -عزَّ وجلَّ- لخلقه وبينها، طبعًا هذه الولاية كائنة، وأنَّ مِن خلق الله أولياء لله -عزَّ وجلَّ- كما في حديث جبريل: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبدًا نَادَى جِبْرِيل»، وهذه المناداة لا تكون إلا لأولياء الله -عزَّ وجلَّ.

- وولاية الله لبعض خلقه لا تكون إلا لمراتب الخُلَّص من خلقه، ووردت الولاية في قول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]. من هم؟

- قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، إيمان وتقوى.

إذن سبيل الولاية: الإيمان والتقوى.

كيف يكون الإنسان وليًا لله -عزَّ وجلَّ؟

مَن كان مؤمنًا بالله مُتقيًا له -سبحانه وتعالى.

- ولهذا فإنَّ الله إذا تولاك فإنَّه يُفرِّج كُربَك، وَيَزيل عنك الخطوب، وليس عليك خوف ولا حُزن، فالله تعالى قال: من خلقه، ووردت الولاية في قول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق٢، ٣].

❑ إذن من أراد أن يَبْلُغ سبيل الولاية فعليه بالإيمان والتقوى، ويتحقق الإيمان بالإيمان بالله -عزَّ وجلَّ- والمتابعة للنَّبي -صلى الله عليه وسلم، مع تحقيق الإخلاص

---

[٢٤] ذهب إلى تقوية الحديث: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فحَسَّنه في "مجموع الفتاوى" (٣/ ١٣٩)، وحسنه –أيضا– بطرقه: الشيخ الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (٢٨١٠)، وانتصر لذلك ابن القيم بقوة.

وتجريده والمتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهكذا تكون الولاية لله -سبحانه وتعالى.

- ولهذا فهذا الحديث بيَّنَ هذه الولاية، وكيف أنَّ الإنسان إذا كان الله -عزَّ وجلَّ- تولاه لا يضره مَن في الأرض جميعًا، وجاء في حديث عبد الله بن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»[٢٥]، وفي الآية الأخرى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إذن سبيل ولاية الله -عزَّ وجلَّ- هو: الإيمان والتوحيد.

تحقيقُ التَّوحيد في القلب، فمن عَظُمَ تَوحيده لله -عزَّ وجلَّ- كان وليًّا لله، ومَن عَظُمَت تَقواه لله -عزَّ وجلَّ- كان وليًّا لله، هذه هي الولاية، ولهذا فلا يمكن أن تكون ولاية الله -عزَّ وجلَّ- لمن يدعو غير الله، أو يَستغيث بغيرِ الله، أو يَذبحُ لغيرِ الله، هذه ولاية الشيطان، أمَّا ولاية الرَّحمن فلا تكون إلا لأهل التَّوحيد الذين يعبدونه وحده، ويُخلصون العبادة لله وحده، ولا يَخلطون أعمالهم بالشِّرك الظَّاهر الأكبر، أو بالشِّرك الأصغر، أو بالشِّرك الخفي -وهو شرك الرِّياء- فهؤلاء هم أولياءُ الله -عزَّ وجلَّ.

- ولهذا قال : «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا»، أي: مَن عادى وليَّ الله -عزَّ وجلَّ.
- «فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»: مَن المُحارَب ومَن المُحَارِب؟

المحارَب: مَن عادى ولي الله -عزَّ وجلَّ.



فكيف إذا كان الله -عزَّ وجلَّ- طليبه وهو المُحارِب له! ما ظنك؟!

لاشك أنَّه خَابَ وَخَسِرَ، ولهذا فالإنسان يخشى مِن معاداة أولياء الله -عزَّ وجلَّ.

أمَّا أهل التقوى والإيمان، فلا يتعرض لعباد الله -عزَّ وجلَّ- بالظلم؛ لأنَّ هذا يفتح عليه باب الحرب من الله -سبحانه وتعالى- نسأل الله السلامة والعافية.

- قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ».

◆ **هنا نقطة مهمة لابد أن نجعلها شعارًا لنا في حياتنا**، نعلمها لأولادنا، نتعلمها ونطبقها؛ وهي أنَّ أعظم القُربِ إلى الله -عزَّ وجلَّ- هو أداء الفرائض، بعض النَّاس عنده خلل، فيتقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- ويُحسِّن النَّوافل ويُضعف الفَرائض، والصَّحيح أنَّ أعظم شيء هو أداء الفرائض، ومن ذلك أداء الصَّلوات الخمس في المساجد، وفي أوقاتها لمن لم يكن من أهل المساجد كالنساء؛ لأنَّه يحصل تقصير من النساء في البيوت من تأخير الصلوات الفرائض.

---

[٢٥] جامع الترمذي (٢٤٥٣).

إذن أعظم قُربة هي أداء الفريضة، وكأداء الزكاة، بعض الناس يتصدق ويبخل بالزكاة، فأعظم قربة هي الزكاة، وكذلك الصيام والحج لمن استطاع إليه سبيلًا، هذه أركان الإسلام، فتحسنها وتحرص عليها كل الحرص.

- ولهذا فالله -عزَّ وجلَّ- قال: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**»، يؤدي الفرائض ثم النوافل، فهو أدى الفرائض ولم يُقدِّم النوافل.
- قال: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فالنوافل يحبها الله -عزَّ وجلَّ- وكلما تزداد منها تَقرُب من محبة الله -عزَّ وجلَّ. إذن هو يُجاهد في بلوغ سبيل الولاية، والمجاهدة تكون بأداء الفرائض والإتيان بالنوافل.
- قال: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ**»، إذا وصل إلى مرحلة الولاية «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**»، يعني: لا يسمع إلا ما يُرضيني، «**وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**»، لا يُبصر إلَّا مَا يُرضي الرَّب -سبحانه وتعالى- «**وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا**»، يعني: لا يبطش ولا يُعاقب إلا لأجل الله وفي الله. «**وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، فهو لا يذهب إلى مُنكراتٍ ولا إلى معاصٍ، ولا يشهد الزُّور؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ [الفرقان: ٧٢]، مواقع المنكرات والمعاصي، فهو لا يسير برجله إلَّا إلى مرضاة الله -عزَّ وجلَّ- كاتِّباع الجنائز، وزيارة المرضى، وصلة الأرحام، وما شاكل ذلك وما شابهه، فهذه ولاية عظيمة.
- ثم بعد ذلك قال الله -عزَّ وجلَّ- عن جزائه: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ**»، فهو وصل إلى مرتبة أنه إذا سأل الله -عزَّ وجلَّ- أعطاه، ولا يحول بينه، ولهذا لا يُقاس الناس بصورهم الظاهرة وأشكالهم، أو مناظرهم، أو هيئاتهم؛ وإنما مقامهم عند الله -عزَّ وجلَّ- فهذا خفي لا يعرفه أحد، وفي الحديث: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**»[٢٦]، وهذا لا يكون إلا لمرتبة عظيمة وولاية، وما حصل هذا بأمر يسير، لا شك أنه بالمجاهدة، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- قال: «**وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»، إذن الله -عزَّ وجلَّ- يُحقق له مطلوبه، يُحقق له سؤله ويُعيذه ممَّا يكره، ومن ذلك أنه يسأل الله -عزَّ وجلَّ- الجنة، ويستعيذ بالله -عزَّ وجلَّ- من النار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
- إذن هذه الولاية هي ولاية الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا فرقٌ بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولهذا فيه رسالة ماتعة، أنصح طلاب العلم بقراءتها، وهي رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" لأنه حصل لبس في زمنه -حتى في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى حصل لبس- فإنَّ بعض الناس قد يُصور له الطُّرقيَّة وأهل التَّصوُّف أنَّ الولاية تكون بهذه

---

[٢٦] صحيح مسلم (٥٠٩٨)، وفي لفظ لابن ماجة " أَلَا أُخْبِرُكَ عَنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ ؟ " ، قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : "رَجُلٌ ضَعِيفٌ مُسْتَضْعِفٌ ذُو طِمْرَيْنِ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ".

المخاريق التي يفعلونها، أو بخرق العادات أو ما شاكل ذلك، فالأمر يُنظر إليه بالاتباع، وتحقيق الإخلاص، ومتابعة النَّبي -صلى الله عليه وسلم.

إذن ولاية الله -تبارك وتعالى- لا تكون بالمخاريق، ولا بخرق العادة؛ لأنَّ الشَّافعي -رحمه الله- قال: "لو رأيته يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتر به حتى يُنظَر إليه عند الأمر والنهي"، يعني: عند الحلال والحرام.

فإذن ولاية الله -عزَّ وجلَّ- لا تكون بهذا، إنما تكون بتقوى الله تعالى، ومن كان يظنُّ أنَّ ولاية الله -عزَّ وجلَّ- تُدرَك بغير هذا فهو من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن.

إذن ثَمَّ ولاية لله -عزَّ وجلَّ- ولهذا قد تُجرى المخاريق وخرق العادات على أيدي أولياء الشَّيطان، ولكن ليس هذا بمقياس؛ وإنما المقياس ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- وما ذكره قبل ذلك الله -سبحانه وتعالى.

- **مسألة نختم بها في الحديث**: قوله: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلا بُدَّ لَهُ مِنْهُ».
- هنا الله -عزَّ وجلَّ- وصف نفسه بالتَّردد على الصحيح من أقوال أهل السُّنة، بعض أهل السُّنة يرى إثبات هذه الصفة، وبعضهم يَرى أنَّه لا تُثبَت، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُوصَف بالتَّردد كما وصف به نفسه، وهي كغيرها من الصفات، وهذا التردد ليس التردد الناشئ عن عدم العلم بالعواقب؛ بل التردد هنا الذي ذكره الله -عزَّ وجلَّ- سببه اجتماع الإرادتين، فمن محبة الله -عزَّ وجلَّ- لوليّه ومن رحمته به أنَّه يقضي عليه -عزَّ وجلَّ- القضاء والقدر، وأنه لابد له من الموت، ولكن لأنه بلغ هذه المرتبة من الولاية فالله -تبارك وتعالى- يكره مساءته، فوصف الله -تبارك وتعالى- التردد بأنه اجتماع الأمرين -أو هاتين الإرادتين- وأمر الله -عزَّ وجلَّ- في قدره في خلقه وأنه لابد له منه، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [المائدة: ٥٤]. نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن ينفعنا بما قلنا.

{قال -رحمه الله: (وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». متفق عليه)}.

- هذا الحديث فيه مسائل:

➤ **المسألة الأولى**: إثبات صفة النزول لله -عزَّ وجلَّ- وهي من صفاته الفعلية الاختيارية، متعلقة بالمشيئة.

➤ **المسألة الثانية**: أنَّ من قواعد أهل السنة: قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات.

✓ فلا يُقال: "كيف ينزل؟"؛ لأنَّ الله لا يُسأَل عن صفاته بـ :كيف".

✓ ولا يُقال: "هل يخلو العرش منه إذا نزل؟" فهذه الأسئلة لا تتوجه.

✓ ولا يُقال: "كيف ينزل في الثلث الآخر، والثلث الآخر يختلف في البلدان؟"، لأن الله لا يقاس بخلقه.

- ومع هذا فالله -سبحانه وتعالى- مع نزوله لا ينفك عن العلو -سبحانه وتعالى- فنزوله ليس كنزول المخلوقين حتى يُقاس بأنَّ المخلوقَ إذا نزلَ علاهُ شيءٌ، فالله نزوله ليس كنزول خلقه، وصفة العلو صفة ذاتية، يعني: لا تنفك عنه -سبحانه وتعالى- وأمَّا صفة النزول فهي صفة اختيارية فعليَّة.

➤ **المسألة الثالثة**: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- لماذا أخبرنا بالنزول؟

قلنا: إنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- يُخبرُ لما يترتب على النزول من الأثر، فصار أهل التَّشكيك وأهل الشُّبهات إلى الكلام في النزول، وتركوا أثر هذا النزول.

وأثر هذا النزول: الاستجابة، والقرب من خلقه بالإجابة والإثابة، وتفريج الكروبات.

➤ **المسألة الرابعة**: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يتكلم، وفيه إثبات صفة الكلام لله -عزَّ وجلَّ، والله يتكلم بحرفٍ وصوتٍ، وكلامه متعلق بمشيئته وإرادته، فهي صفة ذاتية من جهة أن الله موصوف بالكلام، وفعلية اختيارية من جهة آحاد الكلام.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.








الدرس الرابع



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{توقَّفنا في الدَّرسِ الماضي عِندَ حديثِ أبي هُريرة المتضمّن لصفةِ النُّزولِ، وفي هذه الحلقة -بإذن الله- نشرع في حديث أبي موسى الأشعري.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى: (عن أبي موسى الأشعري - رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» رواه البخاري)}

- هذا الحديث المُخرَّج في صحيحِ البخاري تحته مسائل مُهمَّة:

❖ **المسألة الأولى:** هذا إخبار مِن الله -عزَّ وجلَّ- عمَّا أعدَّه لأهلِ الجنَّة، وما ذكره النَّبي -صلى الله عليه وسلم- جاء في كلام الله -عزَّ وجلَّ- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، كما في سورة الرحمن، وقال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فالله تعالى يُخبر عمَّا أعدَّه الله -عزَّ وجلَّ- لأهل الإيمان، وهذه الجنان كما أخبر النَّبي -صلى الله عليه وسلم- جنَّة مشتملة على ذهبٍ وما فيها، وأخرى مشتملة على فضَّةٍ وما فيها، وهذا من نعيم الله -عزَّ وجلَّ- الذي يكون في الجنَّة.

- ولهذا أتذكَّرُ مقولة لحبر هذه الأمة وإمام المبشرين عبد الله بن عباس حينما قال: **"لَيسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلَّا الأَسْمَاء"**[٢٧]، فالله -عزَّ وجلَّ- أخبر، أنَّها مِن جهة الاسم مُشتركة، ومن جهة المعاني فهي مُختلفة، ولهذا أعدَّ الله -عزَّ وجلَّ- لأولياءِهِ ولأهلِ الإيمانِ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ. كذلك اشتمل هذا الحديث على مسألة أخرى، وهي: أنَّه ليس دونَ أهلِ الجنَّة وبين أن يروا ربهم إلا رِدَاء الكِبرياء على وجهِهِ في جنَّةِ عدن.
- والرِّداء في هذا الحديث وفي بعض الأحاديث: جاء عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله تعالى يقول: **«الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي، وَاحِدًا مِنْهُمَا، أُلْقِيهِ فِي النَّارِ»**[٢٨].
- وهذا المعنى لكلمة "الرداء" و"الإزار" يُفهم وِفقَ دلالة النُّصوص، ولهذا مِن دلالة النُّصوص أنَّ مَا وُصف الله تعالى به في النُّصوص لا يُماثل أوصاف المخلوقين بأي وجهٍ من الوجوه، ولهذا -قطعًا- فإنَّ الإزار والرداء المذكورين لله -عزَّ وجلَّ- ليس هو الإزار والرداء الذي يكون للمخلوق؛ لأنَّ الله لا مَثيل له -سبحانه وتعالى- فالرداء والإزار المذكورين في النُّصوص يصدق عليهما ما يكون ملابسًا للموصوف ولا ينفك عنه، ويحجب صفته عن الرائي، وبهذا المعنى قال الله تعالى فيما جاء في الحديث القدسي: **«الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»**، وقوله: **«إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ»**، فدلَّ على أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- احتجب عن خلقهِ -سبحانه وتعالى- في رؤيته بهذا الرِّداء، ولهذا فظاهر الحديث -كما قلنا- لا يدلُّ بوجهٍ من الوجوه على أنَّ لله إزارًا ورداءً مِن جنس الأُزرِ والأرديَةِ التي يلبسها النَّاس؛ بل جاء في الحديث النَّفي لتوهُّم هذا المعنى الفاسد.
- إذن الإزار والرِّداء الذي وردَ في النُّصوص اسمان لما يحجب رؤية الرَّائي عن المرئي، وهذا يصدق في قول النَّبي -صلى الله عليه وسلم: **«وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ»**، إذن الرَّب -سبحانه وتعالى- احتجبَ بهذا الكبرياء عن خلقِهِ، وعن أهلِ الجنَّة في أن يروه، وهذا كائن لهم إذا دخلوا الجنَّة، فإنَّهم سيرون ربَّهم -سبحانه وتعالى.
- أرجو أن يكون في هذا الفهم والبيان، أنَّ الرِّداء والإزار الذين وردا في النُّصوص لا يُتوهَّم فيهما أنهما مِن جنسِ أردية وأُزُر المخلوقين، فالله تعالى لا يُماثل المخلوقين، وعلى هذا فهما اسمان لما يحجب رؤية الرائي إلى صفةِ المرئي، ولهذا جاء في الحديث: **«وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ»**، وفي الحديث: **«الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي»**، فهذه حُجُبٌ احتجبَ بها الرَّبُّ -سبحانه وتعالى- عن خلقهِ بها.

❖ **المسألة الثانية:** أنَّ رؤية أهلِ الجنَّة لربِّهم واقعة كما جاء في الحديث، وأنَّها ليست دائمة، بل يَرونه في وَقتٍ دُون وقتٍ، جاء في الروايات والنُّصوص أنَّهم يَرونَ ربَّهم أيَّام الأعيادِ ويوم الجمعة الذي هو يوم المزيد، فيُتوَقَّف فيها على وفقِ ما دلَّت عليه النُّصوص.

---

[٢٧] رواه الطبري في تفسيره (٣٩٢/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦/١)، وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (١١٩)، وابن حزم في ((الفصل)) (٨٦/٢)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (٧٧/٤)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٣٢٢). قال ابن حزم: هذا سند غاية في الصحة. وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤٠٨/٤): رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد. وقال الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٤١٠): صحيح.

[٢٨]

إذا وردت الصِّفة في الحديث أو في الآية؛ هل يُتوقَّف على نفسِ هذه الصِّفة، أو يُستنبط منها معنًى آخرًا؟

يعني بعض الأئمة في دعاء القنوت يقول: "يا مَن تعطَّف بالعزِّ"، فكأنَّهم فهموها من لفظِ "الرداء". فما حكم هذا القول؟.

- إذا كان هذا التعطُّف بدلالتِهِ اللغويَّة يصدقُ على هذا فالأمر واسع؛ لأنَّ مِن القواعد أنَّ بابَ الإخبار عن الله -عزَّ وجلَّ- أوسع مِن بابِ الصِّفات، ولكن ينبغي لأهلِ العلم والأئمَّة في دعائهم لربِّهم -سبحانه وتعالى- أن يحرصوا على المأثورِ عَن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- والمنقول عن سلف هذه الأئمة بالتَّوسُّلات، ولكن لا يُقال: إنَّه يُريد بذلك معنًى صحيحًا أو يدلُّ ذلك على معنًى صحيح! فالأمر -إن شاء الله- واسع.

{قال -رحمه الله تعالى: (باب قول اللَّه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

كذب الكهنة ودجلهم.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنِي رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ. فَقَالَ: «إِنَّهَا لَمْ يُرْمَ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ حَتَّى يُسَبِّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيُلْقُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ وَيَزِيدُونَ».

عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً، أَوْ قَالَ: رَعْدَةً شَدِيدَةً خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِئِيلُ عَلَى الْمَلائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ» رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني، وابن أبي حاتم، واللفظ له)}.

- هذا الباب يتضمَّن مسائل كثيرة جدًّا، وهذا الباب داخلٌ في أصولِ الإيمان مِن جهةِ تعظيم الرَّبِّ -سبحانه وتعالى- وبيان أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُنفذ أمْرَه في ملائكته، وأنَّ أمْرَه -سبحانه وتعالى- يأتي إلى ملائكته فيتلقَّوْنَ هذا الأمر وِفقَ ما جاء عنه -سبحانه وتعالى- على وجه التَّعظيم.
- في الحديث: (عن ابْنِ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنِي رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وهو رجل من الأنصار، وجهالة الصَّحابي لا تضرُّ -كما هو مقرَّرٌ في مصطلح الحديث.
- قال: (أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ)، هذا ما يُسميه النَّاس بالشِّهاب الذي يُرى في الصَّحاري، وفي الأماكن المفتوحة.

- فَقَالَ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟»، النبي -صلى الله عليه وسلم- يسألهم: ماذا تعني لكم هذه العَلامة أو هذه الآية الكونية؟
- (قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ)، أي: على عادة أهل الجاهليّة، أو تصوُّرات أهلِ الجاهليَّة لمثل هذا.
- قول: (وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ)، يظنون أنَّ هذه الحوادث العُلويَّة لها أثر في الحوادث السُّفليَّة، مثل: موت عظيم، أو حياة عظيم، فيظنُّونَ أنَّه ثَمَّ ترابطٌ بينها وبين الحوادث العلويَّة، ومنها هذا النَّجم، أو هذا الشِّهاب الذي احترق في الغلاف الجوي -كما هو معلوم.
- قال النَّبي -صلى الله عليه وسلم- لنفي هذا المعنى الفاسد: «إِنَّهَا لَمْ يُرْمَ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ»، النبي -صلى الله عليه وسلم- ينفي أن يكون للحوادث العلويَّة دخل في الحوادث السُّفليَّة، فليس ثَمَّ ارتباط.

وجاء في أحاديث أخرى -كما سوف يأتي معنا- بيان ذلك، وقطع هذا الظَّن الجاهلي.

ثُمَّ أخبرهم النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بما يكون مِن الوحي، وأنَّ ممَّا خلقه -عزَّ وجلَّ- من هذه النُّجوم، ومن ذلك الشُّهب، وأنَّ مِن وَظَائِفها الرَّمي بها لمن استرق السَّمع؛ لأنَّ وظائف النُّجوم -كما ذكرها أهل العلم: للاهتداء بها، وزينة، ورجوم للشياطين. وفق ما جاءت به النُّصوص.

- ثم إلى آخر الحديث، وجاء في بعض العبارات التي تحتاج بيان لأنها من غريب الحديث، وأما ما قبل فهو واضح وبيّن، ولكن جاء في بعض الروايات «ولكن يفرِقُون» أو «يَقْرِفُونَ».
- وضبط لفظ «يَقْرِفُونَ »، الأشهر أنها بالراء، وثَمَّ رواية «يقذفون».

وعلى الوجهين تأتي بمعنى الخوض، يعني: أنَّهم يخلطون ما يسترقونه من السَّمع مما أمر الله تعالى به، ومما وصلها إلى الملائكة؛ فيخلطونه بأكاذيبهم.

إذن هم يكذبون ويخلطون ما استرقوه.

- وجاء في روايات بضمّ الياء، وجاء بفتحها بمعنى الصُّعود، وجاء في رواية أخرى «يُقرّفون» أي يُكذِّبون؛ وهذا يُراجع فيه كتب غريب الحديث.

والحاصل: أنَّهم يكذبون أو يزيدون، كلها تشير إلى دلالة معنًى واحدٍ. هذه المسألة الأولى فيما يتعلق بهذه الأحاديث التي قرأتها.

❖ **المسألة الثَّانيَّة**: أنَّ الأحاديث هذه فيها دلالة على ما نتكلَّم فيه من أصولِ الإيمانِ وهو إثبات صفة العلوِّ لله -سبحانه وتعالى- وأنَّه هو العلي الأعلى؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى- فوقَ سماواته مستوٍ على عرشه، وهو -سبحانه وتعالى في مُلكه- يأمر بأمره الذي يتلقاه جبريل، ثم يوصله إلى ملائكته، وهذا إثبات على أيّ وجهٍ يكون وحيُهُ -سبحانه وتعالى- وهو العلي الأعلى، وصفة العلو لله -عزَّ وجلَّ- ثابتة، وهي صفة من صفاته الذَّاتيَّة التي لا تنفك عنه، وله -سبحانه وتعالى- عُلو القَهر والقَدر وَعُلو الذَّات، فأنواع العُلو الثلاثة ثابتة له -سبحانه وتعالى.

☑ أمَّا عُلو القَهر والقَدر: فهو مُتفق عليه بين أهل الإسلام.

☑ وأما عُلو الذَّات: فبعض الطوائف المنحرفة تشكك فيه، أو لا تُقرُّ به.

- ولا شك أنَّ إثبات صفة العلو أدلتها ثابتة وكثيرة جدًا بدلالة الفطرة والعقل والشَّرع، ومَن أرادَ المزيد مِن ذلك فليُراجع كتاب ابن القيم الجوزية "اجتماع الجيوش الإسلاميَّة على غزوِ المعطِّلة والجهميَّة"، فإنَّه ذكر أكثر مِن ألف دليل وأجناس هذه الأدلة.
- هذا فيما يتعلق بإثبات صفة العلو.

❖ **المسألة الثالثة:** مما دلَّت عليه هذه الأحاديث: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يتكلَّم، وكلامه لا يُماثل كلام المخلوقين، وهو بحرف يُكتَب، وبصوتٍ يُسمَع، وكلامُه ليس ككلامِ المخلوقين -سبحانه وتعالى- ولهذا فإنَّ الملائكة تسمع كلامه -سبحانه وتعالى- وهذا مِن دلالات الحديث.

❖ **المسألة الرابعة:** جاء في بعض الرِّوايات وصف كلامه -سبحانه وتعالى- في الحديث وسماع الملائكة له -وهذه ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد- **«كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ»**[29]، وهذا وصف لسماع الملائكة لصوته -سبحانه وتعالى- لا وصفٌ لكلامِهِ، ففرقٌ بين سماع الملائكة -وصف السماع- ووصف الكلام.

- ولهذا جاء في الروايات -كما سيأتي- أنَّ الملائكة إذا سمعته قالوا: **«قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»**، وقال: **«صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا»**.
- إذن قوله: **«كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ»**، هذا وصفٌ لسماع الملائكة.
- أمَّا وصف كلامه -سبحانه وتعالى وتقدّسَ- فجاء في حديث واحد، وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ كلامَه ليس ككلامِ المخلوقين، وهو: أنَّ يوم القيامة يتكلَّم الرَّبُّ -سبحانه وتعالى- بكلام **«يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ»**[30]، فهذا وصف لكلامه، وهذا دليلٌ على أنَّ كلامَه لا يُماثل كلامَ المخلوقين بوجهٍ من الوجوه.

ومِن تلك الوجوه التي أخبرنا بها الله -عزَّ وجلَّ: أنه يستوي في سماع كلامه القريب والبعيد، وأمَّا المخلوق لا يستوي كلامه، وهذا دلَّ على أنَّ كلامه ليس ككلام المخلوقين بوجهٍ من الوجوه.

❖ **المسألة الخامسة:** تضمَّنَ الحديثُ إبطال العادات الجاهليَّة.

- حركات الأفلاك السَّماوية، تُسمى "الأفلاك" عند عُلماء الهيئة، حركة النُّجوم، والشُّهب وما يتعلق بها: لا تعلُّق لها بالحوادث السُّفليَّة، وهذا جاء من النَّبي -صلى الله عليه وسلم- البيان الواضح البيّن: لأنَّ أهلَ التَّنجيمِ وأهلَ الكهانَةِ يُلبِّسونَ على النَّاسِ، ويزعمونَ أنَّ للحوادث العلويَّة أثرٌ في الحوادثِ السُّفليَّة، وليس ثَمَّ ارتباطٌ، ولهذا يزعمون أنَّ النُّجوم لها أثر، فيقول: إنَّ القمرَ إذا كان في برجِ العقربِ فإنَّ الإنسان لا يخرج، ولا يفعل!

فكل هذا باطل، وجاء عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- أنَّه باطل.

- ومن ذلك ما يتعلَّق بالنَّاس الآن في هذه الأزمنة ما يسمى بالأبراج، ففي الجملة يقولون: إنَّ كل واحدٍ له برج بحسب ميلاده، فأنت مولود في الشهر الفلاني فأنت برج الأسد، وذاك برج العقرب، وبالتالي حتى في

---

[29] أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٠٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١: ٣٥٢) باختلاف يسير.
[30] خلق أفعال العباد (١٧٤).

مسألة الزَّواج والطَّلاق يرتبطون بالنُّجوم، وحتى في الوضع النَّفسي للإنسان يقولون: أنت البرج الفلاني فعليك أن تفعل كذا؛ فكل هذا مِن الهُراء ومن الباطل الذي نهى النَّبي -صلى الله عليه وسلم- عنه وأبطله؛ بل هذا من التَّنجيم، فهذه طريقةُ أهلِ التَّنجيم الذين نهى النَّبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإتيان إليهم وعن الجلوس إليهم، وعن سؤالهم، فقال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣١]، ومن ذلك متابعة هذه الأبراج والنجوم، والآن جاءت على أشكال مُتنوعة، فجاء عن طريق شبكات التواصل، والبرامج، والهواتف الذَّكية، وما شابه ذلك، كل هذا مِن الباطل؛ فليس ثَمَّ تأثير للحوادث العلويَّة في الحوادث السفلية، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّهَا لَمْ يُرْمَ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ»، لنفي هذا المعنى الجاهلي؛ لأنَّ هذا مِن عادات الجاهليَّة.

- وكذلك في كُسوف الشَّمس الذي حَدَثَ في زَمَنِ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال في بيانه: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ»[٣٢] لنفي هذا المعنى الجاهلي.

إذن الحاصل: أنَّ هذه النُّجوم والأبراج من طريقة أهل التَّنجيم، وليس مِن الإسلام في شيءٍ البتَّة، فعلى المسلم أن يحذر مِنَ هؤلاء، وممن يُسوِّغ لهم أو يزعم ذلك، فكل هذه أكاذيب وتُرَّهات.

❖ **المسألة السادسة:** أنَّ الله تعالى يَقضي وَيَأمر بأمره الكوني، وأنَّ الملائكة تُقابل أمره بالتَّسبيح له -سبحانه وتعالى- وهذا التسبيح يبلغ السَّماء الدُّنيا على وجه التَّعظيم لله -سبحانه وتعالى- والتَّنزيه.

كذلك في هذه الأحاديث وصف لطريقة استراق شياطين الجنّ للسَّمع، فما يقوله الله -عزَّ وجلَّ- مِن أمره فيبلِّغه ملائكته، وإيصاله إلى أوليائهم من الكهنةِ والعرَّافين.

- قال: «فَمَا جَاءَوُا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ وَيَزِيدُونَ»، فإذن ثَمَّ استماع من هؤلاء الشَّياطين لما يأمر الله -عزَّ وجلَّ- به، ومما يكون مِنَ الغيبيَّات.

❖ **المسألة السَّابعة:** جاء في رواية سفيان في وصف استراق شياطين الجن لهذا السَّمع، قال: «وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ»[٣٣]، إذن هم يتوصلون إلى الوصول إلى السَّماء الدُّنيا لِسَماع ما يأمر الله -عزَّ وجلَّ- به ملائكته من أمره الذي يأمر به، وصف سفيان -أحد الرواة- فقال: «فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»[٣٤]، فهذه طريقة استراقهم للسمع.

- ولهذا شياطين الجن لهم ثَمَّ وسائل لا يملكها الإنسان، ولهذا فهم عالم غيبيّ لا نعلم منه إلَّا مَا جَاء في الوحي، ولهذا قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] يعني: إبليس وذريته؛ لأنَّه عالم خفيٌّ غيبيٌّ لا نعرف على أيِّ وجهٍ يكون حياته إلَّا مَا جَاء في النُّصوص.

---

[٣١] مسند أحمد (٩٣٣١).
[٣٢] مسند أحمد (٢٣٩١٣).
[٣٣] صحيح البخاري (٤٤٥١).
[٣٤] المصدر السابق.

- مِن المسائل المهمة التي ذكرها الشيخ في كتاب "التوحيد" وأوردها هنا، وهي مهمة في هذا الجانب، يقول الشيخ -رحمه الله تعالى: "قَبولُ النُّفوسِ للْبَاطِلِ، كيفَ يَتعَلَّقُونَ بواحِدَةٍ ولا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةِ كَذْبَةٍ؟"، فقد جاء في بعض الروايات أنَّ الكلمة الواحدة يضيفون إليها مائة كذبة.
- يقول الشيخ -رحمه الله تعالى: "قَبولُ النُّفوسِ للْبَاطِلِ" ولهذا فالدَّاعية والمعلِّم والموجِّه والمُربِّي يحتاج أن يعرف هذا؛ لأنَّ نفوس النَّاس تتقبَّل الباطل، وبخاصَّة ما يتعلَّق بالغيبيَّات واستشراف المستقبل، والتَّوقعات، النَّاس عندهم تعلُّقٌ بذلك، ولذا فإنَّ طالب العلم والمعلِّم يعرف هذا ويُعالج هذه القضيَّة بالأسلوب الشَّرعي، ويعرف أنَّ الباطل له قبول عند النَّاس، فعليه أن يَدفع عنهم هذا الباطل بمعرفة الحق، ومعرفة الهدى والنُّور، وبالاهتداء بكلام الله، وبكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فالنَّاس يحتاجون إلى الحقّ من كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- حتى يزول عنهم هذا الباطل، فالنَّاس يتعلَّقون بالباطل، ويصدِّقون هؤلاء الكهنَة العرَّافين الكَذَبَة بكذبة واحدة، يعني: بواحدة في المائة؛ فإذا عرفتَ أنَّ النُّفوسَ تتقبَّل البَاطل فعليك أن تُعالجَ نفوس النَّاسِ، وأن تسلك الأسلوب الشَّرعي في التَّعامل معهم في أطْرِهِم وتوجيههم إلى الحقّ -نسأل الله الهداية للجميع.

؟ مَا يتعلَّق الأبراج؛ بعضهم يقول: إنَّها مِن باب المزاح، وآخر يقول: إنَّها مِن باب السُّؤال والبحثِ عنها فقط وأنا لا أؤمن بها. فما حُكمُ ذلك؟.

- إتيانُ العرَّافينَ والكَهَنةِ والمنجِّمينَ كلُّ هؤلاء بابهم واحد؛ والنَّبي -صلى الله عليه وسلم- أبدأ وأعاد في بَيَّنَ وأعادَ في ذلك، وَسَدَّ الذَّرائع المُفضية لِمَا قد يَقع في قلبِ المُسلم مِن الإنحراف العَقَدي والعياذ بالله!
- فالنَّبي -صلى الله عليه وسلم- نَهَى عَن سُؤالِهم، ومن ذلك الإتيان، ومن ذلك مَا يُسميه الإنسان بحب الاستطلاع؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن ذلك كله، فقال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[٣٥]، وقال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣٦]، وفي قول جماعة من أهل العلم أنَّ هذا كفرٌ أكبر؛ لأنَّ مَن صدَّق أن أحدًا يعلم الغيب دون الله -عزَّ وجلَّ- فقد كفر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهذا الباب أحاطه النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بسورٍ عظيم لحماية عقيدتك أنت أيها المسلم، لأنَّ أعظم ما تملكه هو توحيدك يا عبد الله ويا أمة الله، فحافظوا عليه من كل ما يُدنِّسه أو يُنقصه.

❑ هذه عقيدة وإيمان، فلا ينبغي للإنسان ولا يجوز له بأي حالٍ من الأحوال حتى على سبيل الاستطلاع؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- مَا حَذَّر منه إلا لأنَّه أراد التَّحذير من الشَّرِّ؛

---

[٣٥] مسند أحمد (١٦٢٩٢).
[٣٦] مسند أحمد (٩٣٣١).

ولأنَّ نفوس النَّاس تتقبل الباطل، ونفوس النَّاس ضعيفة خاصَّة في هذا الزَّمان، لأنَّه ربَّما أتى الواحدُ كاهنًا أو عرَّافًا أو سألَ مُنجِّمًا أو قُرَّاء الكفِّ فقال له شيء؛ فربما ترتَّب عليه تأثير النَّفس وغلبة الحزن، وربما أدَّى إلى أمور عظيمة -نسأل الله السَّلامة والعافية.

فالغيب لله، ولا أحد يعلم الغيب، لا هؤلاء أصحاب الأبراج ولا غيرهم، والمؤمن قويٌّ بإيمانه، متوكِّلٌ على الله -عزَّ وجلَّ- ومن أراد إصلاح حاله فلا يكون هذا الإصلاح بالاستشراف لهؤلاء وبسؤالهم، وإنما إصلاح الحال يكون بطلب الهداية من الله وسؤاله -عزَّ وجلَّ، وما تخافه يا عبد الله ويا أمة الله من المستقبل علاجه هو دُعاء الله -عزَّ وجلَّ- والتوكُّل عليه.

{قال المؤلف: (باب قولِ اللَّه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمعتُ النَّبِيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُول: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟».

ولَهُ عَن ابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عنهما- عن رسول اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم- قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ».

وفِي رِوَايةٍ عَنْهُ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهَا يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ أَنَا الْجَبَّارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْكَرِيمُ فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ" رواه أحمد.

ورواه مسلم عن عبيد الله بن مقسم، ونظر إلى عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كيف يحكي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يَأْخُذُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)}.

- تحت هذه الأحاديث وهذه الروايات التي ساقها المؤلف -رحمه الله تعالى- مسائل مهمَّة:
- المؤلف -رحمه الله تعالى- قال: (باب قولِ اللَّه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾).
- سمَّى هذا الباب بهذه الآية العظيمة، وتحت هذا مسائل:

❖ المسألة الأولى: أنَّ في هذه الآية إثبات لعلوِّ الله تعالى في ربوبيّته وفي أسمائه وصفاته -سبحانه وتعالى.

- ومعنى الآية: أنَّ الخلق ما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه، وهذا لعظمته -سبحانه وتعالى- ولهذا في سورة نوح قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤]، فَذَكَرَ أفضال اللهِ تَعَالى وَأَنْعَامِه وَآيَاه على خلقه.

- ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية التي في سورة نوح: **"ما لكم لا تُعظِّمون الله حقَّ تعظيمه"**.

ومن تعظيمه -سبحانه وتعالى: تحقيق التوحيد، وإخلاص الدعاء له، فهذا يحصل به تعظيم الربِّ - سبحانه وتعالى.

ولهذا فمن آيات تعظيم الله -عزَّ وجلَّ: عظمة هذه المخلوقات، في دلالتها على أنَّ الله -سبحانه وتعالى- عظيم؛ لأنَّك إذا رأيتَ المخلوقات التي في هذا الكون الفسيح، ورأيت ما فيها من العظمة؛ فالذي خلقها أعظم -سبحانه وتعالى.

- ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، فآيات الآفاق يَرَاهَا النَّاس، الشَّمس، والقمر، والنجوم، والمجرَّات، وما شاكل ذلك من الآيات العُلويَّة.

والآيات النَّفسيَّة: ما طبعه الله -عزَّ وجلَّ- وركَّبه في الإنسان مِن الغرائز ومِن الوظائف؛ وكلُّها تدلُّ على أنَّ الربَّ -سبحانه وتعالى- عظيم.

ولهذا إذا رأيتَ هذه المخلوقات وما تسير عليه مِن الدِّقَّة المتناهية علمت أنَّ الذي خلقهم عظيم، وأنَّك ما قدرته حقَّ قدره -سبحانه وتعالى.

- ولهذا يقولون: الكون كتاب مفتوح يشهد بعظمة الربِّ -سبحانه وتعالى. ويقول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

- وهذه الآية تشتمل الرَّدَّ على طوائفٍ كُثُر، وقد ذكر الله تعالى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في أربعة مواضع من كتابه -سبحانه وتعالى.

وهذه الطوائف:

- **الطائفة الأولى:** المشركون الذين عبدوا غيره، وصرفوا حقَّ العبادة لغيره.
- **الطائفة الثانية:** المُعطِّلة، نُفاة الصِّفات الإلهيَّة.
- **الطائفة الثالثة:** مُنكرو النُّبوَّات ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

- ولهذا فأحسن ما يُقال في هذا الباب -باب عظمة الرَّب: أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يُقَدِّرَ الرَّب حقَّ قَدْرِه، ولهذا في ثنائه لا نستطيع أن نُثْني عليه، فيقول: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٣٧].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



[٣٧] صحيح مسلم (٧٥٦).






الدرس الخامس



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



بابِ قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

{(قال المؤلف -رحمه الله تعالى: (بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعتُ النَّبِيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟».

ولَهُ عَن ابنِ عمر -رَضِيَ اللَّهُ عنهما- عن رسول اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم- قال: «يَقْبِضُ اللَّهَ الأَرَضِين يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ».

وفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهَا يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ أَنَا الْجَبَّارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْكَرِيمُ فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ" رواه أحمد.

ورواه مسلم عن عبيد الله بن مقسم، أنه نظر إلى عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كيف يحكي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يَأْخُذُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ.

وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا، ويقول: أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)}.

- تحت هذه الأحاديث وهذه الروايات التي ساقها المؤلف -رحمه الله تعالى- مسائل مُهمَّة:

المؤلف -رحمه الله تعالى- قال: (بَابُ قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾)}.

تحت هذا الباب مسائل:

❖ **الأولى:** هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فيها إثبات علوّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- في ربوبيَّتة، وفي ألوهيَّته، وفي أسمائِهِ.

ومعناها: أنَّ الخلقَ ما عظَّموا اللهَ حقَّ تعظيمه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

- ولهذا قال نوح لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

قال ابن عباس في تفسيرها: "لَا تُعَظِّمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ!"[٣٨].

- ولهذا قال نوح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، فآية عَظَمَة الربِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وآياته هي مخلوقاته، والكون كتابٌ مفتوحٌ يشهدُ بعظمةِ الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

وَعَظَمَتهُ لا تُحيط بها العقول، ولا يُقَدِّرُها النَّاس حقَّ قدرها، ولكن يَرَونَ شيئًا مِن عظمةِ الله -عزَّ وَجَلَّ- فيُسبِّحونَه وينزّهونه -جل في علاه.

- ولهذا قال الله -عزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، فالآيات الأفقيَّة والآيات النَّفسيَّة تدلُّ على عَظمة الربِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- فدقَّة مخلوقاتهِ دليلٌ على أنَّه تعالى عظيم، وأنَّه خلقَ هذا الكون فأحكمه، ولهذا أمرنا بالتَّفكُّرِ في عظمته، والتَّفكُّرِ في عظمَتهِ فرعٌ عن التَّفكُّرِ في مخلوقاته -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

ومخلوقاته التي خلقها الله -عزَّ وَجَلَّ- عظيمة، والكون يشهدُ بعظمة هذا الرَّب الخالق.

ولهذا فهذه الآيات فيها ردٌّ على الذين لم يُقدِرُوا الله حقَّ قدره، وأساؤوا الظَّنَّ بربهم:

❑ **الطائفة الأولى:** المشركون الذين عبدوا مع اللهِ غيره، وصرفوا حقَّه لغيره، فإنَّ الشِّرك ظلمٌ؛ بل هو أعظم الظُّلم، وهو عدولٌ عن الحقِّ، وظلمٌ عظيمٌ كما أخبر الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- في كتابه، وهو إساءة ظنٍّ بالله، فالمشرك لم يُعظِّم الله -عزَّ وَجَلَّ- حقَّ تعظيمه.

❑ **الطائفة الثانية:** المعطِّلة نُفاة الصِّفات التي جاءت في كلام الله، وفي كلام رسوله، ومن ذلك نُفاة العُلو، ونُفاة الاستواء على العرش، ونفاة النُّزول، وسائر ما أخبر الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- به عن نفسه، ومن ذلك هذه الأحاديث التي جاءت في وصفه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

❑ **الطائفة الثالثة:** مُنكرو النُّبوَّات الذين زعموا أنَّ الله -عزَّ وَجَلَّ- لم يُرسل الرسل، ولم يُنزل الكتب، فهؤلاء منكرو النبوَّات، ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

---

[٣٨] تفسير ابن كثير، سورة نوح.

- والرَّبُّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- لن نصل إلى تعظيمه حقَّ تعظيمه، ولهذ كان من ثناءِ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- على ربّه ومن تمجيده له أنّه كان يقول: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[39].

وثَمَّ مسألة أخرى: أَنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثُ فِيهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ اليَدِ لِلهِ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وهي من صفاته الذَّاتيَّة، فجاء في وصفِ يده -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أنَّه يقبضها ويبسطها -كما تقدم من الأحاديث التي قرأناها.

- وهذه اليد لله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- يَقطع العبد أَنَّها لا تُماثل أيدي المخلوقين؛ لأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

والله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أثبتَ أنَّ له يدان، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فوصفهما بالبسطِ في كلامه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

- وجاء في الحديث: «يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ»، فَنُثبتُها كما جاءت في النُّصوص، وهي يدان، كلتا يديه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- يمين في الخير والبركة -كما تقدَّم في الأحاديث.

كذلك من المسائل التي تُخرَّج تحت هذا الباب: ما جاء في وصف الراوي للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث ذَكَرَ أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُحرك يَده، ويُقبل بهما ويُدبر، وهذا ليس لتمثيلِ فِعلِ الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- بسماواته، إنَّما هو لتحقيق إثبات الصِّفة، وأنَّ المراد هو حقيقة الصِّفة، وأنَّ القبضَ والبسطَ الذي وصفه النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- على وجهٍ يمتنع فيه التَّأويل، وإخراج اللفظ عن ظاهرِه، مثل ما سبق من الأحاديث التي مرَّت معنا حينما وضع النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه حينما تلا قول الله -عزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

{(عن عِمران بن حصينٍ -رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ» قَالَ: قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. قَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» قَالَ: قُلْنَا: قَدْ قَبِلْنَا. فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ». قَالَ: وَأَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ. انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا. قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا. قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا. فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي")}.

- هذا الحديث تحته مسائل، وهو مُخرَّج في الصحيحين -كما ذكرت:

❖ **المسألة الأولى:** أنَّ هذا الحديث في ظاهره كان في عام الوفود حينما وفدت القبائل على النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فقد جعلَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- وفد بني تميم، ووفد اليمن -وفي بعض الروايات أنَّهم الأشعريين- فالنَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال لوفد بني تميم: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ» قَالُوا: (قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا)، فهذا الوفد لقرب إسلامهم فجُلُّ اهتمامهم العطاء الدُّنيوي، ولم يفهموا من البُشرى إلا هذا العطاء، ولهذا أعرض عنهم النَّبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الأشعريين -أو وفد اليمن- فقال: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ».

---

[39] صحيح مسلم (٧٥٦).

❖ **المسألة الثانية:** أنَّه قد جاء في هذا الحديث وصفُ الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- فالله تعالى أحدٌّ، صمدٌ، هو الأوَّل، والآخر، والظَّاهر، والباطن، وهو بكل شيءٍ عليم.

- فجاء في وصف الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أنَّه كان الله قبلَ كلِّ شيءٍ، ثم إنَّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- خلقَ عرشه، وجعل عرشَه على الماء كما جاء في بعض الرِّوايات «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، ولمَّا خلق عرشه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- استوى عليه استواءً يليق بجلاله وعظمته.
- قال: «وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ»، ولهذا تكلم أهل العلم في أيُّهما أسبق خلق العرش أم خلق القلم، وليس هذا موضع ذكر هذه المسائل.
- وفي بعض روايات الحديث في غير هذا الحديث: «كَانَ فِي عَمَاءٍ»[٤٠]، والعَمَاء -كما جاء في تفسيره عن بعض السَّلف: أنه السَّحاب الرقيق.

فالله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أخبر أنَّه كانَ قبلَ كلِّ شيء؛ لأنَّه هو الأوَّل والآخر، والظَّاهر، والباطن.

وفي الحديث: إثباتُ القدرِ، وأنَّ الله تعالى كتب في اللَّوحِ المحفوظِ ذكر كل شيء، يعني ما هو كائنٌ وواقعٌ، فلا يقع في مُلكه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- إلَّا مَا قد كتبه وعلمه وشاءه وقدَّره، وخلقه فأوجده، كما هو متعلَّق الإيمان بمراتب القضاء والقدر.

❖ **المسألة الثالثة:** عمران بن حصين راوي هذا الحديث تحسَّر -رضي الله عنه- على فواتِ العلم، ولهذا جاء في بعض الروايات: **(وأيمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أنَّهَا ذَهَبَتْ –يعني: الناقة- وَلَمْ أَقُمْ)**[٤١]؛ لأنه لم يسمع تمام حديث النَّبي -صلى الله عليه وسلم.

وفيه ضبط الصَّحابة -رضوان الله عليهم- لكلامِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- حتى أنَّهم ذكروا كل الملابسات المتعلِّقة بحديث النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم هُم الأمناء في نقلِ حديثه -صلى الله عليه وسلم.

- ولهذا جاء في رِواية فيها عمران بن حصين **(وأيمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أنَّهَا ذَهَبَتْ –يعني: الناقة- وَلَمْ أَقُمْ)**، هكذا ينبغي أن يكون حرص طالب العلم على التَّحصيل، وأنَّه لا يؤثِّر على تحصيل العلم حظوظ الدُّنيا، وإن كان عمران بن حصين -رضي الله عنه- لا يُلام على ذلك؛ لأنَّ فوات ناقته ربما سيشق عليه بانحلالها من عقالها، ولكن بعض العِلْم إذا فَاتَ لا يُمكن أن يُعوَّض، ومنه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغيبيَّات؛ لأنَّ عمران -رضي الله عنه- كما هو ظاهر النَّص لم يستطع أن يعرف تمام الحديث حتى ممَّن حضرَ حديثَ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولهذا تحسَّر -رضي الله عنه- على فواتِ ذلك العِلم، فرضي الله عن أصحابِ النبي -صلى الله عليه وسلم- وألحقنا بهم.

{قال -رحمه الله: **(عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعُ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ**

[٤٠] مسند الإمام أحمد (١٥٨٤٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٣٢٠).
[٤١] صححه الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان (٦١٤٢).

الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ فَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ، وَسَمَاوَاتُهُ عَلَى أَرْضِهِ، هَكَذَا - وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ- وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ مِثْلُ أَطِيطِ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ»)}.

- **هذا الحديث فيه مسائل:**

❖ **المسألة الأولى:** هذا الحديث من جهة سنده فيه ضعف، ولكن ما زال علماء أهل السُّنَّة يتتابعون على إيراده، وعلى الاحتجاج به، ويردونه في مصنفاتهم، وإيراد أهل السُّنَّة لهذا الحديث لأنه من شواهد ما دلَّت عليه النُّصوص للاعتضاد به، وجرى عليه أئمة أهل السُّنَّة، ولهذا فإنَّ من منهج علماء أهل السُّنَّة في مصنفاتهم أنَّهم يوردون الحديث الضعيف، لا للاحتجاج به في مسألة مُعينة، ولكن للاعتضاد به، وهذا الإيراد منهم منهج علمي متناقل بين المصنفين من علماء أهل السُّنَّة، فإنك لو رأيت في كتب أصول السُّنَّة كـ "شرح أصول الاعتقاد" للالكائي، وقبله "السُّنَّة" للخلَّال، و"السُّنَّة" لعبد الله بن أحمد، و"السُّنَّة" لابن عمرو الطلمنكي، وغيرها من كتب المصنفات في الاعتقاد، لوجدت أنَّهم يُوردون أحاديث فيها ضعف، فمن لا يعرف طريقة الأئمة في التَّصنيف يظن أنَّ ذاك ليس بالأمر الحسن منهم، وهذا قلَّة فهمٍ لطريقةِ أهل العلم في التَّصنيف، فهم في مسألة معَّينة يُوردون ما صحَّ من الحديث، وهذا هو الأصل، ويوردون ما لم يصح من الحديث الضَّعيف؛ لأنَّ الحديث الضَّعيف ليس حتمًا أن يكونَ ضعيفًا في رأي كلِّ أحد، فإنَّ الضَّعيف بطرقهِ يصلُ إلى مرتبةِ الحسنِ، والحسنُ قسيمُ الحديثِ الصَّحيحِ -كما هو معلوم- فينبغي ألَّا يُجترأ على الأئمَّة المصنِّفين، أو نقدهم لأجل ذلك، فهذا من منهجهم في التَّصنيف، ومن ذلك هذا الحديث.

❖ **المسألة الثانية:** في هذا الحديث: فيه إثبات علوِّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- على عرشه، وله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- علوُّ الذَّاتِ والقدرِ والقهرِ، كما هو مقرَّرٌ عن أهل السُّنَّة.

- وعلُّوه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- من صفاته الذَّاتية التي لا تنفك عنه بحالٍ من الأحوال، وهذا العلو ثابت بأدلَّةٍ كثيرةٍ جدًّا، وإجماع المسلمين، وقد تقدَّم ذكر كتاب الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الردِّ على الجهميَّة "اجتماع الجيوش الإسلامية"؛ بل إنَّ أهل العلم لأجل الرَّدِّ على مَن خالف في إثبات هذه الصِّفة صنَّفوا مصنفات، ومن ذلك مصنف الإمام ابن قدامة -رحمه الله تعالى "إثبات صفة العلو"، من ذلك كتاب "العلو" للإمام الذهبي -رحمه الله- وغفر الله له، ومصنفات أهل السُّنَّة لا تكاد تخلو من إثبات هذه الصِّفة وتقريرها، وهي ثابتة -كما ذكرت لك- بأدلَّة متنوِّعة ومتكاثرة.

❖ **المسألة الثالثة:** إثبات أنَّ العرش فوق السَّماوات، وهو من مخلوقات الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وليس داخل في سماواته كما يقول بعض الفلاسفة الذين ينفون العرش، إمَّا أن يُفسِّرونه أو يَتَأوَّلونه بالملك، أو يقولون: إنَّه الأفلاك وما شاكل ذلك.

وقد جاء وصف العرش في نُصوص كثيرةٍ، فقد جاء في هذا الحديث أنَّ عرشه كهيئة القبَّة على سماواته، وهذا من أوصاف العرش، وإن كان الحديث فيه مقال، وجاء وصفه بأنَّه يُحمل، وأنَّ الملائكة تحمله، وأنَّ الربَّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- استوى عليه، وأنَّ له قوائم، وأنَّ موسى يُفيق عند الصَّعقِ فيكون آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، إلى غير ذلك من أوصاف عرش الرب -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

وطريقة أهل السُّنَّة: هي إثبات مَا أثبته النَّبي -صلى الله عليه وسلم- في النصوص لعرش ربه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

ولأجل هذا فإنَّ أهلَ العلم صَنَّفوا فيه مُصنفات ككتاب: "العرش وما ورد فيه" لابن أبي شيبة، وكتاب "العرش" للذهبي، وغيرها من المصنفات في ذكر عرش الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

❖ **المسألة الرابعة:** جاء في روايات ذكر الأطيط، وجاء تفسيره في الرواية: أنَّه الصَّوت الذي يصدر بأطيط الرَّحل بالرَّاكب، فإثبات هذا الوصف للعرش يُوقَّف فيه على ثبوت الروايات، فبعض أهل العلم يُصحح رواية الأطيط كابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله- وبعضهم ينفي ذلك لعدم ثبوت الروايات.

- وفي الجملة؛ فإنَّ المؤلف -رحمه الله تعالى- ساقَ هذا الحديث لبيان عظمة الرَّبِ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وأنَّه ليس مِن الأدبِ في شيء أن يقول ذلك الأعرابي **(نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ)**، فإنَّ هذا جاء فيه النَّهي عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- ولعل يأتي -إن شاء الله- تفصيل ذلك في مسائل متعلقة بذلك.

{قال -رحمه الله: **(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «قَالَ اللَّهُ -عزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ»)**}.

- **تحت هذا الحديث مسائل:**

❖ **المسألة الأولى:** قول النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم: **«قَالَ اللَّهُ»**، هذا يُسمَّى بالحديث القدسي، وهو كلام الله لفظًا ومعنى، ولكن الفرق بينه وبين القرآن أنَّه لا يُتعبَّد بتلاوته وليس بمعجزٍ، أمَّا الحديث القدسي الصحيح فهو من كلام الله -عزَّ وَجَلَّ.

❖ **المسألة الثانية:** أنَّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- صبور على ما يقع من خلقه من الأذى، حليم عليهم، وذاك من صفاته -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- ومن صفات كماله، فلا أصبرَ من الله -عزَّ وَجَلَّ- ولا أحلمَ منه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- على خلقه، وإنَّما كائنٌ منه ذاك؛ لأنَّه تعالى يستوفي عذره على ابن آدم، حتى إذا قابله يوم القيامة لا يكون حجة على ربه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

❖ **المسألة الثالثة:** أنَّ تكذيب العباد لربهم كائن بإنكار البعث؛ لأنَّه قال: **«لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي»**، فإنكار البعث واقع في الأمم السَّابقة، ومن ذلك ما وقع من أهل الجاهلية في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين بُعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم، فأنزل الله -عزَّ وَجَلَّ- آيات كثيرة جدًّا في الدلالة على البعث، وإنكار البعث معلوم من أهل الجاهلية في زمن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولهذا

قال الله -عزَّ وَجَلَّ- في الدلالة والحُجَّة على أنَّ البعث كائن، فجاء في صفة الرجل الذي جاء إلى النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وفتَّتَ العظم بين يديه وقال: تزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال الله -عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فهذا استشكال وشبهة، والجواب والحجة الدَّامغة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، وهذه حجَّة دامغة لأهل الباطل، فإن هذا الجاهلي حينما فتَّتَ العظ، قال: كيف يحيي الله هذه العظام وهي رميم؟! ولم يسأل نفسه السؤال المهم وهو: أنَّ الذي أنشأها أوَّلَ مرةٍ قادرٌ على أن يُعيدها مرةً ثانيةً! ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

ولهذا فأدلَّة الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- على البعثِ عظيمة جدًّا مِن خلال النُّصوصِ، وهي أدلة عقلية سالمة من المعارضة، ترد على كل مبطل.

- ولهذا نقول: مَن أراد الاهتداء فعليه بكلام الله -عزَّ وَجَلَّ- ومن أراد دفع الشُّبهات فعليه بالتدبُّر في كلام الله -عزَّ وَجَلَّ: لأنَّ هذا الزَّمان الذي نعيش فيه قد طغت فيه الشُّبهات، وكثر فيه التَّشبيه على النَّاس والتَّشكيك، فمن أراد الاهتداء فعليه بكلام الله -عزَّ وَجَلَّ- ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومن هدايته: أن يهدي طالب العلم وطالب الحقِّ إلى الحججِ والبراهين التي ترد على أهلِ الباطل، ومنه مسألة البعث.
- وهذه الشُّبهات واقعة الآن في الأزمنة المعاصرة، كما كانت في السَّابق، فإنَّه لكل قومٍ وارث من الباطل، وجنود الشَّيطانِ لا يزالون يُلقون على قلوبِ ولد آدم الشُّبهات التي تصرفهم عن ربهم -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- فهو واقعٌ في هذه الأزمنة المعاصرة بظاهرة الإلحاد، ومحاولة تعليل نشأة الخلق بتعليلاتٍ سقيمةٍ باطلةٍ، لا أدلَّة علميَّة عليها، بل هي ساقطة من جهةِ المنهج العلمي التَّجريبي، ومن ذلك نظرية "داروِن" في النُّشوء والارتقاء التي تسمى نظرية "التَّطور" وهي نظرية عقديَّة فكريَّة تصادم الأديان بكافَّة أجناسِها، فإنَّ محصَّل هذه النَّظرية هو إنكار الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.
- ولهذا فإنَّ محاولة بعض المسلمين أسْلَمة هذه النَّظريَّة هو خطأ منهم، والتَّسويق لها والزَّعم أنَّها لا تتعارض مع الإسلام ولا تتعارض مع الإيمان لأنَّهم يؤمنون ببعضِ أجزائها، كالقول بأنَّها واقعة في الحيوان دون الإنسان أو ما شاكل ذلك، ولهذا يُسوَّق الآن في القنوات الفضائيَّة عبر برامج مختلفة، وعبر بعض الأشخاص لهذه النَّظريَّة ومحاولة التَّسويق لها، لأنَّهم يجدون في شباب المسلمين بُغية العلم والاهتمام بالعلم التَّجريبي، فيُحاولون أن يُبينوا أنَّ هذه النَّظريَّة لا تتعارض مع القرآن، والحقيقة أنَّ هذه النَّظرية بكليَّتها وبتفَاصِيلِها مُصادِمةٌ لما جاء في كلامِ الله، وما جاء في كلامِ رسوله -صلى الله عليه وسلم- بل هي مُصَادِمةٌ للأديان كلها، حتى النَّصارى لا يقبلون بهذه النَّظرية، وحتى اليهود لا يقبلون بها، فهي مصادمة للأديان، ولكن يُسوَّق لها على أنَّها نظرية فكريَّة.
- وقد تسألون: لماذا يُركِّزون على هذه النَّظريَّة مع أنَّها تسقط بين الفَينة والأخرى مِن خلال العلم التَّجريبي سقوطٍ مدوٍّ؟

هم عندهم أنَّه ليس ثَمَّ شيء يُمكن الإجابة عنه بالنِّسبة للنَّاس أو ما يسمى بـ "أسئلة الوجود" إلا بنظرية النُّشوء والارتقاء، فهي أحسن نظريَّة عَثَّرَ عليها الإنسان -كما يزعمون؛ لأنهم يُنحُّونَ الأديان والغيبيَّات، وبالتَّالي هؤلاء منهجهم العلمي الفكري مخالف لمنهج أهل الإسلام، والله -عزَّ وَجَلَّ- فضَّل أهل الإسلام وميَّزهم عن غيرهم بإيمانهم العميق بربِّهم -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وأدلَّة أنَّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- خلقَ هذا الخلق أكثر من أن تُحصَى، ولكنَّها الشُّبَه، نسأل الله السلامة والعافية- التي إذا تكاثرت على القلوب صرفت القلب عن الحق، فنسأل الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أن يثبتنا على الحقِ، وأن يثبِّتنا على الدِّين حتى نلقاه.

- من المسائل المتعلقة بهذه الأحاديث: الشَّتم، فقد جاء في الحديث: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا» -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

الشَّتمُ واقعٌ من العباد في نسبة الولد له -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وتقدَّم في بعض الأحاديث أنَّهم ينسبون له ولد، ويرزقهم ويُعافيهم، فمن ربوبيَّته -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أنَّه لا يمنعهم العطاء ولا الرِّزق ولا الخير حتى يستوفوا عذرهم، فلا يكون لهم عذر ولا حُجَّة على ربهم -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- يوم القيامة.

وهذا الشَّتم بنسبة الولد والصَّاحبة واقع من طوائف:

- **فإنه واقع من بعض مُشركي العرب** الذين قالوا: إنَّ الملائكة بنات الله، قال الله -عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩].
- **وواقع من النَّصارى** حينما قالوا: إنَّ المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].
- **وواقع من بعض طوائف اليهود:** قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

فهذا يدلُّ على أنَّ نسبة النَّقائص إليه تعَالَى من الشَّتم للربِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وذاك -والعياذ بالله- من أعظم الجُرم.

- والله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- منزَّه عن الصاحبة -وهي الزوجة- ومنزَّه عن الولد، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فالخلق عباده، والعبودية تُنافي الوِلادة، والولد جزء من والده، والله تعالى بائنٌ من خلقه، مُتعالٍ عن خلقه -تعالى وتقدَّس.

وهذه النُّصوص تبعث في قلبِ العبد تعظيمَ الرِّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- ولا يكون تعظيمه إلا بموافقة ما جاء عن الأنبياء، وما جاء عن نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم، فإنَّ ما جاء في كلام الله وفي كلام رسوله هو المنهج المناسب في تعظيمه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى، ومن ذلك تنزيه الرَّبِّ، فإنَّ العبد في عباداته وفي أذكاره وفي صلواته يُنزه الرَّبَّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- عما قاله المتهوّكونَ في ربِّهم، كما فعلَ أولئك الذين نسبوا له الصَّاحبة، أو نسبوا له الولد، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

{قال -رحمه الله: (ولهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»)}.

- **تحت هذا الحديث مسائل:**

❖ **المسألة الأولى:** قوله: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ»، هذا مِن أذى العباد لربِّهم -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- فإنَّهم يسبُّون الدَّهر، وحينما يسبُّون مَن لا يملك شيء فيرجع السَّبُّ إلى مَن دبَّره، فإذا سبَّ الدَّهرَ فقد سبَّ الله -عزَّ وَجَلَّ- وهذه عادة عندَ البشرِ، فإنَّهم يسبُّون الدَّهر، وربَّما جرى منهم الشَّتم للأيام أو اللَّعن لها، وكل هذا ممَّا جاء النهي عنه في كلام الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- في هذا الحديث، قال تعالى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»، فلا يجوز للإنسان أن يسبَّ الأيام، ولا اللحظات، ولا يلعنها، فكل ذلك منهيٌّ عنه؛ لأنَّ السَّب راجعٌ إلى المدبِّر وهو الرَّبُّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- ولهذا قال الله في الحديث القدسي: «وَأَنَا الدَّهْرُ»، وليس من أسماء الله "الدهر"، وهذا باتِّفاق أهل العلم، ولكن المعنى هنا: أنا الذي بيدي التَّدبير، وليست الأيام ولا الليالي ولا السَّنوات هي التي تُدبِّر. ولهذا قال الله تعالى في الحديث: «بِيَدِي الْأَمْرُ»، فالأمرُ بيدِ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى، فكونك تسبُّ هذه الأيام أو اللَّحظات أو الدُّهور أو الفصول؛ كلُّ ذلك هو سبٌّ لِمَن لا مُلك له، ولا سبيل له، ولا سلطان له، ويعود السَّبُّ إلى مَن دبَّره، فكان هذا أذًى للربِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى. إذن الأمر بيد الله تعَالَى.

- قال: «أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، ولهذا كان وصفُ الأيَّامِ بأنَّها سوداء، أو وصف اليوم بيوم مظلم، أو ربَّما يشتم اليوم أو اللحظة، أو يشتم السَّاعة التي تعرف فيها على فلان؛ كل ذلك مما جاء النَّهي عنه.
- والغريب أنَّ سبَّ الدهر هو عادة -كما ذكرنا- توافق عليها الشُّعراء وأصحاب المقالات، فإنَّهم دائمًا يُعوِّلون على ذلك، وأذكر كلامًا لابن الجوزي -رحمه الله تعالى- في "صيد الخاطر" قال: **"قلَّما تجد أبيات شعر أو ما شاكلها إلا وفيه سب الدهر"**، وذلك من عادات الجاهلية، وليس من عادات أهل الإسلام، ولهذا لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن يسبَّ ابن آدم الدهر، بل إنَّ ذلك من الكبائر؛ لأنَّ الله -عزَّ وَجَلَّ- قال: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ»، فلا يليق بحالٍ مِن الأحوال بالعبدِ المؤمن ولا بالأمَةِ المؤمنة أن تلعن أو أن تسبَّ الأيَّام أو الليالي أو السَّنوات، ولكن الإنسان قد يجري عليه بقدر الله -عزَّ وَجَلَّ- أيَّام قد يُصاب فيها، فإنَّه لا يلوم الأيَّام؛ لأنَّها محالٌّ لمضيّ قدر الله فيك، ولكن التجئ إلى ربِّك -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وسَلْهُ العافية واستغفر وعُدْ إليه، فإنَّ الأمورَ بيدِ الله -عزَّ وَجَلَّ- وهي كائنةٌ بقدرِه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.
- وهذا مما يدلُّك على أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فيما جاء به وأخبر عن الرب -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- أنَّه ما ترك شيئًا من الخير إلا ودلَّ الأمة عليه، حتى في ألفاظها وفي كلماتها، فالمؤمن المسلم يكون وقَّافًا على ما جاء عن الله، وما جاء عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- ويقول الكلام الأحسن، لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فالكلام الحسن هو: الكلام السَّالم من الشَّتم لغير الله، والشتم لله -عزَّ وَجَلَّ- من حيث لا يشعر.

❖ **المسألة الثانية:** أنَّ الإنسان قد لا يُريد الشَّيء فيقع فيه من حيثُ لا يشعر، فهو لا يريدُ أذى الرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- ولكنَّه لأجلِ هذه الألفاظ التي لا يُلقي لها بالًا يترتَّب عليها الأذى للرَّبِّ -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

- ولهذا جاء في الحديث: «وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[٤٢]، يظنها كلمة يسيرة تخرج من شفتيه، قال في رواية: «يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[٤٣]، فما أحوج الألسُن إلى الضَّبطِ وإلى الإمساكِ، فيُمسك الإنسان لسانَه عن أن يتكلَّم إلا وِفق أدبٍ أدَّبه الله تعالى به، وجاء عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- نسأل الله أن يهدينا للتي هي أحسن.

لو قصد بتوصيف اليوم بأنَّه حارٌّ شديد الحرارة، أو شديد البرودة. فهل يدخل في السَّبِّ؟.

- بعض أهل العلم يتجوَّز في ذلك، وقال: إنه من جهة الإخبار عن اليوم، ولا بأس به؛ لأنَّ الله -عزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، وقال: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ [فصلت: ١٦]، فإن قَصَدَ بذلك أنَّه حصل له السُّوء، لا نسبة الشَّرِّ إلى الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- فإنَّه قد يجوز الإطلاق، ولكن الأصل في هذا الباب أنَّ الإنسان لا يسبُّ الدهر، فلا يُتسمَّح في هذه الإطلاقات.

المسألة الثانية في قوله «وَأَنَا الدَّهْرُ». هل الدَّهرُ من أسماء الله؟.

- قلنا: الدَّهر باتِّفاقِ أهل العلم ليس مِن أسماء الله -عزَّ وَجَلَّ- وقد تقدَّم معنا في وصفِ أسماء الله -عزَّ وَجَلَّ- وصفاته: أنَّ أسماء الله -عزَّ وَجَلَّ- كمالٌ لله تعَالَى، وهذا الوصف لما قال: «وَأَنَا الدَّهْرُ»، لا يريد به أن يُسَمَّى بـ "الدَّهر" ومَن سمَّاه بهذا من بعض أهل العلم مثل ابن حزم فقد غَلِطَ، فمعنى قوله: «وَأَنَا الدَّهْرُ» أي: أنَّه يُدبر الدَّهر، فلا يُلامُ مَن لا يُدبِّر، فإنَّ لومَ مَن لا يُدبِّر يعود اللوم والشَّتم إلى المدبر، وهو الرَّب -سُبحَانَهُ وَتعَالَى، لأنَّ تقليب الليل والنَّهار -وهي آية من آيات الله عز وجل- بيده -سُبحَانَهُ وَتعَالَى.

مُقدِّمة عن الإيمان بالقدر.

- الإيمان بالقدرِ هو مِن أركانِ الإيمان بالله -عزَّ وَجَلَّ- وهذا الإيمانُ بقدره -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- متعلِّق به مراتب أربع:

١) الإيمان بأنَّ الله -عزَّ وَجَلَّ- عَلِمَ كلَّ شيءٍ، فليس يقع في ملكه شيء ولا يعلمه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى-.

٢) الإيمان بأنَّ الله قد كتبَ كلَّ شيءٍ في اللوحِ المحفوظ.

٣) الإيمان بأنَّ الله قدَّر وشاء، وأراد قدره، فلا يقعُ في مُلكِ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- إلا ما شاءه وأراده.

٤) الإيمان بأنَّ اللهَ خلقَ كلَّ شيءٍ وأوجده.

وهذه المراتب دلَّت عليها النُّصوص كما سوف يأتي مِن إيراد المؤلف.

- كذلك من المقدِّمات المهمَّة: قال -عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، الرَّبانيُّ: هو الذي يُعلمُ النَّاسَ صِغارَ العلمِ قبلَ كبارِه، ومِن صِغارِ العلمِ المقدَّمات التي أذكرها.

---

[٤٢] صحيح البخاري (٦٠٢٤).
[٤٣] مسند أحمد (٨٤٥٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٨/٢).

- فمن الأمور المهمَّة: أنَّ الإنسان في بعض هذه المسائل -وخاصَّة باب الإيمان بالقدر- يتعلَّم ما هو المُحكَم فيه، وما هو الأصل في بابِ القضاءِ والقدرِ، حتى إذا خاضَ في تفاصيلِ مسائلِ القضاءِ والقدرِ كان على بيّنةٍ مِن أمره، فيعودُ إلى المُحكَم ممَّا دلَّت عليه النُّصوص؛ لأنَّه ستأتي نصوص معنا يوردها المؤلف قد تُشكِل على الإنسان.
- المحكم في باب القضاء والقدر -ولعل يأتي مزيد بيانٍ لها:
  - أنَّ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- حكمٌ عدلٌ، فالله لا يظلم النَّاس شيئًا، لا يغيب هذا عن ذهنك، فإذا نظرتَ لقدر الله -عزَّ وَجَلَّ- فلا يوقع الشَّيطان في قلبك أنَّ ذاك من الظُّلمِ؛ لأنَّ الله حكمٌ عدلٌ، فلا يظلمُ الله -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- خلقَه.
  - ولا يقع في ملكِه -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- إلَّا مَا يُريد، وما شاءه وقدَّره -سُبحَانَهُ وَتعَالَى- وعَلِمَه، كما سيأتي -إن شاء الله- مزيد بيان، ولعله يكون في الأسبوع المقبل -إن شاء الله.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.









الدرس السادس



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{سنبدأ في هذه الحلقة في متن "أصول الإيمان" من قول المؤلّف -رحمه الله تعالى: (باب الإيمان بالقدر وقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

وفي "صحيح مسلم" عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص -رضي اللَّه عنهما- قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»)}.

- ثمة مسائل مُهمَّة في باب القضاء والقدر لابدَّ مِن بيانها وتعلُّمها قبلَ الخوضِ في المسائل المتعلِّقة بهذه الأحاديث التي وضعها المصنِّف في هذا الباب:
- من المعلوم أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ مِن أركان الإيمان، وهذا ثابتٌ بالنُّصوصِ، ولكن لأنَّ هذه المباحث تحتاج مِن طالبِ العِلم قبلَ أن يخوضَ فيها أن يكونَ قد تعلَّم أصولَ بحثِ هذه المسائل، وسبق معنا في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، والرَّباني: هو الذي يُعلم النَّاس بصغارِ العِلم قبلَ كبارها.
- ومن التَّعليم المُهم: أن يعلمَ طالبُ العلم في كلِّ بابٍ مِن الأبواب مُحكم هذا الباب، وأن يعرف هذا المحكم، وأن يستمسك به، وأن يَردَّ المُتشابه إلى ذلك المُحكَم، لهذا فالخوض في باب القضاء والقدر فيه أصول

محكمات لابدَّ لطالب العلم أن يَعلمها وأن يَتَعلَّمها، حتى إذا جاءت المباحث ومضايق العلم والإشكالات كان على مُحكمِ هذا العِلم، وهذا ليس في بابِ القضاء والقدر فقط؛ ولكن في أبوابٍ كثيرةٍ مِنَ العِلم، ولكن لمسيسِ الحاجة في هذا الباب أردنا أن نُبيّنَ هذه المقدّمات، حتى إذا وَلَجنا في بعض المسائل لا يكن على الإنسان إشكال، ولا يكن على طالب العلم ولا على مُؤمن إشكال في هذه المسائل.

◆ **أولًا:** مِن هذه المقدِّمات المهمَّة: أنَّ عليًّا -رضي الله عنه- قال: **"القدر سِرُّ الله في خلقِهِ"**، وهذا أثرٌ مشهورٌ عن علي -رضي الله عنه.

ومعنى هذا الأثر: أنَّ تفاصيل القَضاء والقَدر لا يُمكن أن تُلِم به العقول البشريَّة؛ لأنَّ العقول قاصرة عن إدراكِ تفاصيل هذه المسائل، ولكن حَسْبُ طالب العلم فيها أن يكون على الجُمَل وعلى المُحكَم.

- ولهذا قال الطَّحاوي في عقيدته: **(فالخوض في القدر ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان)**، وهذا منقول وأُثر عن النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهى الصَّحابة عن التَّعمُّق في القضاء والقدر، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: **«أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ ، أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ»**[٤٤]، رواه أهل السنن من الترمذي وغيره بأسانيد صحيحة.

- إذن الخوضُ والتَّعمُّقُ هذا لا ينبغي لطالبِ عِلمٍ ولا لمؤمنٍ أن يخوضَ فيه؛ لأنَّه مِن الأبوابِ التي يدخل الشَّيطانُ فيها على الإنسان، فيكتفي في الجُمَل، ويترك تفاصيل هذه الأمور، والتَّعمُّق في بحث هذه المسائل.

ولذلك نقول: إنَّ ثَمَّ مسائل إذا عَلِمَها الإنسان زالت عنه كثيرٌ من الشُّبهات.

◆ **ثانيًا:** من هذه المسائل المحكمة: أنَّ الأصل في باب القدر هو الإيمان بمحكمه، وَرد المتشابه إلى هذا المحكم.

فما هو المحكم في باب القضاء والقدر؟ وما هو الأصل في باب القضاء والقدر؟

القاعدة الأولى: أول الأمور التي ينبغي للإنسان ألا يَغفل عنها وهو يبحث هذه المسائل: أنَّ الله عدل -سبحانه- ولا يظلم أحدًا، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

إذن الله -سبحانه تعالى- لا يظلم، وجعل الظُّلم محرمًا وَحَرَّمَه على نفسه -سبحانه تعالى- كما جاء في الحديث.

فهذه قاعدة مهمَّة من المُحكَم، فإذا تصوَّر في بعضَ المسائل أشياء يعلم أنَّ الله -سبحانه تعالى- حَكَمٌ عدلٌ لا يَظلم، وتعالى سبحانه وتقدَّس عن الظُّلم، فهذا من المحكم.

---

[٤٤] جامع الترمذي (٢٠٥٦).

القاعدة الثانية: كذلك من المسائل المهمة في المحكم: أنَّه لا جبرَ في أفعال العباد، يعني: العبد ليس مكره على الفعل أو مجبور عليه، وهذا مُحكم، فالعبد له مشيئة واختيار، وهو يعلم من نفسه أنَّه له مشيئة واختيار، ولا يُعاقبه الله إلا على ما عمل وفعل، ولا يُعاقبه الله -سبحانه تعالى- على عِلمه القديم، ولهذا قال الله -عز وجل- في بيان أنَّ الإنسان مختارٌ، وأنَّ له الإدراة: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: ٥٥]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهذه المشيئة مِن العبد لا تقع إلا بعد سبقها من الله -عز وجل- فمشيئة الله قبلُ، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير ٢٨، ٢٩]، فمشيئة الله سابقة، والعبد له مشيئة، وهذا مِن المحكم الذي إذا تصوره الإنسان زالت عنه كثير من الواردات الشَّيطانيَّة، هذه المسألة الثَّانية -أو القاعدة الثَّانية.

القاعدة الثَّالثة: **أنَّ حُجَّة الله على عباده قائمة بأمور كثيرة:**

- **بالفطرة** التي فَطَرَ الله النَّاس عليها: قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقول النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[٤٥]، والميثاق السَّابق الذي أخذه الله -عز وجل- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، الآيات.
- **بإرسال الرسل:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].
- **بإنزال الكتب:** قال تعالى: ﴿رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال -عز وجل: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

إذن حُجَّة الله على عباده قائمة، ولا عُذر لأحدٍ في الوقوع في المعصية، أو الوقوع فيما هو أعلى من ذلك وهو الكفر!

القاعدة الرَّابعة: أنَّ العبد يعلم من نفسه الاختيار، فلا أحد يقول: إني مجبور، ولا يمكن للإنسان أن يحتجَّ بالجبر، وهو يعرف هذا من نفسه، قال الله -عز وجل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

إذن بيَّن الله له طريق الخير، وطريق الشر.

- قال الله -عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وهذه هداية الدَّلالة والإرشاد، قال -عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].
- وأمَّا هداية التَّوفيق والإعانة والتَّسديد -وسوف تأتي إن شاء الله- فهذه محضُ فضلٍ من الله -عز وجل- يَهدي مَن يشاء ويُضلُّ مَن يشاء وِفقَ حكمته -سبحانه تعالى- قال تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن

---

[٤٥] صحيح البخاري (١٢٧٦).

نَّشَاءُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، هذه هداية التوفيق، وقال الله -عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

إذن هداية التَّوفيق محضُ فضلٍ وتوفيقٍ وتسديدٍ من اللهِ، واللهُ أعلم بالمحالِّ -المواضع- القابلة للهداية من المحالِّ التي لا تقبل، والإضلال هو تركُ العبد وشأنه، وعدم إمداده بأسباب العون والتَّوفيق، وهذا محضُ فضلٍ من الله -عز وجل.

- وحتى تكون عندك الصُّورة واضحة وبيّنة ولا يقع في قلبك شيء يجب أنْ تعلمَ أنَّ الله -سبحانه تعالى- يقطع المعاذير لهؤلاء حينما يُدخلهم النَّار، أنَّهم لا عذر لهم، وإن علم منهم اختيار الكفر، ولا يعاقبهم إلا بما عملوا، وتأمَّل قول الله -عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ثمَّ قال الله -عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، يعني: لو ردَّهم الله -عز وجل- إلى حالهم الأولى في الدُّنيا لاختاروا الكفر، وعادوا إلى ما نُهوا عنه، وهذا يَدُلُّك على أنَّ الله -سبحانه تعالى- لا يَظلم مثقال ذرة، وأنَّ الله أعلم بالمحالِّ التي تقبل الهداية والمحالِّ التي لا تقبل.

القاعدة الخامسة: أن تعلمَ مراتبَ القضاءِ والقدرِ:

- ❖ **المرتبة الأولى:** وهي ورادة في استقراء النُّصوصِ كما قد بيَّنَّا: العلمُ السَّابقُ، أنَّ الله علم كل شيءٍ -سبحانه تعالى- وهذا ممَّا لابدَّ مِن الإيمان به.
- ❖ **المرتبة الثَّانية:** الكتابة في اللوح المحفوظ، أنَّ الله كتبَ كلَّ شيءٍ في اللوحِ المحفوظِ عنده، ولهذا في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».
- ❖ **المرتبة الثَّالثة:** المشيئة العامَّة: أنَّ الله شاء كل شيء وأراده -سبحانه تعالى- ولا يقع في مُلكه إلا مَا يريد.
- ❖ **المرتبة الرَّابعة:** الخلق والإيجاد: أنَّ الله خلقه وأوجده، فليس ثَمَّ شيءٌ خارجٌ عن خلقِ الله وإيجاده -سبحانه تعالى.

وهذه المراتب منها ما هو قبل وقوع المقدر -القدر- ومنها ما يكون بعد وقوع المقدور -كما سنبين إن شاء الله.

- ومن المقدمات المهمة في باب القضاء والقدر: الكلام عن المرتبة الثَّالثة وهي: "المشيئة".

فمشيئة الله وإرادته -سبحانه تعالى- باستقراء النُّصوص، **تنقسم إلى قسمين:**

- ❑ **القسم الأوَّل:** **الإرادة أو المشيئة الكونيَّة القَدَريَّة**، وسمَّاها بعض أهل العلم "الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة" اختصارًا، وهذه يدل عليها قول الله -عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكل شيءٍ كائن بإرادته الكونيَّة القَدَريَّة، إذن يريد الله -عز وجل- أشياءً كونًا وقدرًا.

❑ **القسم الثَّاني: الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة**، ويدل عليها قول الله -عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فدلَّ على أنَّ بعضَ الأمورِ قد يُريدها الله -عز وجل- كونًا وقدرًا ولا يُريدها دينًا وشرعًا، وقد يُريدها دينا وشرعًا ولا يُريدها كونًا وقدرًا، ولهذا فإنَّ سبب ضلال الفِرَق المخالفة لمنهج أهلِ السُّنَّة والجماعة في مسائل القضاء والقدر هو التَّسوية بين الإرادتين، ولم يفرقوا بينهما.

- وقد هَدى الله أهلَ السُّنَّة إلى القولِ الوسط الذي هو منهج السَّلف، وهو قول الصَّحابة والتَّابعين وأخبار النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأنَّهم لمَّا اعتمدوا على الآثار والتزموا بها والتزموا بالنُّصوص هداهم الله إلى الصراط المستقيم، فضلت الفِرَق بسبب عدم التَّفريق بين الإرادتين.

فضلت القَدَريَّة -وهي أسبق ظهورًا- ثم ضلَّت بعدها الجبريَّة، وسنفصل -إن شاء الله- في هذين المذهبين على وجه الإيجاز؛ لأنَّه مِن المُهم جدًا أن يعرفَ طالبُ العلمِ هذه المسألة.

إذا علمَ طالبُ العلم أنَّ ثَمَّ إرادة كونيَّة قدريَّة وإرادة دينيَّة شرعيَّة فلابد أن يعرف الفرق بينهما حتى إذا جاءت المسائل لا تُشكل عليه.

- قلنا: إنَّ الله -عز وجل- قد يُريد الشَّيء كونًا وقدرًا ولا يُريده دينًا وشرعًا، **فمن الفروق التي ذكرها أهل العلم:**

☑ **الفرق الأول:**

○ أن الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة لازمة الوقوع، فهي لابد أن تقع، فإذا أراد الله شيئًا كونًا وقدرًا فلابد أن يقع.

○ وأما الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة فقد تقع، وقد لا تقع، فالله أراد مِن عِباده أن يستقيموا وأن يُؤمنوا، وأراد مِن أهل الإيمان ومن العباد الطَّاعة، فهذه إرادة دينيَّة شرعيَّة.

☑ **الفرق الثاني:**

○ أنَّ الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة: عامَّة وشاملة، فكل شيء تشمله.

○ وأمَّا الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة: فهي خاصَّة بالطَّاعات والقُربات، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

☑ **الفرق الثالث:**

○ الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة: لا تستلزم المحبَّة والرِّضا، يعني لا يلزم منها أن الله يحبها ويرضاها، فقد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها الله -عز وجل- بما جرت به حكمته.

○ وأمَّا الإرادة الدِّينيَّة الشَّرعيَّة: فهي تستلزم المحبة والرضا.

☑ **الفرق الرابع:**

○ الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة: قد تكون مَقصودة لغيرها لا لذاتها لما يترتب عليها مِنَ الحِكَم التي يعلمها الله -عز وجل- والتي قد تخفى على خلقه، فكفر الكافر ومعصية العاصي أرادها الله كونًا وقدرًا.

○ الإرادة الكونيَّة الشَّرعيَّة مقصودة لذاتها، ولهذا قال أهل العلم: تجتمعان في المؤمن، وينفرد الكافر بالكونيَّة".

- **وثَمَّ مسائل:**
  - ✓ لماذا خلق الله المعاصي؟
  - ✓ لماذا خلق الله الكفر؟
  - ✓ لماذا خلق الله إبليس؟
- وما شاكل ذلك من الأسئلة يُجاب عليه بمثل هذه التَّفاصيل، ولَعَلَّ -إن شاء الله- يأتي في بعض المسائل التَّفريق بين المراد لذاته والمراد لغيره؛ لأنَّ الإرادة يجري فيها بحث هذه المسائل، ولهذا فعلى وجه الإجمال لبيان هذه المسألة نقول: إنَّ الإنسان -وهو إنسان- قد يريد الشَّيء لذاته، وقد يُريده لغيره، فعلى سبيل المثال: الدواء الكريه هو مُراد للإنسان لغيره، لما يترتب عليه، فهذه المرادات في حقِّ البشر، فما بالك بما هو أعلى وأجل -سبحانه تعالى- الذي لا يُقاس بخلقه، هذا حتى تُعرَف هذه المسائل وتُفهم.
- ثَمَّ مسألة نريد أن نُبينها في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ هذه الآية من أعظم استدلالات أهل السُّنَّة في الرَّدِّ على القَدَريَّة الذين سنُبيّن مذهبهم على وجه الإجمال.
- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، **قال المفسرون في هذه الآية:**
  - **الوجه الأوَّل:** "ما" هنا إمَّا أن تكون اسم موصول، أي: "والله خلقكم والذي تعملون"، وهذا داخل فيه أفعال العباد، يعني: خلقكم وأفعالكم، ولا إشكال في ذلك.
  - **الوجه الثاني:** "ما" مصدرية، وعليه يكون المعنى "والله خلقكم وعملكم".

وعلى كلا القولين فإنَّ أفعال العباد مخلوقة لله -عز وجل؛ لأنَّ القَدَريَّة يقولون: إنَّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله -عز وجل- ولهذا فإنَّ هذه الآية من أعظم الحُجج في الرَّدِّ عليهم.

؟ كيف تكون أفعال العباد مخلوقة؟

- أهل العلم يقولون قاعدة مهمة في باب القضاء والقدر: "أنَّ خالق السَّببِ التَّامّ خالقٌ للمسبَّبِ"، في الدَّلالة على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله -عز وجل.
- فأفعال العباد منسوبة للعباد والله خلقها.

؟ كيف خلقها الله -عز وجل؟

- فيُرد بهذه القاعدة.

ما الذي ركَّبَ فيه الحواس وأعطاه القدرة والاستطاعة؟

وهذه مباحث من مباحث القضاء والقدر، ولعل يأتي -إن شاء الله- لها تفصيل وبيان على وجه الإيجاز.

فالذي خلقه وقدَّره هو الله، وما نتج عنه من العمل مخلوق لله -عز وجل.

- ثم الآية التي بعدها في قول الله -عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

هنا مسألة مهمَّة جدًّا يحسُن بيانها في هذه المباحث، فكلُّ ما هو كائن سبق به القدر، ويجري بحث مسألة تعتبر من المسائل التي قد يكثر الكلام فيها، وهي:

هل ثَمَّ فرقٌ بين القضاء والقدر؟

- أحسن ما يُقال في هذا: أنَّ القضاء ما قُضيَ ووقع، والقدر يَعُمُّ ما قُضيَ وما لم يُقضَ وما لم يقع، فالقدر أعمُّ والقضاء أخصُّ، ولهذا قال الله -عز وجل- عن سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤].
- حديث عبد الله بن عمرو تكلمنا عنه، في أنَّ الله -عز وجل- قدَّر مقادير الخلائق، أمَّا حديث علي بن أبي طالب الآتي فتحته مسائل، ولعلنا نقرأه.

{(عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ قَالَ : «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾)}.

- هذا الحديث حديث عظيم في بيان القضاء والقدر، وأنَّ الله -عز وجل- قد كتب كل شيء.

◆ **المسألة الأولى التي تُبحث في هذا الحديث:** أن الله كتب أهل الجنة، وجاء في الحديث «وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، فكتب الله كل شيء، أهل الجنة قد كتبهم الله، وأهل النار قد كتبهم الله -عز وجل.

- وهي مرتبة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، وهي مرتبة الكتابة، وكونه -سبحانه تعالى- قد كتب ذلك، فعلمه وكتبه وشاءه وخلقه وأوجده، فكون الله -عز وجل- قد كتب ذلك فلا يعني الجبر بوجهٍ من الوجوه.
- ونرجع إلى المسائل المحكمات التي ذكرنا تقريرها فيما سبق؛ لأنَّ علمه -سبحانه تعالى- غائب عن خلقه، لا أحد يعلم علم الله -عز وجل، فكون الله علمه وكتبه فلا يعني ذلك أنَّ الإنسان مجبور أبدًا، كما سيبين النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذلك، والله يعلم كل شيء، وعلمه شامل ما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون -سبحانه تعالى.
- والله لا يُعذِّب على عِلمه سبحانه حتى يقع من العبد الفعل والاختيار لما قد كتبه الله -عز وجل- عليه، إذن ليس ثَمَّ جبر بوجه من الوجوه، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولهذا لا يقل أحد إن الله لا يعلم ذلك! بل علمه، ولكن ظهور علمه -سبحانه تعالى- لم يقع، علم الله -عز وجل- من يتبع الرسول ومن لا يتبع الرسول إذا حُوِّلَت القبلة، ولكن ظهور هذا العلم هذا الذي أراده الله -عز وجل- في هذه الآية.
- والعبد يعلم من نفسه الإرادة والاختيار، وهذا دائمًا نؤكد عليه ونقرره، أنَّ الإنسان يعلم من نفسه أنَّه ليس ثَمَّ جبر، وأنَّه مُختار ومُريد، وهذا هو الذي يُعذَّب ويُعاقب عليه العبد، فله مشيئة واختيار، والله

يُحاسبه على إرادته واختياره، فما أحد يقول: أنا فعلت المعصية وأنا أجد من نفسي أني مجبورا! بل هو يسعى إليها ويفعلها، والكفر كذلك، فتجده يُقبل عليه ويتهوَّك ويخوض فيه، فهذا يُعاقبه الله -عز وجل- على ذلك.

◆ **المسألة الثانية:** هل ما كتبه الله -عز وجل- قابل للتغيير كما قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أم أنَّ ما كتبه الله -عز وجل- لا يتغيَّر؟

- نقول -كما في تقرير أهل العلم: إنَّ مَا كتبه الله -عز وجل- في اللوح المحفوظ عنده -وهو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان- لا يتغيَّر ولا يَتَبدَل، وأمَّا ما في صُحفِ الملائكة فهذا يَتَغير، وهو في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وهو في التقدير الحولي السَّنوي الذي يكون في ليلة القَدر في صُحف الملائكة، ولهذا فإنَّ الملائكة لا تعلم إلَّا مَا أعلمها الله -عز وجل- في التقدير الحولي الذي يُكتب في صحف الملائكة، والذي قال الله -عز وجل- فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

- ومن القدر الذي قد كتبه الله -عز وجل- ويحصل به المحو والإثبات ما هو مُعلَّق، ويسمه بعض أهل العلم: "**القدر المُعلَّق**"، إن فَعَلَ كذا يحصل له كذا، إن دعا حصلَ له المقصود، إن لم يحصل منه الدُّعاء فلا، وهذا إنَّما يكون في صحف الملائكة، ومن ذلك الحديث المشهور: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٤٦].

كذلك من المسائل المهمَّة التي تحتاج البحث: مسألة التَّوفيق والخذلان، وهي تابعة لمسائل المشيئة والاختيار وخلقِ أفعالِ العباد.

؟ إذن مَا الذي يجعل ثَمَّ فَرْقٌ بين المؤمن والكافر وبين المُطيع والعَاصي مَا دام أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- عَلِمه وكتبه وشاءه وخلقه وأوجده؟ ما الفرق بينهما؟ أليس ثَمَّ مسائل يُفرِّق فيها؟

- أهل العلم يقولون: هذه مسألة التوفيق والخذلان، فالله -سبحانه تعالى- يخصُّ بعض عباده بالتوفيق، ويُعينهم، ويصرف عنهم موانع الضَّلال، هذا الإنسان يراه من نفسه وأنَّه يُعان، مثل: القيام لصلاة الفجر، أليس ثَمَّ مُعانٌ ومخذولٌ؟! إذن هو توفيق، قال الله -عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ [التوبة: ٤٦]، هذا التَّثبيط هو الخذلان، فخذلهم الله -عز وجل.

فإذن فالتَّوفيق: هو الإعانة، وأن يصرف عنه موانع الضَّلال.

- والخذلان: أن يَكِلَ اللهُ العبدَ لنفسه، فلا يُعينه، ولا يصرف عنه موانع الضلال، ولهذا في دعاء النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[٤٧]، هذا طلب من العبد لربه الإعانة والتوفيق، فهذا يُسَمه بعضُ أهلِ العلم الإمداد مِن الله، فهو

---

[٤٦] رواه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
[٤٧] أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٤٠٥)، والبزار (٦٣٦٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨).

إعانة وتوفيق، وحينما يعلم العبد ذلك يَشهد عَظيم المنَّة مِن الله عليه، فلا يُعجب بنفسه، ولا يبطر على النَّاس ولا يتكبَّر؛ بل يعرف أنَّ الأمر محضُ فضلٍ وتوفيقٍ.

؟ فإن قال أحد: لماذا وفَّق الله -عز وجل- ذاك وخذل هذا؟

- نقول: هذا عدل منه -سبحانه تعالى؛ لأنَّ الله جعله مُختارًا فاختار، فكون الله -عز وجل- يُمدُّ هذا ويُعينه ويخذل هذا فالله -سبحانه تعالى- أعلم بالمحالِّ التي تقبل الهداية والمحالِّ التي لا تقبل ذلك، وهذا يبعث الإنسان على أن يَشهد أنَّ النَّفس ظالمة ومقصرة، وأنَّه إذا لم يكن من الله -عز وجل- عون وتوفيق فالعبد مخذول.

- **مذاهب النَّاس المخالفون لأهلِ السُّنَّة والجماعة في القدر على وجه البيان والإجمال:**

✱ **المذهب الأوَّل: غلاة القَدَرِيَّة**، وهم أسبق مِن الجبريَّة، وهؤلاء حدثوا في أواخر عهد الصَّحابة، في عهد عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وهؤلاء أوَّل ما ظهروا أنكروا علم الله -عز وجل- وقالوا: إنَّ الله لا يَعلم المُطيع مِنَ العَاصي، ولا يعلم المؤمن من الكافر حتى يقع! تعالى الله عمَّا يَقولون علوًّا كبيرًا.
وهؤلاء الذين قال فيهم الشافعي: **"نَاظِرُوا القَدَرِيَّة بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا وَإِنْ جَحَدُوهُ كَفَروا"**، فهؤلاء هم الأوائل من القَدَرِيَّة، ثم صار القَدَرِيَّة إلى الإقرار بالعِلم ونفي المراتب الباقية من مراتب الإيمان بالقضاءِ والقدر.

✱ **المذهب الثَّاني: غُلاة الجبرية**، وهم الجهميَّة أتباع الجهم بن صفوان الذين يزعمون أنَّ العبد لا قُدرة له ولا اختيار، وأنه كالرِّيشةِ في مَهبِّ الرِّيح، وكالآلة في يدِ الصَّانع، وكالقلم في يدِ الكاتب، فهؤلاء هُم غُلاة الجبرية.
طبعًا هذا المذهب يجرُّ إلى تعطيل الشَّريعة -نسأل الله السَّلامة والعَافية- ولهم قبائح في مثل هذه المسائل، ولكن الإنسان يحكي المذاهب حتى يكون على معرفة بأن هؤلاء غلاة.

✱ **المذهب الثَّالث: القَدَرِيَّة المعتزلة**؛ لأنَّ المعتزلة ورثوا مذهب القَدَرِيَّة أتباع عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، فالمعتزلة مَعروفون، وقد ورثوا مذهب القَدَرِيَّة، وهؤلاء هم مَن يقولون: إنَّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله -عز وجل- وأنَّ العبد يخلق فعل نفسه. هذا هو المذهب الثَّالث الذي يُنظر في باب مسائل القضاء والقدر.

✱ **المذهب الرَّابع: الجبريَّة الأشعريَّة**؛ لأنَّ الأشعريَّة وبخاصَّة المتأخِّرين منهم عندهم جبرٌ في مسائل القضاء والقدر -كما هو معروف- وهم نُفاة الأسباب والعِلل الذين يقولون بالكسب، ولهم مذهب مشهور ومعروف وهو أنَّ الله -عز وجل- يفعل عند السَّبب لا به، يعني: السِّكين ليست بقاطعة، والنَّار ليست بمحرقة بذاتها، لشُبهةٍ عندهم.

- قالوا: لو قلنا إنَّ لها تأثير لكان ثَمَّ مُؤثر غير الله تعالى!

وقولهم هذا إنَّما لأنهم لم يسلكوا مَسلك أهل السُّنَّة والجماعة في النَّظر والجمع بين النُّصوص، فقالوا: النَّار عند الملامسة تحرق، فيفعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- عندها لا بها، فيخلق الله الحرق، والسكين عند الاقتران

يخلق الله القطع! وكل هذه مذاهب فاسدة، ولكن ذكرناها حتى إذا جاء طالب العلم لبحث هذه المسائل التي مرَّت عليه يَعرف نُفاة الأسباب والعلل.

ومذهب أهل السنة -كما هو مُقرر: أنَّ الله -عز وجل- قد قَدَّر كُلَّ شيء، وسيأتي -إن شاء الله- بيان ذلك في بعض المسائل.

- **المسألة التي تليها**: أنَّ الإشكال الذي قد يُتصوَّر في أوَّلِ الحديثِ هو أنَّ الله قد كتبَ كلَّ شيءٍ وقدَّره، ولهذا قال بعض الصَّحابة في بعض الروايات: "أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟!"

هذا إشكال، هل يقتضي أنَّ الله كتب أن نترك العمل؟! فأجاب النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أعلمهم أنَّ الله -عز وجل- قد كتب كل شيء، قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، إذن المطلوب منَّا العمل بما يرضي الله -عز وجل.

كيف أعمل وأنا قد كتب الله -عز وجل- أني من أهل الشقاوة؟

- قال النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، ثم تلا الآيات، وهذه التلاوة لهذه الآيات تزيل الإشكال، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، إذن العطاء من اختيار العبد، والتقوى من اختيار العبد وعمله، قال الله -عز وجل: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، التَّصديق: إيمان بالجنَّة، وبموعود الله -عز وجل- إذن هو عمل بأسباب الهداية فوفَّقه الله للهداية.

❑ **ولهذا فإنَّ المطلوب مِنَ النَّاس جميعًا أن يعلموا أنَّ العلمَ السَّابق لا شأن لهم فيه، ولكن المطلوب منهم أن يعملوا الأسباب، وأن يسألوا الله -عز وجل- أن يُوفقهم إلى الخير، وأن يختم لهم بالصَّالحات، وأن يَهديهم الصِّراط المستقيم، وأن يُميتهم على هذا الصِّراط المستقيم.**

- أمَّا ما علمه الله -عز وجل- فهذا ليس لهم فيه شأن، فلعل تلاوة هذه الآيات تُزيل الإشكال الذي قد يتبادر إلى الذِّهن، فالنَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما أخبر به يُصدِّقه القرآن، وما أجمله النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تفسره هذه الآيات، وكذلك ما أُجمِلَ في كلام الله -عز وجل- يُفسره ما جاء في القرآن، فالقرآن والسنة وحيان.

الأعمال هي أسباب لنيل رحمة الله، ولتيسير الجنة، أليس كذلك؟.

- نعم، سيُيسَّر له، فالمطلوب مِنَ العبدِ أن يَعمل، ولا يَقُل قَد كتبني الله -عز وجل- مِن كذا أو كذا؛ لأنه غائب عنه، وإذا علم الله -عز وجل- منه إرادة الخير وفَّقه للخير، قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، فهذا يُزيل الإشكال، ولهذا لا يتبادر إلى الذِّهن أنَّ ثَمَّ جبر، وإنما يُعذَّبُ الإنسان على اختياره، إذن هذا حديث النَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُقطَع به ويُردُّ به.

- ونُحبُّ أن نُبيِّن بعض الأمور المهمَّة:

الآن في شبكات التَّواصل الاجتماعي تُثار الشُّبهات، ومن أعظم أسباب الضَّلال في مثل هذه المسائل هو الخوض في باب القضاء والقدر، وأنَّ الباحث أو السَّائل يجعل قلبه كالإسفنجة تتلقى الشُّبهات ولا يتلقى العلم، والمطلوب من طالبَ العلمِ وطالبَ الحقّ أن يأخذَ الحقَّ ويستوعبه، حتى إذا أُشرِبَ القلبُ هذا الحق فإنَّ يستطيع أن يردَّ الباطل، ولهذا فليس من الحسن ولا من التَّوفيق أن يلج الإنسان باب الشُّبهات، والنَّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهى الصَّحابة عن الخوض في القضاء والقدر والتَّعمُّق فيه، ويكفي للإنسان فيه الجُمَل، وهذه الجُمَل والمحكمات يردُّ بها على هذه الوسوسات، والشياطين يدخلون من هذه الأبواب، كما مرَّ معنا التَّسلسل في خلق الموجودات الوارد في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم.

- **وكذلك من أسباب الضَّلال: أن يُقال لماذا هذا فقير؟ وهذا غني؟ وهذا مريض؟ وهذا صحيح؟!** يبحثون مسائل كثيرة، ويدخلون ويتشاحبون في كتب الفلسفة وما شاكل ذلك، التي هي زُبالة أفكار البشر، ويتركون الحقَّ!

ووصيتي لكل باحثٍ عن الحقّ: أن يُقبل على كلام الله، وكلام رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ فيه الشِّفاء، فكلام أهل العلم وتقريراتهم تزول به الشُّبهات، ويستقيم الإنسان على الصِّراط المستقيم.

- أمَّا إذا كان يأخذ هذا الدِّين بشكٍّ، فلا شكَّ أنَّ الواردات تكون عليه كثيرة، وأمَّا إذا أخذه بيقينٍ وإيمان فإنَّه يستطيع أن يردَّ الباطل بما أعلمه الله -عز وجل، وبما وفَّقه إليه مِن فَهم النُّصوص والرَّدِّ على الشُّبهات التي هي بحرٌ لا ساحل له.

◆ فنصيحتي للشَّباب والشَّابَّات في مواقع التَّواصل ألَّا يدخلوا في أمور لا يُحسنونها، وإذا وردت عليه الشُّبهة فعليه أن يسأل «فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»[48]، ولا يكتم هذا الشَّيء المُشكِل؛ لأنَّ بعض الشباب قد يكتم هذه الأمور، وهذا لا يصلح، فكلُّ ما في نفسِهِ يقوله لمن يعلمَ منه العلمَ والمعرفة حتى يُجلّي عنه هذه الشُّبهة، ربَّما ترى الشُّبهة كبيرة وهي صغيرة جدًّا، فإذا سألت أهلَ العلم زالت عنك وزالت عن صدرك بحمد الله، والحمد لله فإنَّ الحق أبلج، والباطل لجلج، ونحن -بحمد الله- على يقينٍ وثبات في ديننا، ونسأل الله -سبحانه تعالى- أن يثبتنا على الدين، وأن يتوفانا على هذا الدين المستقيم، وأن يوفقنا لما يرضيه -سبحانه تعالى.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



[48] أخرجه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١/١٨٩)، والبيهقي (١١١٥) باختلاف يسير.







الدرس السابع



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{سنبدأ في هذه الحلقة -بإذن الله- من متن "أصول الإيمان" من حديثِ مُسلم بن يسار الجُهني -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال المؤلف: (عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسْأَلُ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟
قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ بُهُ الْجَنَّةَ. وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ بُهُ النَّارَ». رواه مالك والحاكم وقال: على شرط مسلم. ورواه أبو داود من وجه آخر عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة عن عمر)}.

- تحت حديث مُسلم بن يسار الجُهني مسائل:

المسألة الأولى في دلالة هذا الحديث: أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- خَلَقَ للجنَّةِ أهلًا، وخَلَقَ للنَّارِ أَهْلًا، وأنَّ الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- مَسحَ بيده على ظهر آدم فاستخرج مِن ظَهره ذُريته، وقال: «هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ»، إلى غير ذلك مِن دلالات رواية الحديث.

◆ **المسألة الأولى:** أنَّه لا تَلازم -في أَصَحِّ أقوالِ أهلِ العِلم- بينَ هذا الحديث الذي ذكره المصنف وبينَ آية الميثاق التي وَرَدَت في سُورةِ الأعراف، وهي قول الله -تَبارك وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف١٧٢-١٧٣]، فالصَّحيح مِن أقوالِ أهلِ العِلم: أنَّ الحديث له دلالة مُعينة، والآية لها دِلالة مُعينة، ولهذا فإنَّ آيةَ الميثاق التي تلوتها أفادت معنًى، والحديث الذي قرأته يُفيد معنى آخرًا، وإن كان بينهما تشابه مِن جهةِ أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- مَسَحَ عَلى ظَهرِ آدم، ولهذا فإنَّ هذا التَّشابه هو السَّبب في أنَّ بعضَ أهل العلم رأى التَّلازم بين الآية والحديث، فصار يُفسر الآية بِمُقتضى هذا الحديث، فآية الميثاق تَدُلُّ على أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- جرى قدره بما أخبر -سُبحَانَهُ وتعَالَى- وحديث عُمر بَيّن أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- مَسَحَ على ظهر آدم واستخرج، فهي في دلالة القَدر، وليست في دلالة أَخذ العهد.

- ووجوه هذا الفرق كثيرة جدًّا، منها: أنَّه لا تلازم بين دلالة الحديث، وبين الآية؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: "ذريته" إلى غيرِ ذلك من الدلالات التي ربما يطول الوقت في بيان الفرق بين الآية والحديث، وهذا هو الذي رجَّحه ابن القيم، ولهذا مَن راجع شرح ابن أبي العز -رحمه الله تعالَى- يتبيَّن له هذا الأمر، وهذا واضح وظاهر، وهو أنَّه لا تلازم بين دلالة آية الميثاق، وبين دلالة الحديث، فالحديث إنما هو القدر، وهو معنى في مُقتضى المسائل المتعلقة بالقَدَر.

◆ **المسألة الثانية:** أنَّ دلالة الحديث الذي أورده المصنف -رحمه الله- كدلالة الحديث الذي قبله في سَبْق القَدر بما هو كائن، وَقَد قَررنا فيما سبق مِن مسائل أنَّ العبد مُختارٌ، وأنَّ له إرادة وَقُدرة، وهذه الإرادة والمشيئة تحت مَشيئة الله -عَزَّ وَجَلَّ.

- ثُمَّ في دلالة الحديث أنَّ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فلفظة الاستعمال هُنا هي مسألة التَّوفيق والخُذلان التي تكلمنا عنها فيما سبق، أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يُوفق ويخذل مَن شاء حِكمةً وعَدلًا منه -سُبحَانَهُ وتعَالَى- ولا يَظلمُ ربك أحدًا. إذن دلالة الحديث إنَّما هي في القدر.

{قال المؤلف: (وقال إسحاق بن راهويه: حدّثنا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الزُّبَيْدِيُّ، عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ النَّصْرِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ أَنَبْتَدِئُ الأَعْمَالَ أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ،

فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»)}.

- هذا الحديث الذي ذَكَرَه المصنف دلالته كدلالة الحديث السَّابق، وهو أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أخرج ذرية آدم من ظهره، وقال: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»، فالتيسير هنا: هو ما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- به فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٩].
- إذن ليس ثَمَّ مِنَ اللهِ -سُبحَانَهُ وتعَالَى- إلَّا العَدل، وَعِلم الله -عَزَّ وَجَلَّ- وَاقِعٌ وِفقَ الحِكمة والعدل، فليس ثَمَّ في أفعال الله -عَزَّ وَجَلَّ- ابتداءٌ مِن غَيرِ حِكمة ولا عَدل، تَعَالَى اللهُ عَن ذَلكَ عُلوًّا كبيرًا، ولهذا تُفسَّر الآيات والأحاديث بجمع بعضها مع بعض؛ لأنَّها كلها حق إذا ثبتت عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{(وعن عبد اللَّه بن مسعود حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا» متّفق عليه)}.

- وتحت هذا الحديث مسائل: ورد في هذا الحديث أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يأمر المَلَك "بكتابة"، فورد هنا في الحديث "الكتابة"، وهي -كما سبق- مَرتبة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا نقول: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:

1) العلم.
2) ثم الكتابة.
3) ثم المشيئة.
4) ثم الخلق والإيجاد.

- فمرتبة الكتابة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، وسبق الكلام عليها.
ولكن هي أنواع في دلالة هذا الحديث:

✹ ثَمَّ **كتابة عامة**: يدل عليها حديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[٤٩]، هذه الكتابة العامة التي ليس ثَمَّ شيءٌ في الكون إلا وقد كتبه الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيها، وهي الكتابة في اللوح المحفوظ.

---

[٤٩] صحيح مسلم (٢٦٥٣).

- ثَمَّ نوع من أنواع الكتابة بدلالة الأحاديث النبوية والنُّصوص، وهي **"الكتابة العمريَّة"**، وهي واردة هنا في الحديث، وهي أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يكتب على العبد، ويأمر المَلَك بكتابة ما يتعلق بالإنسان، وهذا لا يكون إلا فيما أخبر به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه بعد الأربعين الثالثة، قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«... فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ»**، إذا تمَّ أربعة أشهر يُؤمر الملك بكتابة هذه الأمور: العمل، والأجل، والرزق، والشقاوة أو السعادة، نسأل الله أن يجعلنا من أهل السعادة. هذا هو النوع الثاني من أنواع الكتابة.
- **الكتابة السنويَّة**: وهي الكتابة في ليلة القدر، وقد ذكرنا أن الملائكة تُؤمر بكتابة ما هو كائنٌ في كل عام، قال تعالى: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾** [الدخان:٤].

- وليس في دلالة الحديث شيءٌ يُخالف النصوص -بحمد الله- ولهذا قال في دلالة هذا الحديث: **«حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ»**، يعني: ما كتبه الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليه في عُمره من الشَّقاوة أو السَّعادة. وهذه المسألة تصورناها، وهي واضحة من دلالة الحديث.

◆ **المسألة الثالثة**: قد يُتصوَّر -أو يَرِدُ إشكال في النفوس- من جهة سَبقِ الكتاب في الحديث؛ لأنَّه قال: **«فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ .... فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ..... فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ»**، الكتاب هنا: ما أمِرَ الملك بكتابته حينما بلغ الجنين الأربعة أشهر في بطن أمه، وكما مرَّ معنا في الدُّروس السَّابقة تقرير المحكمات في باب القضاء والقدر، ولهذا نستصحبه هنا، ونعلم عِلمًا يَقينيًّا أنَّ سَبْق الكِتاب هُنا لا يكون فيه ظُلم مِنْ وَجه مِنَ الوجوه، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- حَكمٌ عدلٌ لا يَظلم أحدًا، ولا يَظلم مِثقال ذَرَّةٍ، وأنَّ العبد لا يُعذَّب إلَّا على مَا فَعل، وأنَّه ليس ثَمَّ جبرٌ في القدر، وأنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- ما أكرهه ولا جبرَه، وإنَّ عِلم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بما هو كائن وبما يَفعله العبد ليس فيه جبرٌ من أي وَجهٍ مِنَ الوُجوه، هذا يُستصحَب هُنا حتى نستطيع أن نُجيب عمَّا يَرِد من إشكال.

أول إشكال: كيف يعمل العبد بعمل أهل الجنة، ثم يسبق عليه الكتاب؟! كأن شيئًا حدث ضد ما يعمله!

- ولهذا جاء في بعض الروايات -والحديث يُفسر بعضه بعضًا- ما يزيل هذا الإشكال والتَّوهُّم، ففي بعض روايات البخاري **«فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»**[٥٠]، وهذا من الصناعة الحديثيَّة أن تُجمَع الرويات؛ لأنَّه يُفسر بَعضُها بعضًا، ويُعرَف منها ما هو محفوظ وما هو غير محفوظ، وضده الشَّاذ، فبعض الروايات تفسر بعضها بعضًا، وبعض الرويات قد تكون مَعلولة، وهذا يُفيدك في الصِّناعة الحديثية في معرفة وجوه التَّرجيح.

إذن -بحمد الله- ليس ثَمَّ إشكال أنه إذا فُسِّر الحديث بهذه الرواية، وهو أنَّه يعملَ بِعَمَلِ أهل الجنَّة فيما يبدو للنَّاس، وأمَّا حقائق الأمور فلا يعلم بها إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ.

---

[٥٠] صحيح البخاري (٢٦٩٧).

ولهذا قال ابن القيم -رحمه الله تعالى: "**فإنَّ هذا عَمل أهل الجنَّة فيما يَظهر للنَّاسِ، ولو كان عَملًا صالحًا مقبولًا قد أحبه الله ورضيه لم يسبق عليه الكتاب**"[٥١]؛ لأنَّ اللهَ لا يَظلم أحدًا -سبحانه وتعالى.

ولهذا فإنَّ هذا الحديث يحمل العبدَ على تحقيق التَّوحيد في قلبه، وعلى تنقية الأعمال مِن كُل شوائبها.

- ولهذا قال ابن رجب -رحمه الله- لما علَّقَ على رواية البخاري «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»: "**فيه إشارة إلى أنَّ باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأنَّ خاتمة السوء -أعاذنا الله وإياك والسامعين والمشاهدين منها- تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها العبد**"[٥٢]

إذن هي ليس على ما يبدو للنَّاس والظواهر؛ لأنَّ ثَمَّ أعمال جوارح وثَمَّ أعمال قلوب، فأعمال الجوارح قد يطلع عليها النَّاس فيما يَظهر لهم، ولكن أعمال القلوب لا يَطلع عليها إلَّا عَلام الغيوب -سبحانه وتعالى- الإرادات والنيَّات، وما يقع في القلب من أمور، نسأل الله أن يُطَهِّرَ قلوبنا مِن أمراضها.

- ولهذا كان يقول بعض السلف: "الخواتيم مواريث السوابق"، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل: ٥-٩]، وهذا لا يَغيب عن الإنسان، أنَّ المطلوب منه أن يَعمل، ولهذا لَمَّا أخبر النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي مَرَّ معنا فيما سبق أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- قد كَتَبَ أهل الجنة مِنْ أهل النَّار، فقال رجل: أفلا نتكل على الكتاب؟ فقال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعْمَلُوا**»، وهذا الخطاب يَقتضي العمل ظاهرًا وباطنًا، أي: اعملوا الصَّالحات ظَاهرًا وبَاطنًا، بأعمال الجوارح وأعمال القلوب، وأعمال القلوب مِن أَنْفَسِ مَا يَنْبَغي للإنسان أن يُفتِّشَ عنه وأن يُنقِّيَه؛ لأنَّ الأعمال إنما تتفاضل بنيَّاتها، وبما يقع في القلب، نسأل الله أن يُوفقنا لأن نعمل صالحًا ظاهرًا وباطنًا.

وهذا يَجُرُّنا إلى أن نتكلم عن الموقف مِن هذه الغيبات، أي: ما يتعلق بأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- كَتَبَ أهل الجنةَّ، وكتب أهل النَّار، وما يتعلق بذلك، ونحن نذكر بها في مَسائل القضاء والقدر، لأنها -كما قلت لكم- مثار إثارة الشبهات والتشكيكات، ولهذا نقول: إنَّ ما يخبر الله تعالى به أو ما يُخبر به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من النُّصوص تأتي بما تُحار بها العقول، لا بما تُحيله العقول. يقول ابن تيمية: "بمحارات العقول لا بمحالاتها".

- ومن الأمور التي ينبغي أن يعلمها الإنسان: أنه لا يُقاس فعل العبد على فعلِ الرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]، فكما أنَّه ليس له مماثل في أسمائه وصفاته فكذلك في أفعاله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- فلا وجه للمُقَايسه، ولا يُقاس عالَم الشَّهادة بعالَم الغيب، فعالم الغيب وما يُخبر الله تعالى به لا يُقاس بعالَم الشهادة، وليس بينهما تلازم، وليس بينهما تشابه إلَّا مِن جهة الأسماء كما في الجنة.

---

[٥١] الفوائد" ص ١٦٣

[٥٢] جامع العلوم والحكم (١٧٢/١)

❑ **ومن الأمور التي تُعين الإنسان وتُثبت قدمه على هذا الطريق: أن يُوقن بعجز العقل البشري، وأنَّ عُقول البشر جميعًا عاجِزَةٌ عن الإحاطة بكل شيء، وهذا مُهم جدًّا؛ لأنَّ مَن أطلَقَ لِعَقلِهِ العنان وَقَعَ فِي وَرَطاتِ الأمور، ووقع في الحيرة والشَّك.**

- ثم نقول: لا سبيل للثبات على دين الإسلام إلَّا بالتَّسليم لله -عَزَّ وَجَلَّ- فهو لا يُسأل عَمَّا يَفعل وَهُم يُسألون، ولهذا فمن المهم جدًّا أن نبيّن تعريف الإسلام للنَّاس، وهو: الاستسلامُ لله بالتَّوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعةِ، والبراءةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِه.

ثَمَّ استسلامٌ وإذعانٌ وخضوعٌ لنصوصٍ علمتَ منها ما علمتَ، وجهلتَ منها ما جلهتَ.

- أمَّا عُمدة الزنادقة والملاحدة فهي التشكيك لا الإخبار والإعلام، ولهذا نهايتهم إلى الحيرَةِ وعدم الوصول إلى الحقيقة، وللأسف هذا سبب من أسباب ضلال الفِرَق -كما مرَّ معنا- ولهذا أهل الكلام قالوا في أول واجب: الشَّك أو النَّظر، أو القصد إلى النظر، وجملة من الفلاسفة من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين.
- الفلسفة التَّشكيكة هي الفلسفة الرائدة عندهم، فليس ثَمَّ استسلام ولا إذعان ولا خضوع، هذا هو الفرق بين أهل الإسلام وبين غيرهم.

ولهذا فإنَّ هذه النُّصوص يُؤمن بها وفق ما جاء، وليس فيما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شيء يُعارض العُقول، وإنما تأتي النُّصوص بما تُحارُ به العقول، لا بما تحيله العقول.

{قال -رحمه الله: (عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ يَا رَبِّ: أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ: أَذَكَرٌ، أَوْ أُنْثَى ؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ» . رواه مسلم)}.

- في هذا الحديث مسائل:

◆ **المسألة الأولى:** في الحديث إشكال من جهة الجمع بينه وبين الحديث الذي قبله.

- وجه الإشكال: جاء في حديث عبد الله بن مسعود أنَّ بَعْثَ الملك يكون بعد الأربعين الثَّالثة، يعني بعد الأربعة أشهر، وفي هذا الحديث قال: «بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً». واضح الإستشكال.

ولهذا ثَمَّ مسلكان لدفع هذا الإشكال: الترجيح، أو الجمع بين هذين الحديثين

❖ **المسلك الأول:** الترجيح، الحديث الأول رواه البخاري ومسلم، وهذا من رواية مسلم، وبعض أهل العلم يرى أنَّ حديث عبد الله بن مسعود هو المحفوظ، وعليه فما جاء في حديث حُذيفة غير محفوظ، ومن المعاصرين مَن يرى ذلك مثل: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز-رحمه الله تعالى.

❖ **المسلك الثاني:** مَن يَرى الجمع، أن هذا قد يكون في بعض الأجنة، أمَّا الأَعَم الأغلب فإنه لا يكون إلا بعد الأربعين الثالثة.

والأقرب -والله أعلم- أن حديث عبد الله بن مسعود هو المحفوظ، وأمَّا حديث حذيفة فليس بمحفوظ.

◆ **المسألة الثانية:** الذكورة والأنوثة، وهذا يرد عليه إشكال في أنَّ الأجهزة الآن تطورت وقد تُصوِّر الجنين، فهل هذا من علم الغيب؟

والجواب معلوم عند كثير مِنَ النَّاس، أنَّ عِلمَ الغيب الذي استأثر الله تعالى به يعمُّ كل شيء، وليست الذكورة والأنوثة فقط، وأنَّ عِلمَهُم بالذُّكوريَّة والأنثويَّة إنما يكون بعد الأربعين، بعدما يكون التَّخلُّق، فهذا هو المراد بهذا الحديث.

؟ ما معنى قوله: «فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»؟.

- هذا هو التقدير العمري، وهو سبقُ الكتاب، أنَّه شَقيٌّ أو سعيدٌ، فهذا التَّقدير لعمر الإنسان الذي يُؤمر الملك بكتابته مأخوذٌ مِنَ اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وهذا الذي قال: «فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ»، ثمَّ شيء في صحف الملائكة يمحوه الله -عَزَّ وَجَلَّ- وثمَّ شيء في صحف الملائكة أو يؤمرون بكتابته لا يتغير وهو الشَّقاوة والسَّعادة، قال: «ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ».

{قال المؤلف: (وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ ؟ قَالَ: أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ». رواه مسلم.

وعن قتادة - رضي اللَّه عنه- في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال: "يُقْضَى فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا". رواه عبد الرزاق وابن جرير.وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس -رضي اللَّه عنهما- والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبيرٍ ومقاتِل.

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما- قال: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، يَخْلُقُ بِكُلِّ نَظْرَةٍ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم.

قال ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى- لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها، قال: "فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلقِ النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقِهِ وكونِهِ مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكلّ واحدٍ من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السّابقِ. وفي ذلك دليلٌ على كمال عِلم الرّبّ وقدرته وحكمتِهِ، وزيادة تعريفِهِ الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه".

ثم قال: "فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أنَّ القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجدّ والاجتهاد. ولهذا لما سمع بعض الصّحابة ذلك قال: ما كنت بأشد اجتهادا منّي الآن. وقال أبو عثمان النّهدي لسلمان: لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا منّي بآخره. وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من اللَّه سابقة وهيّأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من اللَّه أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بعدها")}.

- أولًا نُعَلِّق على حديثِ عَائشة الذي جاء في مُسلم، مِن جهة أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنكر على عائشة لما قالت: "طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ"
- فائدة هذا الحديث: مَنع عَائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- مِن الشَّهادة لمعيَّن بالجنَّة أو النَّار، مِن جهة أنَّها قالت: "طُوبَى لِهَذَا"، وهذا لا يُخالف مَا تقرر عند أهل العِلم وحُكِيَ فيه الإجماع أنَّ أطفال المُسلمين مِن أهل الجنَّة، ولكن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنكر على عائشة القطع بذلك، وهو فائدة هذا الحديث.
- أمَّا في حديث ابن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فقد قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ»، هذا الحديث يدل على ما دلَّت عليه الأحاديث السَّابقة، أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- قد كتب كل شيء، ومَا قد يتصوره بعض الناس أنَّه ليس مكتوب؛ نُفِيَ هذا التصور -أو هذا الفهم- حتى العجز والكيس.
  - ✓ والعجز: هو الضعف وترك الحزم، وقد يكون الخرق وعدم التَّدبير، وهذا يكون في الخلق، فهناك مَن هُو عاجزٌ أخرق، وهناك من هو ضد ذلك.
  - ✓ والكيس: الحَذق بالأمور والعقل والتدبير.
- ولهذا فلا يُمكن أن يُفسَّر العجز هنا بعدم القدرة والاستطاعة، أي: بأنَّه غير قادر؛ لأنَّ مَنَاطَ التَّكليف -كما هو مَعلوم- عن القُدرة والوسع، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وأحكام الشَّريعة مُتعلقة بالوِسع والطَّاقة، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا»[٥٣]، إلى غير ذلك من دلالات الأحاديث.
- والعجز الوارد هنا في الحديث هو مِن كَسبِ العبدِ وَفِعله، وَيصدق في التَّسويف والتَّمنِّي، ومع هذا فالله -عَزَّ وَجَلَّ- قد كتبه، ولهذا جاء في الحديث «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»[٥٤]، إذن كُلُّ شَيءٍ بِقَدَره -سُبحَانَهُ وتعَالَى.
- كذلك مِن المسائل المهمة في دلالة الأحاديث، ولها تعلق بالعجز والكيس: أنَّ الشَّرَّ قد خلقه الله -عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- خلق الخير والشَّرَّ، والشَّرُّ في مَفعولاته لا في فعله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- ولهذا جاء في حديث دعاء القنوت: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»، في مُقضياته لا في فِعله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- إذن كله قد خلقه الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا كان في ثناءِ الخليل على رَبِّه التأدُّب معه -سُبحَانَهُ وتعَالَى- بعدمِ نسبة الشَّرِّ إليه، قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، قال ﴿مَرِضْتُ﴾ نَسَبَ المرض لِغيره من بابِ الأدبِ مَعَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-

---

[٥٣] صحيح البخاري (١٠٥٦).
[٥٤] أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وأحمد (١٧١٦٤) مختصراً، وابن ماجه (٤٢٦٠) باختلاف يسير، والديلمي في ((الفردوس)) (٤٩٣٠) واللفظ له.

مع أنَّه كُله واقعٌ بقدر الله تعالى، بِخِلاف الطَّريقة الإبليسيَّة، فالشَّيطان قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، مع أنَّه هو الغاوي!

- وطريقة المشركين هي الاحتجاج بالقدر: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، تعليق الأمر بالقدر.
- وفي ثناء النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على ربه، قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[٥٥]؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- لم يخلق شرًّا مَحضًا، والشَّرُّ في مفعولاته ومقضياته لا في فِعله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- والشَّرُّ نسبيٌّ إضافيٌّ، يعني بحسب ما يكون، فقد يكون في مُقضياته وأمره -سُبحَانَهُ وتعَالَى- الكوني القدري خير لكثيرٍ مِنَ النَّاس، ولكنَّه لبعضِ النَّاس شَر، كالمطر والسَّيل، فإنَّه في أَعَمِّه وَأَغْلَبه خير، ولكنَّه لبعضِ النَّاس يكون شَر في تلف ممتلكات أو إزهاق أرواح.

ولهذا فإنَّ إضافة الشَّرِّ إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- واردة بأساليب مُعيَّنة مَذكورة في القرآن، منها:

- أن يُذكر الشَّرِّ في عُموم مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١]، ومن ضمن ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ الشَّرِّ الذي خَلَقَه الله -عَزَّ وَجَلَّ- كالكفر والمعاصي ومَا شَاكل ذلك.
- أن يُحذَف فاعل الشَّرِّ: فمن أساليب القرآن في ذكر الشَّر أنَّه في مفعولاته -سُبحَانَهُ وتعَالَى- كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فيُحذف فاعل الشَّرِّ، فلا يُقال: "إنَّ اللهَ أراد به شرًّا" فحذف فاعل الشَّرِّ الذي هو خَالق الشَّرِّ -سُبحَانَهُ وتعَالَى؛ لأنَّه هو خالق الشَّرِّ والخَير.
- أن يُسنَد إلى محله القائم به: مثل ما ذكره الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠].

فخلاصة ما ذكرنا: أنَّ الشَّرَّ في مَفعولاته لا في فِعله -سُبحَانَهُ وتعَالَى.

- ولهذا قال في حديث قتادة -رضي اللَّه عنه- في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال: "وَهِيَ لَيْلَةُ الْحُكْمِ الَّتِي يَقْضِي اللَّهُ فِيهَا قَضَاءَ السَّنَةِ"[٥٦]. وهذا الذي تكلمنا عنه فيما يتعلق بالتَّقدير السَّنوي.
- ثم ذكر المؤلف أثر ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، ....."، إلى آخر ما ذكره ابن عباس من وصفِ اللوح المحفوظ.

واللوح المحفوظ جرى الكلام عليه: أنَّ الله كتبَ فيه كل شيء، فكما أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- خلق العرش، خلق القلم، خلق اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء.

[٥٥] مسند أحمد (٧٨٤).
[٥٦] تفسير الطبري.

وفي هذا الأثر الذي رُوِيَ عن ابن عباس وصفٌ لهذا اللوح، ولكن من جهة الصناعة الحديثيَّة فن هذا الوصف حديث، ولا يصح الاحتجاج به من جهة سنده، ولا يقوى أن يورد في مثل هذا، فيقال إنه ضعيف ولا يُحتجُّ به حتى نرتِّب عليه الأحكام الشرعية فيما يتعلق بشرحه.

- ولذا فصَّل ابن القيم -رحمه الله تعالى- لَمَّا ذكر هذا الحديث وما في معناه، فقال: هذا تقدير يومي في التعليق على أثر ابن عباس، قال: "والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلقِ النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقِهِ..." حتى قال: "فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أنَّ القدر السَّابق لا يمنع العمل"، وهذه نقطة مُهمة جدًّا، وهي أنَّ القدر السَّابق يحمل على العمل، ولا يحمل على ترك العمل، ولهذا قال الصَّحابي فيما ورد معنا من الأحاديث: "أفلا ندعُ العمل؟". فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْمَلُوا».
- ولذلك قال ابن القيم: "وَاتَّفَقَتْ جَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَالسُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ وَلَا يُوجِبُ الِاتِّكَالَ، بَلْ يُوجِبُ الْجِدَّ وَالِاجْتِهَادَ وَالْحِرْصَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلِهَذَا لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أَصْحَابَهُ بِسَبْقِ الْمَقَادِيرِ وَجَرَيَانِهَا وَجُفُوفِ الْقَلَمِ بِهَا، فَقِيلَ لَهُ: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾"[٥٧]
- قال ابن القيم: "وقال أبو عثمان النَّهدي لسلمان: لَأَنَا بِأَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِآخِرِهِ"[٥٨]

وذلك لأنَّه إذا كان قد سبق لَه مِنَ اللَّه سَابقة وهيّأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسَّابقة التي سبقت له مِنَ اللَّه أعظم مِن فَرَحِه بالأسبابِ التي تأتي بعدها، يعني: أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- إذا كان كتب كل شيء، وخلق كل شيء، وخلق أهل السعادة من أهل الشقاوة، فهذا يحثُّك على أن تعمل؛ لأنَّ الظنَّ بربك -سُبحَانَهُ وتعَالَى- أنَّه سييسرك لأهل الجنَّة، ولكن المطلوب منك العمل، والعمل -كما ذكرنا- عمل ظاهر وعمل باطنٌ. فكما أنَّك تعتني بالأعمال الظَّاهرة عليك أن تعتني بالأعمالِ الباطنة وأعمال القُلوب، فأعمال القلوب لها أثر عظيم، وثَمَّ ترابط بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب، وإنما يتفاضل النَّاس بأعمالهم بحسب ما يكون في قلوبهم.

- وقد مرَّ معنا في الحديث السابق: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا»[٥٩]، وما ذاك إلا أنَّه قد قام في قلبها من توحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ- ورجاء موعده ما يسَّر الله تعالى لها تلك السَّابقة، من أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- غفر لها، فليس -بحمد الله- ثَمَّ تعارض بين هذه الأحاديث، وهذه الأحاديث يُجمَع بعضها إلى بعضٍ، ودلالتها واحدة في أنَّ الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- قد خلق كل شيء، وقدَّرَ كل شيء، وأنَّ قدرَ الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- ليس فيه ثَمَّ ظُلمٌ للعبادِ، وأنَّ الله

---

[٥٧] معارج القبول: (ص: ٩٥٤)
[٥٨] الشريعة للآجري بَابُ ذِكْرِ مَا تَأَدَّى إِلَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ ...
[٥٩] صحيح البخاري: ٣٤٦٧، صحيح مسلم: ٢٢٤٥، واللفظ لمسلم

-عَزَّ وَجَلَّ- لا يُحاسب العباد إلّا على ما عَمِلُوا، وكما قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

- والقَدَرُ سِرُّ الله في خلقه، لم يُطلع على ذلك أحد، ولهذا فلا يُنظَر من جهة أن يقول الإنسان: قد كتبني الله من أهل هذا الطريق! ولكن المطلوب العمل، لأنَّ هذا غيب لم يُطلعكَ الله عليه، ولهذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وركَّبَ فيك الإرادة والاختيار لتعمل، وليس ثَمَّ حائل بينك وبين العمل، فاعمل الصالحات، ونقِّ قلبكَ مِنَ الدَّسائس المفسدة من الأعمال، لعل الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- أن يكتبك من المُفلحين، ولعل الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- أن يوفقك لطريق الخير.

{(وعن الوليد بن عبادة قال: دَخَلْتُ عَلَى أبِي وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي فَلَمَّا أَجْلَسُوه، قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ ، دَخَلْتَ النَّارَ" رواه أحمد)}.

- هذا الأثر فيه دلالة على أنَّ الله -سُبحَانَهُ وتعَالَى- أخبر أنَّه قد كتب كل شيء، وأنَّ ذَوقَ طعم الإيمان لا يكون إلا بالإيمانِ بالقدر، ولهذا في الأثر: "يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". والإيمان بالقدر -كما مرَّ معنا- ركنٌ من أركان الإيمان.

- قَالَ: (قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟)، كما مرَّ معنا أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- خلق القدر بأنواعه كلها، حلوه ومره، ليس في مَقدورات الله -عَزَّ وَجَلَّ- الخير فقط؛ بل في قضاء الله ما هو شر -كما مرَّ معنا.

- قال: (تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)، هو التَّسليم بما قَدَّره الله -عَزَّ وَجَلَّ، فإذا وَقَعَ القَضاء جَازَ الاحتجاج بالقَدر، فيجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر في المصائب لا في المعائب، ولهذا قال: (يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»)، فلابدَّ من الإيمان بالقضاء والقدر بحلوه ومُرِّه بما قدَّر الله -عَزَّ وَجَلَّ، وهذا الإيمان يبعثك على التَّسليم وعلى الرِّضا بما قضاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]، ومن الإيمان بالله الإيمان بقدره، وقدر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيه حلو ومرٌّ، قال: تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، تحصل له هداية القلب.

- قال علقمة بن وقاص الليثي: "**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُسَلِّمُ ذَلِكَ وَيَرْضَى**"[٦٠]، أمَّا رضا الناس بِقَدَرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- الذي هو خَير فَهذا لا إشكال فيه، ولكن التفاضل والتفاوت فيما قضاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- من مُرِّ قَدَرِه، وهذا الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾، يعلم أنَّ مَا قَضاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو قَدر؛ فيرضى وَيُسَلِّم، فيحصل له ذوق الإيمان وذوق طعمه، والأنس بذلك، والرِّضا بقدر الله -عَزَّ وَجَلَّ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



[٦٠] تفسير الطبري تأويل قوله تعالى "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله.

الدرس الثامن



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{في هذه الحلقة -بإذنِ الله- نقرأ مِن قَول المؤلف رحمه الله: (عَنْ عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيدِ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عُبَادَةَ وَأَنَا أَتخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ. فَقُلْتُ: يَا أَبَةَ. أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ. قَالَ: أَجْلِسُونِي فَأُجْلِس. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تطْعَمَ الإِيمَانَ وَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قَالَ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ إِنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُنَيَّ. فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ. قَالَ: اكْتُبْ. فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ» يَا بُنَيَّ، إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَى هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ. رواه أحمد)}.

- هذا الحديث العظيم من أحاديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التي ساقها المُصنف -رحمه الله تعالى- في أصلٍ مِن أُصول الإيمان، وهو الإيمان بالقَدر، **وتحت هذا الحديث مَسائلَ ينبغي أن ننبه عليها:**

◆ **المسألة الأولى:** في الحديث ذِكْرُ الوصية، والوصية منها ما هو واجبٌ، ومنها ما هو مُستحبٌ، فإذا كان على المكلف حُقوق؛ فجيب عليه أن يُبينها وأن يكتبها.

- وهكذا ذكر أهل العلم أنَّ الوصية تتعلق بها الأحكام التَّكليفية الخمسة، فقد تجب، وقد تكون مُستحبة، وقد تكون سُنة، ....

- والوصية التي طلبها الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ من أبيه هي الوصية الشَّرعية الدينية؛ لأنَّه تخايل فيه -أو توقَّع- أنَّه ربما يكون في آخر أيام عمره، فطلب منه الوصية؛ لأنَّه صَحِبَ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَحِمَ الله السَّلف ما أحرصهم على الخير!

◆ **المسألة الثانية:** عُبَادَةُ -رضي الله عنه- ذكر أمورًا تتعلق بمسائل الإيمان، فإنَّ عُبَادَة في هذا الأثر رتَّبَ ذَوق حَلاوة الإيمان وطعمه على الإيمان بالقَضَاءِ والقَدَر، ولا شكَّ أنَّ الإيمانَ بالقضَاءِ والقَدَرِ رُكنٌ من أركان الإيمان، ولكنَّ النَّاس يتفاضلون في هذا الإيمان كما يتفاضلون في غيره.

- فذكر عُبَادَة الميزان لهذا التفاضل، فقال: "أن تؤمنَ بالقدرِ خيره وشرِّه"، المحبوب مِنَ القَدَرِ والمكروه؛ لأنَّ القَدَرَ مما يقضي الله -عَزَّ وَجَلَّ- به منه ما هو محبوبٌ للنَّاس، ومنه ما هو مكروهٌ لهم، وهذا من طبيعة البشر، ومن طبيعة الإنسان، ولهذا لمَّا سأل عن ماهيَّة ذلك بقوله **(يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟)**، فهو استفهام في محله، قال: **(تَعْلَمُ إِنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)**، تؤمن إيمانًا يَقينيًّا بهذا، وتعقد عليه قلبك.

وفي هذه المرتبة الطمأنينة الكاملة لما وقع من المقدور، وبه النَّاس يتفاضلون، فأصل الإيمان بالْقَدَرِ لا شكَّ أنَّه واجبٌ، وثَمَّ مراتب يتفاوت النَّاس فيها بحسب وقوع المقدور وبحسب ما في قُلوبهم، والله المستعان!

- ولهذا لما قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للمرأة كما في صحيح البخاري: **«اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي»**. قَالَت: "إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي"، ثم بعدما ذهبت بفترة وجاءت إلى النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقالت: "إني لَمْ أَعْرِفْكَ يَا رَسُولَ الله" فقال لها النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»**[٦١]، وبه يتفاضلون.

وهذا مِن ذَوق حلاوة الإيمان التي لا يُوفَّق لها إلا الكُمَّل مِن عِبَادِه.

إذن هذا الحديث دلَّ على أنَّ أصل الإيمان بالْقَدَر واجبٌ، ولكنَّ النَّاس يتفاضلون فيه كما يتفاضلون في سائرِ مَراتب الإيمانِ.

◆ **المسألة الثالثة:** ذُكِر أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **(سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ أَوَلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ...»)**، وهذه مسألة ذكرها أهل العلم، واختلفوا في أول مخلوقات الله.

- هذه المسألة ذكرها أهل العلم، والصَّحيحُ أنَّ القَلَمَ مِن أوائلِ مخلوقات الله -عَزَّ وَجَلَّ- كما جاء في الحديث، وكما ذكر ابن القيم أنَّ العرش قبله، والأمر في المسألة يَسير -بإذن الله؛ لأنَّ لكلٍ وجهة، ولكلٍ استدلال.

{قال -رحمه الله: **(عَنْ أَبِي خُزَامَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا: هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ: «مِنْ قَدَرِ اللَّهِ». رواه أحمد والتِّرمذيّ وحسّنه)**}.

---

[٦١] صحيح البخاري (١٢٠٩).

- هذا مِن توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- للمصنف في إيراد هذا الحديث عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وله تعلق بمسائل، وهي مسألة فعل الأَسباب، وهل فعل الأسباب مِن الْقَدَر؟ وهل مطلوب من العبد أن يفعل السَّبب؟

ولهذا أحسنَ بإيراد هذا الحديث في هذا الموضع.

ولهذا نقول:

❑ **أولًا:** العِبَادُ مأمورون بفعلِ الأسباب؛ لأنَّ الله ربطَ النتائج والثِّمار بمقدمات، وهذا يعرفه النَّاس جميعًا، فلا يظهر الزَّرع إلَّا بالحرثِ والغَرسِ، ولا يقع الحَمْلَ والحَبَلَ إلا بالنِّكاح، وإمام المتوكلين محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ»[٦٢]، وقد بيَّن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث أنَّ اتِّخاذ الأسباب يُعدُّ مِن قَدَرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ.

- وجهُ أنها من قدر الله: لأنَّ الْقَدَر يشمل السَّببَ والمسبَّب، والفعل و النتيجة؛ ولأنَّه كله داخلٌ في قَدَرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- فلابدَّ أن يُعلم هذا، وهذه طريقة أهل السنة، بخلاف طريقة غيرهم من الضَّالين والمُنْحَرِفِين عَن الصِّراط المُستقيم، الذين يتركون فِعلَ الأسباب كما يَفعله بعض الطُّرقيَّة والمتصوِّفة من ترك فعل الأسباب وزعمهم أنَّ ذلك مِنَ التَّوكل.

❑ **ثانيًا:** المحظور في فعلِ الأسبابِ ليس أن تفعل السَّبب، وإنَّما المحظور هو الالتفات إلى السَّببِ، إذن "فعل السَّبب مَطلوب، ولكن المحظور هو الالتفات إلى السَّببِ".

لاحظ العبارة! العُلماء يُعبرون بـ "الالتفات إلى السبب"، يقول العلماء: الالتفات إلى السَّببِ عملٌ قلبيٌّ خفيٌّ، لا يَطَّلع عليه إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ"، وربما يظهر ذلك مِن فَلَتَاتِ لسانِ العبد، أنَّه قد التفتَ بقلبه إلى السَّبب فتعلَّق به.

- ولهذا جاء في الحديث: «وَمَنْ تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ وُكِّلَ إِلَيْهِ»[٦٣]، فالأصل أنَّه عمل قلبي، ولكن قد يظهر في فلتات اللسان، فقد جاء النَّهي عن ألفاظٍ مُعيَّنةٍ مِن جِهة هذا الملحظ، أي من جهة الالتفات إلى السَّبب، مثل قوله: "لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ"[٦٤]، كما جاء عن ابن عباس وغيره، أو ما شاكل ذلك من الألفاظ التي قد يظهر منها الالتفات إلى السَّبب والتَّعلق به.

إذن فعل الأسباب مَطلوب، ولكن المحظور هو الالتفات إلى السَّببِ.

❑ **ثالثًا:** لابدَّ أن يعتقد أهل الإيمان أنَّ أي سبب لا يؤثر إلا بتحقق شُروطه وانتفاء موانعه، وكل سبب له نتيجة لا شك في ذلك، وكل سبب له شروط، وهذه الشُّروط قد تكون سابقة، وله أركان قد تكون في نفس فعل السبب، وله موانع مجموعة، ولهذا لا يتحقق أثر السَّبب إلا بتحقق الشُّروط وانتفاء الموانع، وكل ذلك بقدر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وبأمره، لا يخرج عن أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ.

- مثال: كم مِنَ الدَّواء ما ينفع عند فلانٍ ولا ينفع عند ذاك لأمور.

---

[٦٢] السنن الكبرى للبيهقي (١٦٤٩١).

[٦٣] أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٦٩) واللفظ لهما، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٤: ٣٤١).

[٦٤] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١ : ٦٢) بإسناده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

- ✓ إمَّا لعدم تحقق الشُّروط، يكون شرط النَّفع أن يأخذه في الوقت الفُلاني، أو ما يتعلق به
- ✓ أو وجود مانع لا يناسبه، أو ما شاكل ذلك.

فهذا ينفع معه، وذاك لا ينفع معه!

- إذن كله بيد الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى- وهذا يُشعرُكَ ويجعل قلبك مُنعقدًا على التَّعلق بمسبب الأسباب لا بالسَّببِ، فلا يَعْدُ السَّببُ أن يكون سببًا في حُصول المطلوب، والله تعالى هو الذي يَجعله مُؤثرًا -سُبْحَانَه وتَعَالَى- ولو شاء لنزع تأثيره فلا ينفع، وهو الذي يَصرف عن العبدِ مَوانع أثر السَّبب، فيجعل الأثر يتحقق. إذن مَبدأه وَمُنتهاه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- ولهذا فالتفات العبدِ إلى السَّببِ هذا يُؤثِّر في انتفاعه بالنَّتيجة، فيكله الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى هذا السَّبب، لكن إذا فَعَلَ السَّبب وتعلق قلبه بربه -سُبْحَانَه وتَعَالَى- فهذا مَقام التَّوكُّل، فالنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو إمام المتوكلين فَعَلَ السَّبب، ولذا كان فِعلُ الأسبابِ مَطلوبًا، ولكنَّ المحظور هو الالتفات إلى الأسباب.
- إذن في كل الأمور لابد من الإنسان أن يفعل الأسباب، ولكنه لا يلتفت إليها، ولا يتعلق بها؛ بل يعلم أنَّ مبدأها ومُنتهاها من الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى- وأنَّ السَّبب لا يُعطي النتيجة إلَّا بتحقق الشُّروط وانتفاء الموانع، ومن الشُّروط ما هو مَعلوم لك، ومنه ما هو ليس بمعلوم لك، ومن الموانع ما يعلمه ابن آدم، ومنها ما لا يعلمه، فقد يعلم الطَّبيب أثر السَّبب وقد لا يعلم بقدر الله -عَزَّ وَجَلَّ.

❑ **رابعًا**: مَا يتعلق بفعلِ الأسبابِ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عبارة عظيمة نقلها عَن السَّلف، فقال: **"وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ: مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِن العُلَمَاءِ. قَالُوا: الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ"**[٦٥]؛ لأنَّ التَّعلقَ بالأسبابِ قد يكون شركًا أصغرًا، وقد يكون شركًا أكبرًا بحسب ما يقوم في القلب.

- قال: **"وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَاباً نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ"**، يأتي واحد يقول: أنا متوكلٌ على الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولا أفعل الأسباب! هذا لا يقبله العقلاء!

هل يمكن للإنسان أن يقول: سيأتيني ولد وهو لم يأت بسبب الولد وهو الزواج؟! هذا نقص في العقل لو قاله إنسانٌ!

- قال: "**وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ**"، يريد أن يتحقق السبب وهو لم يفعل الأسباب! فهو قدحٌ في الشرع، وعليه فالأسباب النافعة الموصلة للمسببات هي من قدر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا ما أشار إليه في هذا الحديث، فالدواء والرقية أسباب، لا تأثير لها إلا بقدر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فمبدؤها ومنهاها من الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى.

إذن يا عبد الله لا تتعلق بالأسباب، ولكن تعلق بِمُسَبب الأسباب، وليس معنى ذلك ألَّا تفعلَ السَّبب، لا؛ بل احرص على فِعلِ الأسباب، فالمحظور هو التَّعلق بهذه الأسباب، والالتفات بالقلب إلى الأسباب، وكما ذكرنا أنَّ الالتفات إلى الأسباب عملٌ قلبيٌ، وهو من أعمال القلوب.

---

[٦٥] مجموع الفتاوى " (٨ / ١٦٩)

ومقام التوكل هو أن يفعل السبب، وأن ينظر إلى السبب وألا يعدو أن يكون سببًا، والأمور بيد الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى.

{قال -رحمه الله: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ مُسْلِم)}.

- هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، وهو مِن جَوَامِع كلم النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقد أوتي النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جوامع الكلم، واختُصِرَ له الكلام اختصارًا، فكان النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتكلم بالألفاظ المعدودة التي تتضمَّن مَعانٍ كثيرة، ومنها ما يضربها أهل العلم من جوامع كلم النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا الحديث، وهذا الحديث له علاقة بالقضاء والْقَدَر من جهة أنَّ فِعلَ الأسباب في تحصيل القُوة بكافَّة أجناسها وأنواعها كالقوَّة البدنيَّة والقوَّة المعنويَّة، هي مما يُحبه الله تعالى وَيَرضاه، ولهذا فعلى الأمة أفرادًا وجماعاتٍ أن يَسعوا في تحصيل هذه القُوة، يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ- مُخاطبًا للأمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفي هذا الحديث يقول النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». هذه هي **المسألة الأولى**.

✸ **المسألة الثانية**: النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمَّا تكلَّم عن المؤمن القوي؛ قَصَدَ القوة البدنية والقوة المعنوية، أي: -قوَّة الإيمان- هو أحب إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّها تنفع.

- ثُمَّ قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدها: «خَيْرٌ وَأَحَبُّ»؛ لأنَّه أنفع لنفسه ولمجتمعه وللمسلمين، والواجب أن يتحصل أهل الإيمان على القوة البدنية والقوة المعنوية، والقوة المعنوية تشمل أشياء كثيرة كتحصيل العلوم النَّافعة، والعلوم الشَّرعية؛ كُلُّ هذه القُوى سلاح للفرد وللمجتمع، وهذا مما يحثُّ عليه النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث، ومع هذا لما أخبر أنَّ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»، قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»، لاحظ هذه العبارة العظيمة، وفيها ملحظ عظيم؛ لأنَّ المؤمن وإن كان ضعيفًا فإنَّه لا يخلو مِن الخير، وإن كان فيه ضعف مِن جهة بدنه، أو من جهة ضعف قدراته الإيمانيَّة وما شاكل ذلك؛ لأنَّ هذا قد يقع الإنسان فيه، ففيه تسلية لكل مُؤمن، وإن ضعف بدنك فإنَّ الخير فيك ما دام الإيمان فيك، ولهذا فإنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حديث آخر شبَّه المؤمن بالنَّخلة التي لا يُعدَم منها خير، ولهذا قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ».
- وفي الحديث الآخر تسلية لأهل الإيمان لمن يحصل له نقص في بدنه أو يحصل له عجز من أي وجهٍ من أنواع العجز، قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!»[٦٦]، رواه البخاري.

[٦٦] صحيح البخاري (٢٦٩٥).

- فلاحظ شموليَّة الإسلام لكل أفراده، وليس معنى ذلك أنَّ الإنسان يتوانى، بل يحرص أن يكون من أهل الإيمان، وممن وصفهم النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالقوة في قوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**».

المسألة الثالثة: قال صلى الله عليه وسلم: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»، هذا أمرٌ بفعل الأسباب، إذن يأمرك النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن تحرص على ما ينفعك في أمور دينك ودنياك، في تحصيل منافعك في الدِّين والدُّنيا، فلا تتوانى ولا تتواكل، ومع سعيك في تحصيل ما ينفعك استعن بالله، قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**»، لأنَّ هذا شعار أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا يُمكن للإنسان أن يفعل شيئًا إلَّا وهُو يسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- الإعانة، وهذه الإعانة مُهمَّة جدًّا في كل شيء حتى في أمور الدِّين وأمور الدُّنيا، وهذه ترجع إلى مسألة التَّوفيق والخُذلان، فذاك أُعِينَ وذاكَ لَم يُعَن، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾ [التوبة: ٤٦]، لم يُعنهم.

إذن المأمور أن يستعين بالله -عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك إذا سمع الإنسان قول المؤذن: "حي على الصلاة.. حي على الفلاح" يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، أي: لا تحول من حالٍ إلى حالٍ، ولا من حال فسادٍ إلى حال صلاحٍ ولا قوة لك على طاعة إلا بالله -عَزَّ وَجَلَّ.

- فارتباط هذه الأمور بمسألة الاستعانة بالله -عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّه لا مانع لما أعطى ولا مَعطي لما منع -سُبْحَانَه وتَعَالَى- ولهذا يقول النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ**»[٦٧].

- إذن حديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكمِّل شخصية المسلم منكافَّة الجوانب، فتكون شخصيته متاملة تسعى في طلب الخير ونفع النفس ونفع المجتمع، قال: «**وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ**».

المسألة الرابعة: قال: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا**»، **ولهذا أحكام (لَوْ) تستعمل على وجهين:**

☑ **الأول:** على وجه التَّحسُّر على الماضي والعجز من المقدور: فيتحسر على ما فات، ويجزع لوقوع الْقَدَر عليه، كما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٦]، هذا من صفات أهل النِّفاق، أما أهل الإيمان فيعلمون أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقدرٍ، وأنَّ قدر الله واقع، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: "**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيُسَلِّمُ لَهَا وَيَرْضَى**"[٦٨] إذن هذا هو الوجه الأول، وهو الممنوع، وهو التَّحسُّر والجزع على المقدور، والمطلوب من العبد قبل وقوع المقدور

---

[٦٧] مسند أحمد (٢٥٦٩).
[٦٨] جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٧٧٤).

أن يحرص على ما ينفعه، أي يتقي ويفعل أسباب السَّلامة والوقاية، ومع ذلك فإذا وقع الْقَدَر ووقع القضاء فالمطلوب هو التَّسليم لله -عَزَّ وَجَلَّ.

☑ **الثَّاني:** استعمالها فيما يُستقبل، تقول على وجه التَّمنِّي: لو أنِّي أملكُ مالاً لتصدقتُ به. وهذا جاء في الحديث ولا شيءَ فيهِ، أو لبيان علمٍ نافعٍ كما حدث من النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بيان الشَّريعة لَمَّا ساق النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الهديَ قال: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ وَجَعَلْتُهَا عَمْرَةً»[٦٩]، أو كما قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قصة الخضر: «وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَبَرَ»[٧٠].

- إذن الممنوع من (لو) هو ما كان اعتراضًا على قدرِ الله أو تحسُّرًا على فواتِ شيءٍ وقعَ، أو احتجاجًا بالْقَدَر على المعصية كما قال أهل الشِّرك: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

- أمَّا مَا بَقِيَ مِن المسائل فإنَّ الأصلَ فيها أنَّه لا يُمنع، ولهذا فإنَّ البُخَاري -رحمه الله تعالى- عقدَ بابًا في صحيحه، وقال: "باب ما يجوز في الـ (لَوْ)".

إذن الأصل الممنوع ما يكون للتَّحسُّر والجزع كما ذكرنا، فلا يعترض مُعترض بقول أنَّ (لَوْ) ممنوعة على الإطلاق، بل يُمنع فيها كما جاء في الحديث ما كان على التَّحسُّر على المُضيّ، أو الجزع إذا وقع المقدور، أمَّا في غيرها فالأصل فيه الجواز.

✸ **المسألة الخامسة:** قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». ما هو عمل الشَّيطان؟

- لا شَكَّ أنَّ الشَّيطان يُوسوس، فالله وصفه بقوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤]، فَمِن وَسْوَسَته أن يُلقي الشَّيطان في القلبِ مُعارضة الْقَدَر، فيوسوس على العبد، ولا شك أنَّ في ذلك وقوع الحزَن في قلب المؤمن، والاعتراض على الْقَدَر، والذي يجب على المؤمن أنَّه إذا وقع الْقَدَر والقضاء فإنَّه يكون كما أرشده النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، وفي رواية: «قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ»[٧١]؛ لأنَّ الأمرَ أمرُهُ والحكم حُكمه، ولا يجوز الاعتراض على قدر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان.



باب ذكرِ الملائكةِ عليهم السلام والإيمان بهم.

{قال -رحمه الله: (باب ذكرِ الملائكةِ عليهم السلام والإيمان بهم.

باب ذكرِ الملائكةِ عليهم السلام والإيمان بهم وقول اللَّه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى:

[٦٩] سنن النسائ (٣٥٨١)، وأصله في البخاري.
[٧٠] صحيح البخاري (٤٧٢٧).
[٧١] سنن ابن ماجه (٧٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ - يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الآية [فاطر: ١]}.

- الإيمان بالملائكة -كما هو معلوم- مِن أركانِ الإيمانِ، وهنا المؤلف -رحمه الله تعالى- ذكر الآيات للدَّلالةِ على هذا الأصل من الإيمان بالملائكة، **وتضمَّنت هذه الآيات مسائل لابد لطالب العِلم أن يَعلمها.**

❖ **المسألة الأولى:** الإيمانُ بالملائكةِ -كما ذكرنا- ركنٌ مِن أركانِ الإيمان، وهذا الإيمان يشمل الإيمان بوجودهم، والإيمان أنهم عباد الله، بأمره يعملون ويأتمرون؛ لأنَّهم مَوجودن، وأنَّهم عباد لله -عَزَّ وَجَلَّ- وأنَّهم بأمره يَعملون.

❖ **المسألة الثانية:** الملائكة مُشتقة من "الألوكة" وهي الرِّسَالة، وهم خَلقٌ مِن خَلقِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- كما سوف يأتي في الأحاديث التَّصريح بأنهم خُلقوا مِن نُور، جعلهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- عنده في السَّماء، وكلفهم بأعمال ووظائف هم قائمون بها، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، فهم يتنزلون على أهل الأرض، ولهم وظائف كثيرة جدًّا.

- كذلك مما يَحسنُ التَّكلُّم عليه لإيراد المؤلف هذه الآيات: أنَّ الملائكة لها أجنحة، وهذه الأجنحة متعددة بحسب عطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- فخلقهم متنوع، قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الآية [فاطر: ١].

❖ **المسألة الثالثة:**: أنَّ وظائف الملائكة متعددة:

- مِنْهُم حَمَلَةَ العَرش الذين يَحمِلون العَرشَ كما ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- و مِنْهُم الملائكة المُقَرَّبون، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].
- ومِنْهُم مَن يتنزَّل بالبُشرى على أهلِ الإيمان، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، الآيات.

- **وساداتهم ثلاثة:**
  - **جبرائيل:** وقد أوكل الله تعالى له تبليغ الوحي.
  - **ميكائيل:** جعل الله له -عَزَّ وَجَلَّ- أمر القِطْر -يعني: المطر.
  - **إسرافيل:** أوكل الله له النَّفخ في الصُّور.

{قال: (عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: قال رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وثبت في بعض أحاديث المعراج أنه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم رُفِع له البيت المعمور الذي هو في السَّماء السَّابعة، وقيل: في السادسة بمنزلة الكعبة في الأرض، وهو بِحيالِ الكعبةِ حُرمته في السَّماء كحرمة الكعبة في الأرض، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها- قالت: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ قَائِمٌ، وَذَلِكَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾». رواه محمد بن نصر وابن أبي حاتم وابن جريرٍ وأبو الشَّيخ.

روى الطبراني عن جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم: «مَا فِي السَّمَاوَاتِ السَّبعِ مَوضِعُ قَدَمٍ، وَلَا شِبرٌ، وَلَا كَفٌّ إِلَّا وفيهِ ملَكٌ قائمٌ، أوَ ملَكٌ سَاجِدٌ، أو ملَكٌ راكِعٌ. فإِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ، قَالوا جَمِيعًا: مَا عبَدنَاكَ حقَّ عِبَادَتِكَ إلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيئًا»)}.

- هذه الأحاديث وما ذكره المصنف -رحمه الله تعالى من قوله: (وثبت في بعض أحاديث المعراج أنه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم رفِع له البيت المعمور)، هذا الحديث يدلُّ على أنَّ عدد الملائكة لا يُحصيهم إلا هو -سُبْحَانَه وتَعَالَى- وأنَّهم خلقٌ عظيم، وأنَّ الملائكة تحجُّ هذا البيت المعمور الذي هو بمنزلة الكعبة في الأرض، وهو كما جاء في الحديث «وهو بحِيالِ الكعبةِ من فوقِها حُرمتُه في السماءِ كحُرمةِ البيتِ في الأرض»[٧٢]، دلَّ هذا على أنَّ الملائكة تقصد هذا البيت المعمور الذي لا يعلم قدره وماهيته إلا الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى- ولكنه مقصود للملائكة.
- وقد شاهد النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إبراهيم الخليل -عليه السلام- وقد أسند ظهره إليه في ليلة المعراج، وهذا ما صحَّ في ذكر البيت المعمور، ولكن التفاصيل يُتوقَّفُ فيها وفق ما جاءت به النُّصوص، وقد دلَّ على كثرة عدد الملائكة أنه يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَكٍ ثم لا يعودون إليه، هذا دلَّ على أنَّ خلق الملائكة وعددهم عظيمٌ جدًّا، فتصوَّر أنَّهم في اليوم الواحد يدخل فيه سبعون ألفًا، فَهم خَلق من خَلقِ الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى- لا يُحصيهم إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- أمَّا حديث عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالت: «مَا فِي السَّمَاءِ...»، إلى آخر الحديث، يدلُّ على أنَّ الملائكة تقوم بعبادة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأنَّ من عبادة الملائكة السُّجود والرُّكوع والتَّسبيح؛ وِفقَ ما جاءت به النُّصوص، ففي الحديث ما يدلُّ على أنَّ من الملائكة مَلكٌ ساجدٌ أو مَلكٌ قائمٌ، وجاء في الآية: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، أي: لا يَنْقَطِعُون عَن التَّسبيح، فَدَلَّ على أنَّهم مُشتَغِلُون بعبادةِ الله -سُبْحَانَه وتَعَالَى.
- وكما تكلمنا عن الإيمان بالقضاء والْقَدَر نتكلَّم عن الإيمان بالملائكة، فالإيمان بالملائكة له أثرٌ في نفس العبدِ المؤمن، فله آثار تربوية وآثار عَقَديَّة، فجملة من هذه الآثار التي ينبغي للمؤمن وللمؤمنة أن يعلموها: شدَّة تَعظيم الرَّب، وأنَّ هذا الخلق العظيم الذي يخضع لله -عَزَّ وَجَلَّ- يبعثك على أن تُعَظِّم مَن يستحق

[٧٢] صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١: ٨٥٩).

التَّعظيم -سُبْحَانَه وتَعَالَى- ولذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فما قدَرَ النَّاسُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- حقَّ قَدْرِه، ومَا عَظَّموه حقَّ تعظيمه -سُبْحَانَه وتَعَالَى.

- فإذا كانت الملائكة تخافه وَهُم خَلقٌ مِن خَلقه مُشتغلون بعبادته؛ فالعبدُ المؤمن هو أولى بالخشية، وإذا كانوا قد عَصَمَهُم الله -عَزَّ وَجَلَّ- مِنَ الوُقوعِ في مَعصيةِ الرَّب -سُبْحَانَه وتَعَالَى- وَهُم مَلائكة لأنهم ﴿شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهم قائمون بعبادة الله -عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان يوم القيامة يقولون: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»؛ فهذا يبعثك على تَعظيم الرَّبِّ -سُبْحَانَه وتَعَالَى.
- كذلك أن تحب الملائكة؛ لأنَّ الملائكة خلقٌ محبوب، يُحبهم أهلُ الإيمان؛ لأنَّ هذه المخلوقات مُشتغلة بعبادة الله -عَزَّ وَجَلَّ- ومُشتغلة بتسبيحه، ولهذا فإنَّ مِمَّا يبعثك على محبَّة هذا الخلق من خلق الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّها خيِّرة ونافعة، وهي مُؤتمرة بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهي تدعو لأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فالملائكة تدعو للتَّائبين، وفي هذا تحريض لأهل الإيمان على المبادرة والمسارعة إلى التَّوبة، قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، نسأل الله أن يوفقنا للتوبة النَّصوح قبل الممات.
- كذلك من آثار الإيمان بالملائكة -كما هو مَذكور في ثنايا أحاديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من ذِكْرِ الملائكة: أنَّ هناك الملائكةَ الكَتَبَة، وأنهم يكتبون ما يتلفظ به العبد، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وهذا يبعثك على التَّحفُّظ والتَّوقِّي، والحرص على ألَّا تكتب الملائكة عنكَ إلا كلَّ خيرٍ؛ لأنَّك مَسؤول ومؤاخذ بما يتفوَّه به لسانك، وسائلك الله -عَزَّ وَجَلَّ- عمَّا تتلفَّظ به وعمَّا تكتبه من خيرٍ أو شرٍّ؛ فأعدَّ للسؤال -يا عبد الله ويا أمة الله- جوابًا!

◆ **واعلم أنَّك محفوظ عليك كل شيء، والملائكة الحَفَظَة تحفظ عليك ما تقوله وما تكتبه، فاحرص على ألَّا يُكتَبَ عليكَ إلا كل خير.**

- كذلك من آثار الإيمان بالملائكة -وهو متعلق بهذا الإيمان: أن تعلم أنَّ مِن ملائكةِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ما هو مُوكَّل بقبضِ الأرواح، وهو ملك الموت، قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، وهذا يبعثك على الاستعداد إلى الآخرة؛ لأنَّك تعلم أنَّك ستعاين هذا الملك، وملك الموت معه أعوان، فتقبضكَ الملائكة، فتُقبَض هذه الروح وتنفصل عن ذاك الجسد، وأنت بعد ذلك مُرتهنٌ بعملكَ، ومُحاسبٌ عليه، وهذا مِنَ الآثارِ العظيمةِ للإيمانِ بالملائكة، وهي من أركان الإيمان -كما ذكرنا.
- إذن ما يُخبر الله تعالى به من أمور الآخرة ومن أصول الإيمان له آثارٌ في نفسِ العبدِ المُؤمن، وهذه مَيزة المؤمن عَن غيره، فالمؤمن يُؤمن بالغيب، ومِن الغيبِ الإيمان بالملائكة، ولهذا فالمؤمن لا يَرى الملائكة، ولكن يرجو آثار اصطحاب الملائكة، فالمساجد تعمرها الملائكة، والملائكة تتأذى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدام، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، والعبد إذا قام يُصلي في مُصلاه لا يَزال يُصلي عليه الملك ما لم يُحدِث.

- أحاديث كثيرة جدًّا تعرف منها أنَّ الملائكة مُصاحبة لك ولا تنفك عنك، وهي مُصاحبة لأهل الخير، فتحرص على الأماكن التي تأوي إليها الملائكة، وتبتعد عن الأماكن التي لا تعمرها الملائكة وتبتعد عنها، فهذه آثار عظيمة، وهذا هو الأثر التربوي والعقدي.
- إذن العقيدة الإسلامية تُحول الإنسان من حال الفساد إلى حال الصَّلاح، وبه تؤمَن السُّبل، ويأمن النَّاس بعضهم بعضًا، ويُطفئ الله -عَزَّ وَجَلَّ- آثار الشُّرور بهذه الأصول الإيمانيَّة، لكن الإيمان ليس شيئًا نظريًّا فقط؛ وإنما هو شيءٌ عمليٌّ له آثار.
- ولهذا جاءت أحاديث كثيرة جدًّا عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مثل هذه الأمور، ما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بوعده من الإيمان بالغيبيات وما يتعلق بها؛ يكون الإنسان على ذُكرٍ منها وفهمٍ، ويُربّي أبناءه على ذلك، يُربَّى الطفل وهو صغير على أنَّه ثَمَّ ملائكة تكتبُ الخير وتكتب الحسنات وتكتب السيئات، فيتربى المؤمن على أن يكون متحقِّظًا فيما يقول وفيما يعمل، ويتحفَّظ مِن ظُلمِ المخلوقين، وَمِن ظُلم العِباد، وَمِن أذية النَّاس؛ لأنَّه يعرف أنَّه ثَمَّ سؤال ومنه الجواب، وثَمَّ يوم سيُحاسب الإنسان فيه على كل شيء، وعند ذلك لن يستطيع أن يُنكر، ولهذا فيوم القيامة تشهد الملائكة عليه بما قال، وتُفتح له السِّجلات العظيمة، جاء في حديث البطاقة: «فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ»[٧٣]، كل كلمة قالها، مَن الذي كتَبَ ذلك؟ هم الملائكة، قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار ١٠-١٢]، وسيؤاخذ بما قال، لن يُغادر الكتاب شيئًا، سيجد أمامه، فإذا تربى المؤمنُ على ذلك أثَّرَ فيه، ويسَّر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه الآثار أن تكون نفسه خيّرة كما هي أنفُس الملائكة، نفس معطاءة للخير، وبالإحسان لأهل الإسلام، وان يؤمَن جانب ذلك من أذيَّة الخلق، فيخرج من هذه النيان وهو سالم ويرجو رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهذه الدُّنيا إنما هي أيَّام وليالٍ وستنقضي، والعمر سيذهب كما يذهب كل شيء، وعند ذلك يوفَّى المؤمن ما عمله من خيرٍ أو شر.
- ولهذا أقول دائمًا: لابد مِن الأثر التربوي لهذه الأصول، فكما ذكرتُ أنه لابد من تعليم النَّاس هذه الآثار حتى يتأثروا بهذه النُّصوص؛ لأنَّ العقيدةَ علم وأثر، تؤثر في الإنسان وتغيّر في طباعه إلى الصَّلاح وإلى الخير، وإلى نفع النَّاس، وهذا من آثار الإيمان بالملائكة.
- الله هو الغني -سُبْحَانَه وتَعَالَى- وله مَن يعبده، ولكنه إنَّما أمرنا بعبادته -سُبْحَانَه وتَعَالَى- رحمةً بنا وإحسانًا لنا، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، هو غني -سُبْحَانَه وتَعَالَى، قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ومع ذلك فهو يفرح بتوبة التَّائبين، ويفرح بتقرب المتقربين له -سُبْحَانَه وتَعَالَى- فتعالى الله -عَزَّ وَجَلَّ- في عظمته، وهو والمنعم -سُبْحَانَه وتَعَالَى- ولكن التقصير والنسيان والجهل هو من ذاك العبد، والنَّفس أمارة بالسُّوء، والنَّفس مجبولة على العجز، ولهذا كان النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من وصاياه البليغة لمعاذ بن جبل، أن

---

[٧٣] أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤).

قال له: «**يا مُعاذُ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّكَ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّك، فقالَ: أوصيكَ يا معاذُ لا تدَعنَّ في دُبُرَ كلِّ صلاةٍ تقولُ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ**»[74]، فإنَّه لا عون لك إلا مِنَ الله -عَزَّ وَجَلَّ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

[74] صحيح أبي داود للألباني (١٥٢٢).





الدرس التاسع



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



أحاديثُ وصفِ الملائكة.

{قال المؤلِّف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وعن جابرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ». رواه أبو داود والبيهقي في "الأسماءِ والصِّفاتِ" والضِّياء في "المختارة")}.

- وهذا حديثُ جابر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي رواه أبو داود والبيهقي في "الأسماء والصِّفات"، والضِّياء المقدسي في "المختارة"؛ حديثٌ قد صحَّحهُ جمعٌ مِن أهلِ العلمِ، ويتضمَّن هذا الحديث وصفًا لأحدِ حمَلةِ العرشِ، ولهذا قال النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِنَ لِي»، فدلَّ على أنَّ ثَمَّ إذنٌ مِنَ الله -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- للحديث -يعني: للخَبَرِ- عن هذا المَلَك مِن ملائكة الرَّحمن، وهو مِن حملةِ العَرشِ، والنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصفَ عِظَمَ خَلقِ هذا المَلَك مِن حملةِ العرش فقال: إنَّ ما بينَ شحمةَ أذنِهِ إلى عاتِقِهِ مَسيرة سبعمائة عام، وهذا الحديث -كما ذكرنا- صحَّحه جمعٌ من الأئمَّة، كالذَّهبي وابن كثير وابن حجر والألباني من المتأخِّرين.
- ولو تأمَّلنا هذا النَّصَّ عن النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لوجدنا أنَّ هذا يدلُّ على عِظَمِ خلقِ الملائكةِ، ونعودُ ونؤكِّدُ على ما ذكرناه سابقًا من أنَّ النُّصوصَ تأتي بما تُحار به العقولُ لا بما تحيله العقول، وهذا يدلُّ على أنَّ خَلقَ الملائكةِ عظيمٌ، والله -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- هو خالقُ هذا الكون وخالُق ما فيه مِن مخلوقاتٍ

عظيمةٍ، وممّا نرى مِن خَلقِ الله -عزَّ وجلَّ- هذه الكواكب والمجرَّات والنُّجوم، فالله -عز وجل- هو -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- أعلمُ بخلقِهِ كيفَ يُصوِّرهم، وكيف يكون.

{قال -رحمه الله: (فمِن سَادتِهم جَبرائيل عليه السَّلام، وقد وَصَفَه اللَّه تعالى بالأمَانةِ وحُسنِ الخَلق والقوَّة، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾. ومِن شدَّة قوَّتِهِ أنَّه رَفَعَ مَدائن قوم لُوطٍ عليه السلام -وكنَّ سبعًا- بمَن فيهنَّ مِنَ الأمَمِ وكانوا قريبًا من أربعمائة ألف، ومَا مَعهم مِن الدوابِّ والحيواناتِ، وما لِتلكَ المدائنِ مِن الأراضي والعِمَارات؛ على طَرَفِ جَنَاحِه، حتّى بلغ بِهِنَّ عنانَ السَّماء، حتى سَمِعَت الملائكة نباح كلابِهم وصِياحَ دِيكتِهم، ثمّ قَلَبَها فَجعَل عَالِيها سَافِلَها. فهذا هو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾.
وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو خَلقٍ حَسنٍ وبهاءٍ وسناءٍ وقوةٍ شديدةٍ. قال معناها ابن عباس - رضي اللَّه عنهما- وقال غيره: ذو مرة، أي: ذو قوة)}.

- الإمامُ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- يُبيِّنُ أنَّ مِن ساداتِ الملائكة وأعظمهم ومقدَّمهم: جِبريل -عليه السلام.
- وَمَرَّ معنا أنَّه هو الرُّوح في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، ولهذا ذَكَرَ الشَّيخ أنَّ قَوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، دلَّ على أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهَبَ له القوَّة العظيمة.
  ثُمَّ ذكرَ الشَّيخُ الأثرَ عن مجاهد الذي أخرجَه الطَّبريُّ عنه في تفسيره، وفيه أنَّ هذا المَلَك -وهو جبريل- الذي أُمِرَ أن يَرفع مَدائنَ قومِ لوطٍ، فرفعها حتى بَلَغَ بها عنان السَّماء، ثُمَّ جَعَلَ عَالِيها سَافلها، وهم مِن القَومِ الذين عذَّبهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا دليلٌ على قوَّة هذا المَلَك، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يَهَبُ القوة لملائكتِهِ وِفقَ حكمته -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.
- ولهذا قال الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- إنَّ قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ يعني: ذو خلق حسن، ولهذا جاءَ في بعض الرِّوايات -كما سيذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى- وصف هذا المَلَك، فقد رآه النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في صورته، كمَا سَيأتي مِنَ الآثارِ والأحاديث التي ساقها المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- لبيان عِظَمِ خَلقِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهذه الملائكة التي أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وقال غيره: ذو مرة، أي: ذو قوة)}.

- قوله ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. قيل: ذو خلقٍ حسنٍ. وقيل: ذو قوَّةٍ؛ فهو توكيد لهذه القوَّة، وهذا قول للسلف.

{(وقال تعالى في صفته: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ - مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: له قوّةٌ وبأسٌ شديدٌ، وله مَكَانَةٌ ومنْزلةٌ عَاليةٌ رَفيعةٌ عَندَ ذي العرش ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: مُطاع في الملأِ الأعَلى ﴿أَمِينٍ﴾ ذي أمانة عظيمة، ولهذا كان هو السَّفير بينَ اللَّه وبين رُسلِه. وقد كَان يَأتي إلى رسول اللَّه - صَلَّى اللَّه عليهِ وسَلَّم- في صِفاتٍ متعدِّدة، وقد رَآهُ على صِفتِهِ التي خَلَقَه اللَّه عليها مرتين وَلَه ستمائة جناح. روى ذلك البخاري عن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه)}.

- جبريل -عليه السَّلام- هو الواسطة بين الله -عَزَّ وَجَلَّ- ورُسُلِه في تبليغ الوحي، ولهذا وَصَفَه الله تَعَالى بأنَّه الأمين، فهو الواسطة، وكان يَأتي النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على أنحاءٍ مُتعدِّدةٍ، وهذا الذي سيذكره

المؤلّف، وربَّما لم يذكره؛ لأنَّه كان يأتي في صُورة دِحيَةَ الكلبيّ[٧٥]، وكان دحية مشهورًا بحسنِ الخَلقِ، فكانَ نَظِرًا وحَسِنَ الخَلقِ، فكانَ يأتي جبريل في صورتِه، ومرةً جاء إلى النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على هيئةِ رجلٍ مُسافرٍ كما في حديث عُمر بن الخطَّاب الذي فيه بيان الإيمان والإسلام والإحسان، وهو الحديث المشهور بحديث جبريل، وهو من رواية عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٧٦].

- هذه ليست الصِّفات التي خَلقَه الله -سبحانه وتعالى- عليها، ولكن مِن تمكين الله -عَزَّ وَجَلَّ- ومِن مواهبِ اللهِ لملائكتِه أنَّ لهم القُدرة على التَّشكُّل، فهم أجسامٌ نورانيَّة أعَطاهم الله هذه القُدرة العَظِيمَة على التَّشكُّل.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وقد كَانَ يَأتي إِلى رَسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليهِ وسَلَّم- في صفاتٍ مُتعدِّدة، وقد رَآه عَلَى صِفتِه التي خَلَقَه اللَّهُ عَليها مَرتين ولَه سِتمائة جناح. روى ذلك البخاري عن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه)}.

- رآه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما جاء وكما سيسوق المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تعالى؛ أنه رآه بين السَّماءِ والأرضِ وقد سدَّ الأفق في بعضِ الرِّوايات، وله سُتمائة جناح، فدلَّ على أنَّه خلق عظيم، ودلَّ على أنَّ الملائكةَ لها أجنحةٌ، فهي أجسامٌ نورانيَّةٌ، وهبها الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه الأجنحة بحسبِ ما يُعطيهم الله -عَزَّ وَجَلَّ، وجبريل أعطاه الله هذا العدد الهائل مِن الأجنحةِ الذي لا يَقْدرُ قَدْرَه إلا اللهُ تَعالى ومَن رَآه.

{(وروى الإمام أحمد عن عبد اللَّه قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ». إسناده قوي)}.

- هذا خبرٌ عن رؤيةِ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لجبريل، وسَبق أن قلنا: إنَّ «التَّهَاوِيلِ»، يعني: ما يَهول مِن الدُّرِّ والياقوتِ مَا الله به أعلم؛ فدلَّ على أنَّه على هيئةٍ عظيمةٍ، وعلى هيئةٍ جميلةٍ، وهذه الأجنحة سدَّت الأفقَ، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فالإنسان يرى في الكواكبِ والنُّجومِ ما لا يتصوَّره الإنسان إذا رآه في هذه الصُّور والكواكب، فتجد لها أشكالًا ويُحيط بها هالات لا يعلمها إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيراها الناس الآن عبر التلسكوبات، فالله يخلق ما يشاء -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

- والواجب الإيمان بهذه الرِّوايات التي صحَّت عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والنَّبي يُخبر وهو الصَّادق المصدوق عن هذا، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

---

[٧٥] صححه الألباني في السلسلة الصحيحة " كَانَ جَبْرَائِيلُ يَأْتِي النَّبِيَّ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ" (٣: ١٠٤).

[٧٦] صحيح مسلم (كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر) من حديث عمر بن الخطاب: قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها [ص: ٣٨] قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"

{(وعن عبد اللّه بن مسعود - رضي اللّه عنه - قال: «رَأَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». رواه مسلم)}.

- هذا الحديث كالذي قبلَه، وهو وصفٌ لجبريل أنَّه توشَّى بهذه الحُلَّة الخضراء، وهذا من علم الغيب، ولهذا ففي بعض الرِّوِيات -كما سيسوق المؤلف- «عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ»، والواجب الإيمان بهذه الآثار وهذه الأحاديث وِفقَ ما جاءت به، وكما أخبرَ به النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإن كنَّا -كما ذكرنا- لا يُمكن للإنسان من خلال الخبر أن يتصوَّر التَّصور الكامل لمثل هذا، ولكن نُؤمن بها كما جاءت، ونعرفُ أنَّ خلقَهم عظيمٌ.

{(وعن عَائشة - رَضِيَ اللَّهُ عنها - أنَّ رسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ مُهْبِطًا، قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ، مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رواه أبو الشَّيخ.
ولابن جريرٍ عن ابن عبّاسٍ - رضي اللَّه عنهما- قال: "جبرائيل عبد اللَّهِ وميكائيل عبيد اللَّه وكلّ اسمٍ فيه إيل فهو عبد اللَّه")}.

- جبريل، وجبرائيل، وجبرين، وجبرل؛ فيه ثلاثة عشر لغة، كلُّها للدَّلالة على أنَّ هذا المَلَك من ملائكة الله -عَزَّ وَجَلَّ.

{(قال: جبرائيل عبد اللَّهِ وميكائيل عبيد اللَّه وكلّ اسمٍ فيه إيل فهو عبد اللَّه)}.

- "إيل" هو اسمُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالعبرانية -أو العبرية.

{(ولَه عن علي بن الحسين مثله، وزادَ: وإسرافِيل عبد الرحمن.
وروى الطَّبراني عَن ابن عبّاسٍ - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رَسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلائِكَةِ: جِبْرِيلُ»)}.

- هذا أفضل الملائكة كما صرَّحت الأحاديث، وكما جاء في النصوص في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، جاء تفسير السَّلف أنَّه جبريل.
- وعبد الله بن سلام لما جاء إلى النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأراد أن يُسْلِم سأله عن ثلاثِ مَسائل لا يعلمهن إلا نبي:
  - ✓ مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟
  - ✓ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟
  - ✓ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟
- فأخبره النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث، فتعجَّب عبد الله بن سلام، فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ»[٧٧]، فقال عبد الله بن سلام: "ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ". فاليهود يُعادون هذا المَلَك الكريم الذي هو جبريل، ولهذا لما قال اليهود: ذاك عدونا من الملائكة أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ

---

[٧٧] صحيح البخاري (٣١٠٢).

كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة٩٧-٩٨].

؟ لماذا يُعادي اليهود جبريل؟

- قال جمعٌ مِن أهلِ العلمِ والمفسِّرين: كانت عداوتهم لجبريل لأنَّ جبريلَ ينزلُ بالعذاب، وميكائيل بالقَطر مِن السَّماء!

وهذا لعِظَمِ جَهلِهم، فإنَّه لا ينزلُ بالعذابِ إلا بأمرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

- وقيل: إنَّ عداوةَ اليَهود لجبريلِ لزَعمِهم أنَّ جبريلَ تمثَّل لرجلٍ يُريد أن يقتل بختنصَّر الذي كان خراب بيت المقدس على يديه، فحالَ بينه وبينَ قَتلِه جبريل، ولهذا فهم يُعادون جبريل -كما يزعمون!
- وقيل: إنَّ عداوةَ اليهودِ لجبريل لأنَّهم يزعمون أنَّ جبريلَ عدَلَ بنبوَّة النَّبي الخاتم وهو محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي كانَ ينتظره اليَهود، ويتوعَّدون الأوسَ والخزرجَ في طَيبة الطَّيِّبة -يثرب أو المدينة- بأنَّه سيكون فيهم النَّبي وسيظهرون على مَن حولهم، فعدلَ جبريل بالنُّبوَّة عن بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، ولهذا يُعادونه! وهذا ذكره مُقاتل في تفسيره لعداوة اليهود لجبريل -عليهم السَّلام.

وهذا مِن جَهلِهم وعَظيمِ جِنَايتهم، ولا يُستغرَب عليهم، فهم ينسِبونَ القبائحَ لله تعالى، فلا يُستغرَب عليهم أن يُعادون أولياءَ الله ورسله، فكما أنَّهم عادوا جبريل -عليه السَّلام- فقد نسبوا القبائح لله -عَزَّ وَجَلَّ- وتعالى الله عما يقولون، فقالوا: إنَّ الله فقير، وقالوا يد الله مغلولة! تعالى الله عمَّا يقولون.

وهم عادوا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد رأوا الآيات بين يديه ومع ذلك عادوه، فلا يُستغرَب منهم، لأنَّ الله ذكرَ أنَّهم هم الطَّائفة الغضَبيَّة، والمسلمُ يستعيذُ مِن مَنهجِهم ومِن طريقتهم، قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، لأنَّهم عَلِموا الحقَّ وترَكُوه -نسألُ الله السَّلامة والعافية.

- بعضَ الطَّوائف الضَّالَّة تشابه اليهود في أفعالهم وأخلاقهم، والنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[٧٨]، في الهدي الظَّاهر، وفي مُوافقتهم في أمور، وكذلك في عَقَائِدِهم، ولهذا أخلاق اليهود قد تَظهر على بعضِ النَّاس -نسألُ الله السَّلامة والعافية- مِن معارضة النُّصوص، ومعارضة الحقّ والافتراء والحَسَد؛ فكلُّ هذه أخلاق مَذمومة قد يقعُ فيها آحادِ الأمَّة.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وعن أبي عِمران الجوني أنه بلغه أنّ جبرائيل أتى النبي صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم وهو يبكي، فقال له رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم: «ما يبكيك؟».

قال: "وما لي لا أبكي فواللَّه ما جفت لي عين منذ خلق اللَّه النَّار، مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها". رواه الإمام أحمد في "الزّهد")}.

[٧٨] صحيح البخاري (٦٨٠٢).

- الأئمَّة -رحمهم الله- قد يتجوَّزون في ذكرِ بعضِ الأحاديث في كتابِ الزُّهد، ومنهم الإمام أحمد، فإنَّه يسوق ما في الباب للدَّلالة على أصلٍ، وهذا الأثرِ عن أبي عمران الجوني مرسل، لأنَّه فيه "بلغني" فالانقاطع واضحٌ فيه، فلا يصحُّ، وبعض المعاصرين حكم عليه بالوضع كالألباني.
  - ✓ وأمَّا عدم صحَّته من جهة السَّند: فهو مُرسل مُنقطع، كما هو ظاهر في إسناده.
  - ✓ ومن جهة المتن: فإنَّ في مَتنه نكارة، من جهةِ أنَّ الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- جبَلَ الملائكةَ على طاعتِهِ وعدمِ عصيانِهِ، وليسوا هم موضع تكليفٍ.

{(وللبخاري عن ابن عباس - رضي اللَّه تعالى عنهما - قال: قال رسول اللَّه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لجبرائيل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلتْ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية [مريم: ١٦٤])}.

- هذا دليلٌ على أنَّهم يأتمرونَ بأمرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- فلا يحصلُ منهم التَّنزُّلُ، ولهذا فالنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تشوَّقَ لزيارةِ جبريل -عليه السَّلام- ولا شكَّ أنَّ زيارته فيها أنسٌ للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وخيرٌ، لأنَّه يأتي بالوحي، والوحيُ كلُّه خير لهذه الأمَّة، فأخبرَ جبرائيل النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه لا يتحرَّك ولا يتنزَّل ولا يفعل إلا بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومِن سَادَاتهم مِيكائيل -عليه السَّلام- وهو مُوكَّلٌ بِالْقطْرِ والنباتِ)}.

- قوله: (ومِن سَاداتهم ميكائيل)، سبقَ أنَّه موكَّلٌ بالقَطرِ والنَّبات وبحياةِ الحيوانِ، ولهذا قال المصنف (عليه السَّلام)، والسلام على الملائكة مشروع، وفي قوله في دعاء التَّحيَّات «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ»[٧٩]، يشملُ ويعمُّ كلَّ عبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ، ومنهم الملائكة، فالتَّسليم عليهم مَشروع، وليسَ في ذلك شَيء.

{قال: (وروى الإمام أحمد عن أنسٍ - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليهِ وسَلَّم قال لجبرائِيل: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»)}.

- ما أخبر النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حق إذا صحَّ الحديث، ويجري هذا مثلما جرى أنَّ جبرائيل متوشِّ بحلَّة خضراء أو ما شابه ذلك، لأنها -كما قلنا- أجسامٌ نورانيَّة لا يعلم عظم خلقها ولا قدرها إلا الله - سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ساداتهم إسرافيل عليه السلام، وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور)}.

- هؤلاء هم سَادة الملائكة: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل.
  - ➢ **أمَّا جبرائيل:** فقد تقدَّم أنَّه مُوكَّل بالوحي.
  - ➢ **وأمَّا ميكائيل:** فمُوكَّل بالقطر -يعني بالمطر- والنبات.

---

[٧٩] صحيح البخاري (٧٩١).

فدلَّ على أنَّه لا تكون حركةٌ في هذا العالم علويه وسفليه إلا بأمرِ الله وتدبيرِ الملائكة، فهي ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

- وأمَّا إسرافيل: فهو أحدُ حَمَلةِ العرشِ، والعرشُ محمولٌ بالملائكةِ، وإسرافيل هو الذي ينفخُ في الصُّور فيقعُ فيه الصَّعقة التي يحصلُ بها الموت، ثم بعدَ ذلك ينفخ في الصُّور... إلى غير ذلك ما جاءت به النُّصوص.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (روى التِّرمذي -وحسنه- والحاكم عن أبي سعيد الخدْرِيّ - رضي اللَّه تعالى عنه - قال: قال رسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ؟ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى السَّمْعَ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ. قالوا: فما نقول يا رسول اللَّه؟ فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»)}.

- هذا الحديث بين فيه أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ»، يعني: كيف يحصلُ لي التَّنعُّم في هذه الدُّنيا ونهايتها قريبة، وصاحبُ القَرن الذي سينفخ في الصُّور «قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى السَّمْعَ»، وهذا كما ذكرنا- أنَّه وصفَ لهؤلاء الملائكة، ولهذا لا مقايسةً بين هذه المسمَّيات وبينَ الخلقِ، لأنَّ هيئتها على غيرِ هيئةِ خلقِ الإنسانِ، لا مُقايسةً وإن اتفقوا في الأسماء، فإنَّ الحقائقَ تختلفُ تمامًا، فهم عالمٌ غيبيٌّ، ولهذه فإنَّ هذه الملائكة -كما ذكرنا- أجسامٌ نورانيَّةٌ، خلقها الله -عَزَّ وَجَلَّ- من نور، والله حجبهم عنَّا كما حَجَبَ الجنَّ، فعالم الجنّ هو عالمٌ غيبيٌّ لا نعلم عنه إلا ما أعلمنا الله -عَزَّ وَجَلَّ- مع أنَّهم يعيشون معنا في مكان واحد، ومَع ذلك لا نراهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

- وهنا ملحظٌ مهم جدًّا في مسألة الغيبيَّات: أنَّه ليس كلُّ ما لا يُرى ليسَ له حقيقة، إنما يقول ذلك الملاحدةُ من السُّوفسطائيين وغيرهم مِن الذين لا يؤمنونَ إلا بالحسيَّات، فهناك طائفةٌ مِن الفلاسفة يقولون: لا نؤمن إلا بشيءٍ محسوسٍ!

وكلامهم هذا باطلٌ عقلًا وشرعًا.

ولهذا نقرّب للنَّاس ونقول: أحيانًا الإنسان يقولُ كيف لا أرى الجنَّ أو الملائكة، والنُّصوص تخبرنا أن الملائكة على هذا النَّحو!

- فنقول: سبحان الله! هل كلُّ ما لا يُرى ليس له حقيقة! الآن العلم الحديث أثبت أنَّ هناك مخلوقات عظيمة ومع ذلك لا نراها، نحن نقطع أنَّها موجودة، ولهذا لمَّا توصَّل العلم الحديث لاكتشافات مثل: المجهر والتِّلسكوب والميكروسكوب وما شاكلَ ذلك مِن الآلات التي تُقرّب الصورة التي على نحوٍ صغيرٍ وتكبِّرها تكبيرًا عظيمًا؛ رأينا مخلوقاتٍ لم نَرها، نحن لا نراها بأعيننا، فهل معنى ذلك أنها غير موجودة؟!

- هي موجودة، كالفيروسات، والجراثيم، والبكتيريا؛ بل أعظم من ذلك أنَّ فيه حشرات الآن لا تُرى بالعينِ المجردةِ، منها حشرة العثِّ، لو رأيتَها في صُورتها التي تُكبَّر تعجَّب أنَّها موجودة في الغُبار مثلًا، خلق عظيم جدًّا ومع ذلك لا تراه، وهذا مِن رحمةِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالخلقِ؛ لأنَّهم رأوا كلَّ هذه المخلوقات لا يمكن أن يتنعَّمون في حياتِهم، ولهذا فإنَّ الله حَجَبَ عنهم شيئًا مِن المرئياتِ موجودة الآن، وحَجَبَ عنهم شيئًا مِن

المسموعاتِ رحمةً بهم، حتى تكونَ هذه الدَّار دار معيشة، وإلا لو أراهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه المخلوقات لربَّما لا يحصل لهم قوامُ العيشِ.

- إذن ليسَّ كل ما لا تراه أنَّه ليسَ له حقيقة، فالعلم الحديث -يا مَن يؤمن بالعلم الحديث- أثبتَ هذا، وهذا يزيدكَ إيمانًا، ويزيدكَ يقينًا بما أخبرَ الصَّادق المصدوق -عليه الصَّلاة والسَّلام- ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فنحن حينما نَرَى هذا الخلقَ العظيم فهذا يبعثنا على التَّعظيمِ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ.

إذن ثَمَّ شيء من المسموعات لا نسمعه، وثَمَّ شيء مِن المرئيات لا نَراه، ولو أرانا الله -عَزَّ وَجَلَّ- كلَّ شيءٍ مِن خلقه ولو أسمَعَنا كلَّ شَيءٍ لَمَا حصلَت معيشة في هذه الدُّنيا، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- حكيم عليم -تقدَّسَ في ملكوته.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وعن ابن عباس - رضي اللَّه تعالى عنهما - أن رسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا» رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في "الحِلية")}.

- هذا الحديث فيه كلام، ومِن الأئمَّة مَن أعلَّه كالدارقطني، والظَّاهر من الحديث الضَّعف.

{قال: (وروى أبو الشّيخ عن الأوزاعي قال: ليس أحدٌ مِن خَلقِ اللَّه أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذَ في التَّسبيحِ قَطعَ على أهلِ سَبعِ سماواتٍ صَلاتهم وتَسبِيحَهُم.

ومِن سَاداتِهم مَلكُ الموتِ -عليه السلام:

ولم يجئ مصرحًا باسمِه في القرآنِ ولا في الأحاديثِ الصَّحِيحَة وقد جاءَ في بَعضِ الآثَارِ تسميته بعزْرائيل فاللَّه أعلم)}.

- الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أحسن في هذا، وتوقَّف في نِسبة هذا الاسم له، والظَّاهر أنَّ اسم "عزرائيل" لا يصح، إنما هو في رواياتٍ لآثارٍ إسرائيلية لا توجب أن نُؤمن بهذا الاسم، لأنَّ الله تعالى لم يسمِّه بهذا الاسم، مع تسميته لبعضِ الملائكة بأسمائِهم، فدلَّ على أنَّ اسمه الذي سمَّاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- به هو "ملك الموت"، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ما قال "عزرائيل" فالأولى والأصح أن يُسمَّى بما سمَّاه الله -عَزَّ وَجَلَّ.

- بينما جبريل -عليه السَّلام- وميكائيل وإسرافيل؛ جاءت تسميتهم.

{قال: (وقد جَاءَ في بَعضِ الآثَارِ تَسميته بعزْرائِيل فاللَّهُ أعلمُ قاله الحافظ ابن كثير. وقال: إنَّهم بالنِّسبة إلى ما هيأهم له أقسامٌ:

فمنهم حملة العرش)}.

- الآن الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ- يُبيِّن أنَّ للملائكة وظائف، وماذا يقومون به.

{قال: (فمنهم حملة العرش، ومنهم الكروبيّون الذين هم حول العرش وهم مع حملة العرش أشرف الملائكة وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾)}.

- هذا المسمى "الكروبيون" لا أصلَ له في السنَّة الصَّحيحة، إنَّما جاء في بعض الأحاديث الضَّعيفة، وضعفها شديدٌ، وبعضُها موضوعٌ، ولهذا فإنَّ التَّسمية أمرٌ غيبيٌّ يتوقَّف فيها على ما ثبتَ عن النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإنَّما سُمُّوا بهذا الاسم كما جاء في بعض الآثار لما يلحقهم من الكَربِ من حَملِ عرشِ الرَّحمن، ولهذا ساَق المؤلف قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهذا فيه إشارةٌ إلى توحيد العبادة، الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- له عنايةٌ شديدةٌ بتوحيدِ العبادةِ، وألَّف مصنَّفه العظيم الذي هو "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" الذي أحسنَ وأجادَ -رَحِمَهُ اللهُ- في هذا الكتاب العظيم، فهو يقول: إنَّ هؤلاء الملائكة مع أنَّهم مقرَّبون وأنَّهم قريبون مِن الله -عَزَّ وَجَلَّ- فالله بيَّن أنَّهم عباد، وأنَّهم لا يُدعَونَ مِن دونِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ودُعاءُ الملائكة ودُعاءُ الأنبياء أو الاستغاثةُ بالملائكةِ أو الاستغاثةُ بالأنبياء يُناقِضُ معنى "لا إله إلا الله"، وهو من الشِّرك الأكبر الذي لا يغفره الله -عَزَّ وَجَلَّ- لمَن مَات عليه، والذي يُحبط الله -عَزَّ وَجَلَّ- عمله لمَن وقعَ فيه -نسأل الله السَّلامة والعافيةِ من الشِّرك ومن أسبابِهِ.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومنهم سكان السماوات السبع يعْمرونها عِبادة دائمة ليلا ونهارا صباحا ومساء كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾)}.

- إذن الملائكة لا ينقطعونَ عن التَّسبيحِ، وهذا إن دلَّ فإنَّما يدلُّ على أنَّ الربَّ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- غنيٌّ عن عبادةِ خلقِهِ، فله عبادٌ مكرمونَ لا ينقطعونَ عن عبادتِهِ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- وإنَّما أمر بعبادتِهِ إحسانًا لنَا ورحمةً لنا، نسألُ الله أن يوفقنا إلى عبادته -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- على الوجه الذي يُرضيه.

{(ومنهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور)}.

- مرَّ معنا أنَّ البيتَ المعمورَ حيالَ الكعبةِ، ويَدخلُهُ كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَك لا يعودون إليه.

{(قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور سكان السماوات)}.

- هذا مِن كلام المؤلِّف الإمام محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ.

{قال: (ومِنهُم مُوكَّلون بالجِنانِ وإعدَاد الكَرامَات لأهلِهَا وتهيئة الضِّيافة لسَاكنيها: من مَلابس ومَآكِل ومَشَارِب ومَصاغٍ ومَسَاكِن وغيرِ ذلك ممَّا لا عينٌ رَأَت ولا أُذنٌ سَمعت ولا خَطَر عَلى قلبِ بَشَرٍ)}.

- يعني أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- حَجَبَ هذه الجنَّة وهي مخلوقة الآن، كما حَجَبَ النَّار وهي مخلُوقة الآن، فالجنَّة تقومُ عليها الملائكة في العِناية بها والإعداد لِضيَافةِ أهلِ الجنَّة إذا دَخلُوها، والله -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- أعدَّ هذه دارِ كرامته لمَن مَات على التَّوحيد، نسألُ الله أن يُميتنا على هذا التَّوحيد وأن يدخلنا الجنَّة بمنِّه وفَضْلِهِ والمشاهدين والمشَاهدات.

{قال: (ومنهم الموكلون بالنَّار -أعاذنا اللَّه منها- وهم الزبانية ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك)}.

- أحسنَ المؤلفُ -رَحِمَهُ اللهُ- حينما قال (الموكلون بالنَّار -أعاذنا اللَّه منها)، وهذا هو المطلوب مِن المؤمن أن يتعوَّذ عند ذكر النَّار، وهذه مِن المواقف التَّربويَّة التي يُربِّي بها المؤلف والشَّيخ، فإذا جاءت هذه المواقف أن يكونَ فيها التَّنبيه، فالمؤلف قال: (أعاذنا الله منها).

- قال: (وهم الزبانية ومقدموهم)، يعني المقدَّمون من هذه الملائكة.
- قال: (تسعة عشر)، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المدثر: ٣١]، ولهذا لَمَّا أنزل الله هذه الآية قال أحدُ الجُهَّال مِن كفَّار المشركين: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم الباقي!

هذا -والعياذ بالله- سقوط وخبث -نسأل الله السلامة والعافية.

- ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، لأنَّ عدَّة خزنة النَّار في الكتب السَّابقة -التَّوراة والإنجيل- أنَّها تِسعة عشر، فوافق ما جاء في القرآن، وهذا تَصديقٌ لما جاءَ في الكُتُبِ، وهذا دلَّ على أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله، وهذا يدلُّ على أنَّ خبرَ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- موافق لما جاء في الكتب السَّابقة، وهذا حُجَّة عَلَيهِم.
- قال الشَّيخ: (ومقدموهم)، يعني هؤلاء هم القائمون عليها، ولهذا ثَمَّ ملائكة موكَّلة بالنَّار، ولكن هؤلاء هم الرُّؤساء المقدَّمون، ولهذا في الصَّحيح: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[٨٠].

{(وخازنها مالك وهو مقدم على الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ - وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

قال ابن عباس: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء أمر اللَّه خلوا عنه)}.

- وظائفُ الملائكةِ متعدِّدةٌ جدًّا، وهذا مَا أعلمَنا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- به ومَا لا يعلمنا به لا نعلمه.

{(وقال مجاهد: ما من عبد إلّا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منها شيءٌ يأتيه يريده إلا قال له: وراءك إلّا شيءٌ يأذن اللَّه تعالى فيه فيصيبه)}.

- قوله (وراءك)، يعني: ارجع وراءك.
- إذا وقعَ القضاء وأذِنَ به اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- زالت هذه الأمور، لأنَّ الإنسان له أجلٌ محدَّدٌ الذي سينزل به.

{(ومنهم الموكّلون بحفظ أعمال العباد: كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يعلمون ما تفعلون﴾)}.

---

[٨٠] صحيح مسلم (٥٠٨٠).

- وهذا يوجبُ الحذرَ والتَّوقِّي، فإذا عَلِمَ الإنسان أنَّه مُؤاخَذٌ بما يقول ومكتوبٌ عليه وأنَّ الملائكة تكتب كلَّ شيء؛ فهذا يوجبُ على الإنسان أن يكونَ في غايَة الحذَرِ.

{(روى البزّار عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما- قال: قال رسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ الَّذِينَ مَعَكُمُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لا يُفَارِقُونَكُمْ إِلا عِنْدَ إِحْدَى ثَلاثِ حَالاتٍ: الْغَائِطِ وَالْجَنَابَةِ وَالْغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ، أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ، أَوْ بِبَعِيرِهِ»)}.

- الحديثُ ضَعْفُه شديدٌ، والأصلُ في التَّعرِّي ممَّا تكرهه الفِطَر السَّليمة، ولا يجوز التَّعرِّي إلا عندَ حالاتٍ ذَكرها أهل العلم، وهي: التَّخلِّي لقضاءِ الحاجة، والجِمَاع، والغُسل؛ وأمَّا الباقي فالأصل فيه كراهة التَّعري.

{(قال الحافظ ابن كثير: ومَعنى إكرامِهم أن يَستَحِي منهم، فلا يُملي عليهم الأعمَال القَبيحة التي يكتبونها، فإنَّ اللَّه خَلَقَهم كِرامًا في خَلْقِهِم وأخْلاَقِهِم.

ثمَّ قالَ مَا معناه: إنَّ مِن كَرَمِهِم أنَّهم لا يَدخلون بيتًا فِيهِ كلبٌ ولا صُورةٌ ولا جُنبٌ ولا تمثالٌ ولا يصحبون رفقةً مَعهم كَلبٌ أو جَرَسٌ)}.

- طبعًا زيادة قوله «الجُنُب» فيها نظر، وأما كون الملائكة لا تدخل بيت فيه كلب أو صورة، وفي بعض الرِّوايات «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ تَمَاثِيلُ أَوْ تَصَاوِيرُ»، هذا يجعل المؤمن على غايةِ الحذرِ مِن اقتناءِ مِثلِ هذه التَّماثيل أو التَّصاوير، وفتنةُ التَّصاوير الآن عظُمَت، فإذا عَلِمَ الإنسانُ أنَّ الملائكةَ تجتنب مثلَ هذه الأماكن فعليه أن يتوقَّى، ولهذا لَمَّا سُئل الشَّيخ ابن باز عن رواية «الجُنُب»، قال: "فيها نظر" وإن كانت مِن رواية أبي داود، لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يبيت وهو جُنب وكان يتوضأً، وبينه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو أفضل البيوت.

- وقوله «كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ»، أما الكلب فواضح.

وأما الجرس: لأنَّ له صوتٌ مع مَشي الدَّوابِّ فلَه حكم المعازف.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وروى مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه -صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم- قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ، كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

وفي رواية أن أبا هريرة قال: اِقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾)}.

- هذا فيه البُشري للمحافظين على صلاةِ الفَجرِ والعَصر.

{قال: (وروى الإمام أحمد ومسلم حديث: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتَعَاطَوْنَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»)}.

- «السَّكِينَةُ»: هي الطُّمَأنينة.

- «غَشِيَتْهُمُ»، أي: غطَّتهم الرَّحمة.
- «حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ»، بأجنحتها، إمَّا لأنَّها تحبُّ هذه المجالس، أو لمحبَّتها لأولئك الذين يتعلَّمون العلم.

؟ هل الحفُّ هنا حقيقي أم مجازي؟.

- الأصلُ في اللفظ أنَّه على الحقيقة وليسَ على المجازِ.

وفي الحديث: بركات مجالس الذِّكر.

- وفي بعض الرِّوايات: «أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ فِيهِمْ فُلانٌ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[٨١].

{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وفي المسند والسنن حديث: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ»)}.

- وهذا فيه: البُشرى أنَّ الملائكة تُحب العمل الطيب، ومنه طلبُ العلمِ والاستماعِ للعلم، وبحمدِ الله الآن تيسَّر سماعَ البرامجِ النَّافعةِ، وسماعَ القرآنِ، وسماعَ أحاديثِ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فالملائكة إذا سمعت المؤمن والمؤمنة على هذا النَّحو تضع لهم أجنحتها محبَّةً لما يصنع.

{قال: (والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جدا)}.

- نعم، فالمصنَّفات في هذا كثيرة، والعلماء -رحمهم الله- في المسانيد وثَمَّ مصنفات أخرى، فالسُّيوطي له مصنَّفٌ وغيره مِن المتأخرينَ حتى الشَّيخ عمر الأشقر له مصنف جميل في الإيمان بالملائكة، جمع فيه أحاديث، فالحمد لله.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



---

[٨١] شعب البيهقي (٥١٠)، صحيح ابن حبان (٨٥٦).





الدرس العاشر



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



باب الوصيَّة بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى: (باب الوصية بكتاب اللَّه-عَزَّ وَجَلَّ.

وقول اللَّه تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

عن زيد بن أرقم -رضي اللَّه عنه- أنَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي»، وفي لفظٍ: «كِتَابُ اللَّهِ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ». رواه مسلم.

وله في حديثِ جابرٍ الطَّويل أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال في خطبة يوم عرفة: «وَقَدْتَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»)].

- إنَّ المؤلف -رحمه الله تعالى- عقدَ هذا الباب لبيانِ أنَّ الله -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- أوصَى أهلَ الإيمانِ بالتَّمسُّكِ بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- والاعتصامِ به؛ لأنَّ الاعتصامَ بالقرآنِ سبيلُ النَّجاة من الفتن، وسبيلُ النَّجاة من

عذاب النَّار، ولهذا فإنَّ المؤلف -رحمه الله تعالى- صدَّرَ هذا الباب بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

- فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يأمر أهل الإيمان في هذه الآية بأن يتَّبعوا القرآن وما جاء فيه، فالقرآن العظيم جاءت فيه أحكام، وجاءت فيه شرائع وسُنَن، وكل ما يتعلَّق بأمور النَّاس، وأمرنا الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالاعتصام بالقرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- والقرآن العظيم هو كلام الله، ووحيه الذي أنزله على قلبِ رسوله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو كلامه -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- حرفًا ومعنًى، مِنه بدأ –يعني: من الله بدأ- وإليه يعود؛ لأنَّ من علامات السَّاعة في آخرِ الزَّمان أنَّ القرآن يُرفَع، وهو كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس بمخلوق، ومَن قال إنَّ القرآن مخلوق فقد أعظمَ على الله الفِريَة.
- والقُرآن صفةٌ من صفات الله -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- وأجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القُرآن غيرُ مخلوق، وحكى هذا الإجماع جمعٌ من أهلِ العلم من المتقدِّمين ومن غيرهم من المتأخِّرين، فهذا محل إجماع، ولا خلاف في ذلك بحمد الله؛ وإنَّما اشتُهِرَ الإمام أحمد، إمام أهل السُّنَّة والجماعة بهذا؛ لأنَّه أُمتُحِنَ في زمنِ الفِتنةِ بقول المعتزلة الذينَ زعموا أنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وأظهر الله تعالى السُّنَّة بقيام الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- بإظهار الحق، وصبرَ على ذلك حتى أظهره الله عليهم، وظهر الحقُّ بالدَّليل من كلام الله، ومن كلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولهذا فإنَّ المؤلف ذكرَ هذه الأحاديث العظيمة في وصيَّة النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذه الأمَّة بالقُرآن.
- والقُرآن هو الهدى والنُّور، وفيه البيان، قال الله تعالى في بيان أنَّ الهدى في القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالهداية إنَّما تكون بالقُرآن، لأنه ما ترك شيئًا إلَّا وبيَّنه قال الله-عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وبيَّن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ القرآن فيه حياة القلوب وفيه المواعظ، وفيه شفاء القلوب من أمراضها، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ [ص: ٢٩].
- فالقرآن من بركته العظيمة أنَّ مَن أخذَه فقد أخذَ بالخيرِ كلِّه، ومَن حفظَه فقد فازَ وأفلحَ، ومَن عملَ به نجا، وأمر الله أهلَ الإيمان بألَّا يقفوا عندَ قراءته؛ بل أمرهم بالتَّدبُّر بما في القرآن من المعاني والأحكام والمواعظ، فقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وعاتب الله أهلَ الإيمان وهم صحابة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذينَ نزلَ القرآن وهم يسمعونه؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، والقُرآن مواعظ وأحكام وقَصص، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

- فوصيَّة الله -عَزَّ وَجَلَّ- لأهلِ الإيمانِ ووصيَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأهل الإيمان بالاعتصامِ بالقرآن قراءة وتدبُّرًا وتعلُّمًا وتعليمًا، قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٨٢]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ...»[٨٣]، إلى غير ذلك من الأحاديث، ولهذا فإنَّ الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- كان يُسأل في مواضع كثيرة: ما أفضل كتابٍ يدرسه طالب العلم؛ فكان يُوصِي بالقرآن. ويقول الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- في فتاواه: "نصيحتي للجميع أن يعتنوا بالقرآن الكريم، وأن يُكثروا من تلاوته بالتَّدبُّرِ والتَّعقُّل".فهذا كلام العلماء وكلام الأئمَّة.
- إذن واجب أهل الإيمان أن يُقبِلُوا على كلام ربِّهم علمًا وتعلُّمًا؛ لأنَّ القرآن فيه كلّ الخير، فأصول الخير مذكورة في القرآن، والآدب أيضًا؛ فعلاقة المسلمين ببعضهم، وعلاقة المسلمين بغيرهم؛ كلها موجودة في هذا القرآن الكريم، ولهذا لا اجتماع للأمَّة إلَّا بالاعتصام بالقرآن، فلا يُمكن أن تجتمع الأمَّة المحمَّديَّة إلا إذا اعتصمَت بالقرآن العظيم، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في وصيَّته:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- إنَّ القرآن يأمر بلزم الجماعة، فيقول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فلا جماعة إلا بالاعتصام بالقرآنِ، طاعة ولاة الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله في المعروف -كما قرَّرَ ذلك أهل العلم- بل إنَّ القرآن فيه أصول السِّياسَة، علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة الدَّولَة المسلمَة بغيرها، فأصول هذا موجودٌ في القرآن، وأنا أذكر بعض النَّماذج، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣]، فهذا يتعلَّق بالحربِ والسِّلم والعلاقات الدَّوليَّة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، أي: ردُّوه إلى الرسول في حياته؛ لأنَّه يُمثِّل الإمامة.
- قال: ﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني: بالقرآن وبالوحي. ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].
- إذن علاقة المسلم بغيره موجودةٌ أصولها في القرآن، وواجب أهل الإيمان أن يُقبِلوا على كلام الله قراءة وتعلُّمًا وتعليمًا، ولهذا فإنَّ من فضلِ الله علينا في هذه البلاد وفي غيرها من بلاد المسلمين، ومن توفيقه للمسلمين ولحكَّام المسلمين العناية بالقرآن العظيم، وفي هذه الدَّولة المباركة -وفقها الله لكل خير وزادها الله من كل خير- أسَّست الجمعيَّات لتحفيظ القرآن وتعليمه، بل جعلت مسابقات يأتي إليها من كلِّ أنحاء العالم، يتسابقون في حفظِ القرآن وفي تلاوته، وفي تدبُّره، وفي معانيه؛ فهذا -بحمد الله- من نعمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا من الأخذ بهذه الوصيَّة العظيمة التي أوصى الله -عَزَّ وَجَلَّ- بها، والتي هي من أسباب جمع القلوب، ودفعِ الشُّرور، ولهذا فعلى أهل الإسلام جميعًا أن يُقبلوا على كلام ربِّهم قراءة وتعلُّمًا، وألَّا يهجروا

---

[٨٢] صحيح البخاري (٤٦٦٤).

[٨٣] صحيح البخاري (٦٩٩٨).

هذا القرآن العظيم، وألَّا يحولوا بينهم وبينَ قراءة القرآن شيء من المُلهيات من شبكات التَّواصل أو البرامج وما شاكل ذلك، أنَّها أخذت حيّزًا كبيرًا من حياة المسلم والمسلمة؛ بينما القرآن قد تضعف صلتهم به، **فإذا أدرتَّ أن تعرف علاقتك بربِّك ستجدها في بارزة في أمرين:**

✸ في صلاتكَ.

✸ وفي علاقتك مع القرآن العظيم.

- ولهذا فإنَّ القرآن بركة، ومن أخذه أفلح، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[٨٤]، وفي أحاديث كثيرة جدًّا يحثُّ النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على قراءة القرآن، والإنسان إمَّا أن يكون قارئًا لهذا الكلام ومتدبّرًا أو سامعًا، فمن عجزَ أو ضعُفَت همَّتُه أو قصُرَ به علمه، كأن يكون لا يُحسِن القراءة والكتابة؛ فعليه البسَّماع، والحمد لله فإنَّ المملكة العربية السعوديَّة وغيرها من الدول الإسلاميَّة لديها ثَمَّ إذاعات للقرآن الكريم ليُسمَع القرآن، فإمَّا أن تكون تاليًّا أو سامعًا أو متدبِّرًا للقرآن العظيم، أسأل الله أن ينفعنا بهذا القرآن العظيم، وأن يوفقنا إلى تلاوته على الوجه الذي يُرضيه، وأن يجعلنا ممَّنيُقيم حروفه وحدوده، ويُؤمن بمحكَمه ومتشابهه على طريقة أهل الإيمان والهُدَى.
- ولهذا فإنَّ المؤمن يسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- دائمًا أن يهديه إلى القرآن العظيم، وجاء في الحديث الكرب المشهور، وفيه: «...أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»[٨٥]، إلى غير ذلك من الأحاديث العظيمة، وسنقف على بعض الألفاظ التي وردت في حديث زيد بن أرقم المشهور، قال المؤلف: (عَنْ زيد بن أرقم -رَضِيَ اللَّهُ عَنه- أنَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم خَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأثنَى عَلَيْهِ)، وهذا في خطبة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حجَّة الوداع -كما جاء في بعض الرِّوايات، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ»، ويعني بذلك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقد كتب الله -عَزَّ وَجَلَّ- الموت على كلِّ نفس، وعادة النَّاس أنَّ الوصية تكون في آخر الحياة، وهذا الحديث من وصايا النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الأخيرة في حياته.
- قال: «وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ»، وقد بيَّنَّا أوجه الهُدى والنُّور الذي في القرآن.
- قال: «فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، والاستمساك بهذا القرآن يكون بالعمل به، والإيمان بحكمه ومتشابهه، ورد المتشابه إلى المُحكَم كما هي طريقة أهل السُّنَّة.
- قال: (فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ «وَأَهْلُ بَيْتِي»)، يعني: أوصيكم بأهل بيتي.

---

[٨٤] صحيح مسلم (١٣٤٣).

[٨٥] مسند أحمد (٤١٦٧).

- وفي لفظٍ: «كِتَابَ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ»[86]، ولا شكَّ في ذلك، فمن أعرض عن كتاب الله فإنَّ ضالٌّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وقال تعالى عن مَن اتَّبع القرآن: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.
- حديث زيد بن أرقم يُحيلنا إلى مسألةٍ مهمَّة، فقد وردَ في بعض هذه الألفاظ وصيَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأهل بيته، قال «وأَهْلِ بَيْتِي»، ولهذا نقول:

❑ **أولًا:** إنَّ الرّوايات جاءتبألفاظٍ متعدِّدَة في حديث زيد أرقم، ومِمَّا جاءت به الرِّوايات: «تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي»[87]، عن جمع من الصَّحابة، وذكر في بعض الرّويات أنَّ الثِّقل الآخر هو سُنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ففي بعض الروايات «أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، وفي بعض الروايات: «وَعِتْرَتِي»[88]، فالعترة: هم أصل الإنسان ونسبه نسله، ولهذا جاءت الوصيَّة بالعترة.
- فالخلاصة من هذا: أنَّ الرِّويات جاءت بالوصية بالكتاب، وجاءت بالكتاب والسُّنَّة «كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي»، وجاء في بعض الروايات تسمية العِترَة، والعِترَة -بكسر العين- تشمل: نساءه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ونسله، وأبناء علي، وعمومته، وسيد هذه العترة هو محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❑ **ثانيًا:** والمقصود بعِترَة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هم أهل بيته الذينَ هم على دينه، فيخرج من ذلك أبو لهبٍ، لأنَّه ليس على دين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو عمُّه، وكذلك يخرج أبو طالب من هذا الإجماع.

❑ **ثالثًا:** إنَّ رواية مسلم التي بين أيدينا فيها اختصار من الرَّاوي، وليست الرِّواية على النَّحو الذي يُفهَم منه الوصيَّة، وجعل الثَّقل الثاني هو «أهلُ بيتي»، فتمام الرواية («وأهلَ بيتي» يعني أوصيكم)؛ لأنَّ المعنى يختلف، ففي هذه الرِّواية "أهلَ" منصوبة، يعني أذكركم الله في أهل بيتي، وأوصيكم بأهل بيتي، فهذه وصية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأهل البيت.

❑ **رابعًا:** أنَّ الوصيَّة بآل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حقٌّ، وأهل بيته حقُّهم المحبَّة والإكرام والتَّوقير، وأن يُقدَّموا على غيرهم لمقامهم، والعطاء من بيت مال المسلمين وبحمد الله هذا ما يفعله أهل السُّنَّة في كل زمانٍ ومكانٍ، وما قامت عليه هذه البلاد المباركة السعودية في أطوارها الثلاث وفي عهد مؤسِّس الدَّولة السُّعودية الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- فإنَّهم يرعون ويُراعون أهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وهذا لمن ثبتت له صحَّة النَّسب، لأنَّ دعوى النَّسب لا تُقبَل من كل أحد، فكام يقول أهل العلم وعلماء الأنساب: إنَّ النَّاس مؤتمنون على أنسابهم ما لم يدَّعوا شرفًا، فإذا ادَّعى

---

[86] صحيح ابن حبان (١٢٣).
[87] الفقيه والمتفقه للخطيب (١٦٨).
[88] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١٢١٨).

شرفًا احتاج إلى بيّنة، فمن ثبت بالبيّنة الشّرعيّة أنّه من أهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلهم التّوقير والاحترام، وكما قلنا أنَّ هذه الدَّولة -بحمد الله- قامت على هذا الأصل، فهم يُراعون آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من محبَّةٍ وإكرامٍ وعطاء، وهذا معروف.

- ✓ **فالخلاصة**: أنَّ جَعْلَ أهل البيت أحد الثَّقلين جاء في رواية.
- ✓ **والصَّواب** أنَّ الثِّقل الذي أوصى به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قوله **«وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ»**، هو كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وسنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ✓ **والصَّواب في الرِّوايات** هو الوصيَّة بأهل بيت النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولهذا في سياق حجَّة النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وفي خطبة الوداع قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي»**[٨٩]، وفي بعض الروايات **«مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ»**، فالنَّص جاء على كتاب الله.

- والنَّصُّ على كتاب الله نصٌّ على سنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا معلوم، لأنَّ السُّنة مذكورة في القرآن، وطاعته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا معلوم ومشهور من أحاديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وممَّا دلَّت عليه السُّنَّة، ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدًّا.

فخلاصة ما تقدَّم: أنَّ خطبة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم- فيها الوصيَّة بكتابه، وفي بعض الرِّوايات أنَّ الثَّقلين هو التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة.

- وهذا يدلُّ عليه أشياء كثيرة جدًّا، لأنَّ أهل بيته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كغيرهم ليسوا معصومين من الخطأ، وقد وقع إجماع أهل العلم على ذلك، إجماع أنَّ الصَّحابة -رضوان الله عليهم- وآل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليس لهم العصمة، لا كما يقول بعض أهل البدع الذي يدَّعونَ مولاة آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويقعون في المخالفات الشَّرعيَّة، فأهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند أهل السُّنَّة والجماعة لهم حق الإكرام والتَّوقير، ولكن لا يعتقدون أنَّ لهم العصمة، وعلى ذلك تدل النصوص من كلام الله ومن كلام رسوله ومن كلام آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فعليٌّ له أقوال.
- وكذلك عِترَة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- العَترَة يدخل فيها نساء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكذلك يعتقد أهل السُّنَّة أنَّهم ليس لهم عصمة من الوقوع في الغلط، وليس آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من مصادر التَّشريع، فمصدرا التَّشريع هما: كتاب الله، وسنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا وقع إجماع الصَّحابة والتَّابعين وتابعي التابعين؛ بل إنَّ الروايات الثَّابتة عن آل بين النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي يشمل نساء النبي، ويشمل ذريَّة علي-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه- فكلها واضحة وبيّنة في أنَّ ليس لهم العصمة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، فهذا قد وقع عليه الإجماع.

---

[٨٩] جامع الترمذي (٣٧٤٩).

- إذن وصية النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأهل بيته أي بأهل الإيمان منهم، ولهذا فقد يقع من أهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما وقع سابقًا، وسيقع فيما بعد؛ فيع منهم الغلط، وتقع منهم المعصية، فليسوا بمعصومين من ذلك، كما أنَّ أبا طالب وقع منه الكفر، وكذلك أبو لهب؛ ولذا فقد يقع من أهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذلك.
- إذن الذين يستحقُّون الولاء منهم هم أهل الإيمان منهم، وهذا محل إجماع، فلا يُزايد مُزايدٌ على أهل السُّنَّة في ذلك؛ لأنَّهم أقرب الموافقة لوصيَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والنُّصوص يُجمَع بعضها إلى بعضٍ، والذي أذكره لكَ هو محل إجماع من كلام الصَّحابة والتَّابعين ومن تبعهم بإحسان، وقد صرَّحَ أهل السُّنَّة بذلك، ولذلك فإنَّك تجد أهل السُّنَّة في عقائدهم يذكرون الوصيَّة بأهل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا يعتقدون فيهم العصمَة كما يعتقد أهل البدع، والنُّصوص واضحة وبيِّنَة أنَّ ما دون النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد يقع منه الغلط، ولذا فأهل السنة لا يعتقدون العصمة لأبي بكرٍ، ولا لعمر، ولا لعثمان، ولا لعلي-رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ولا آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا محل عناية وفهم، وثَمَّ مؤلفات ومصنفات في حقوق آل بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموقف أهل السُّنَّة والجماعة من ذلك، و-بحمد الله- كما ذكرنا أنَّ هذه الدَّولة قامت على هذه الأصول البيِّنَة الواضحة.
- ولهذا قال: (وله في حديثِ جابرٍ الطويل أن النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال في خطبة يوم عرفة: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ»)، القرآن، نصَّ على ذلك، فمَن تمسَّكَ بالقرآن لن يحصل له الضَّلال، وهذه بشارة لأهل الإيمان، أن يتمسَّكوا بهذه الوصيَّة، وأن يُعنوا بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّه لا ضلال مع التَّمسُّك بالقرآن والإيمان به، والسُّنَّة ممَّا جاء في القرآن الكريم.
- قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟»، دلَّ على أنَّ هذه الأمَّة تُسأَل عن نبيِّها هل بلَّغَ أو لم يُبلِّغ، ولهذا ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في آخر سورة المائدة سؤال الرَّب-سُبْحَانَه وَتَعَالَى وهو أعلم- لنبيه عيسى بن مريم بمحضرٍ من أمَّة عيسى، فقال:﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٦ - ١١٧]، إلى آخر الآيات.

إذن النبي يُسأَل عن أمَّته، وتُسأَل الأمَّة عن نبيِّها هل بلَّغ؟

- إذن قوله: «وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي»، دلَّ على أنَّ هذه الأمَّة تُسأَل عن نبيِّها، وهذه الشَّهادة واقعة، وهي شهادة الأمَّة له -عليه الصلاة والسلام- بالتبليغ.
- قال: «قالوا»، أي: قال الصحابة -رضوان الله عليهم- وأحباب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذين رأوا تفاني النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الدَّعوة وفي التَّبليغ، وغاية مهجته قد بذلها في ذلك؛ قالوا: (نشهد أنك قد بلغت)، أي: نشهد أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد بلَّغَ البلاغَ المبين، وهكذا على كلِّ مؤمنٍ أن يتذكر أنَّ

النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بلَّغَ البلاغ المبين، ولهذا فقد جاء في بعض الرّوايات: «لَقَدْ تَرَكْتُكُم عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ»[٩٠]، يقول أبو الدرداء: "ما ترك لنا شيئًا إلا وأخبرنا عنه خبرًا"، اللهم صلِّ وسلِّم على النَّبي، بلَّغَ البلاغ المبين، وتركنا على البيضاء.

- ولهذا فإنَّ من عِظَم تبليغ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أنَّه يُعاتَب على حرصِهِ على البلاغ والتبليغ والهداية، فقال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فاللهم صلِّ وسلِّم على نبيّنا محمد، فكيف لا يكون منه البلاغ المبين!
- والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ضحَّى بنفسه الشَّريفة، وأُخرِجَ من مسقط رأسه ومن داره، ومن مدينته التي نشا فيها من مكة إلى المدينة -يثرب- لأجل هذا البلاغ، وبحثَ عن المُعين، فذهب إلى أهل الطَّائف، ورُمِيَ بالحجارة حتى دميت عقباه، وأُلقِيَ سَلا الجزور على ظهره -عليه الصَّلاة والسَّلام- وتحمَّلَ وصابرَ وصبرَ -عليه الصلاة والسلام- وأُذِيَ وحُوصِرَ في شِعبِ هامر ثلاث سنوات حتى أكلَ الصَّحابة ومَن معه ورقَ الشَّجرِ من الجوع، إلى غير ذلك من الأحداث التَّاريخيَّة المعلومة والمذكور في كتب السُّنَة، ثم بعد ذلك ذهب النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى المدينة لمَّا وجدَ النَّصير والمعين، ثم قاتل -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأجل هذا التَّبليغ، ولأجل حماية هذه الدَّعوة؛ فشُجَّ رأسه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكُسِرَت رباعيَّته لأجل هذا التبليغ، والرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال هذا الحديث في حجَّة الوداع، في آخر زمانه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمَّا علم أنَّه قد دنا أجله؛ فانزل الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١]، إشارة إلى أنَّ أجل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد قرُب، ولهذا قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قال الصحابة: (بلغت وأديت ونصحت)، فسُرَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بذلك.
- قال: (فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»)، إشارة إلى علوِّ الرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ- في السماء، وأنَّه جعله شهيدًا، قال: («اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)، فصلوات ربِّي وسلامه عليه، فإنَّه قد بلَّغَ البلاغ المبين، وترك الأمَّة على البيضاء، ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك، وحفظ الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذا القرآن وهذا الهدى، فمن أراد الهداية والهدى من أفرادٍ أو جماعات فعليهم أن يتمسَّكوا بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فللهم وفقنا إلى التَّدبُّر وقراءة القرآن، وتعلُّم ما فيه من العمل، والتَّمسُّك به حتى نلقى ربَّنا -سُبْحَانَه وَتَعَالَى.

{قال -رحمه الله: (وعن علي -رضي اللَّه عنه- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ». فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي

[٩٠] أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٤٢) مطولاً باختلاف يسير، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٤٨) واللفظ له

لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا:﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».رواه الترمذي وقال: غريب)}.

- هذا حديث علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مشهور معروف، ودائمًا إذا جاءت أوصاف القرآن العظيم ذكر أهل العلم هذا الحديث العظيم، والأوصاف حق ثابتةٌ في القرآن، والصَّواب من جهة السَّندِ أنَّه موقوف على عليٍّ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ولا يصح رفعه؛ لأنَّ فيه الحارث الأعور، وهو مُتكلَّمٌ فيه، ونُسِبَ إلى الضَّعفِ الشَّديد، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى: "وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وهو كلام حسنٌ صحيح"، وقد صدقَ -رحمه الله تعالى- فإنَّك إذا أردتَّ أن تجمعَ أوصاف القرآن وأن تُحدِّثَ النَّاس به لن تجد أفضل من هذا الأثر الموقوف على علي-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في إخبارهم بما في القرآن العظيم من العلوم النَّافعة وما فيه من الحكم، ولهذا قال: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكرَ أنَّ هذه الأمَّة سيقع فيها الفتن، ويقع الهرج والمرج، فأخبر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أكثر من حديث بذلك، وهذا محل اتِّفاق بين أهل العلم، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تركَ الأمَّة على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وفي بعض الرِّوايات الثَّابتة عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قام مقامًا عظيمًا من صلاة الفجر إلى أن غربت الشَّمس، ينزل من على المنبر يُصلي، قال أبو هريرة-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "فما تركَ شيئًا إلا وأخبرنا به". فأعلمُنَا بها أحفظنا لحديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- قال: "فسمَّى لنا كلَّ شيء"، وفي بعض الروايات قال: "حتى أدخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النار النار"، أي: أخبرهم بما هو كائن، وهذا من حرص النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِمَّا أخبرهم به: وقوع الفتنة في زمانهم، وفي زمن مَن جاء بعدهم، فأخبر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الفتنة ستقع في أصحابه، وهذا وقع، فما المخرج من هذه الفتن؟

- قال: «سَتَكُونُ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، مَنِ اسْتَشْرَفَ لَهَا، اسْتَشْرَفَتْهُ»[91]، وأخبر أنَّ أعظم فتنة تقع هي فتنة الدَّجال في آخر الزَّمان، وجاء في بعض الروايات أنَّ العصمة من فتنة الدَّجال يكون بحفظ سورة الكهف، أو بقراءة أول عشر آيات من سورة الكهف، فدلَّ ذلك أنَّ المخرج من الفتن هو التَّمسُّك بالقرآن العظيم.
- قيل: (مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟). قال: «كِتَابُ اللَّهِ»، فهذا الأثر سواء رُفِعَ أو كان موقوفًا على علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في معانٍ عظيمة، وهي أنَّه لا مخرج للأمَّة من الفتنة إلا بالاعتصام بالقرآن العظيم، جعلنا الله من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصَّته.
- قال: «فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ»، ولهذا لو قرأتَ القرآن تجد فيه أخبار الأمم السَّابقة، فذكر الله أشياء كثيرة عن الأمم السَّابقة كقوم عاد وقوم ثمود وقوم صالح، فهذا على مستوى الأمم، وعلى مستوى الأفراد ذكر من أمر الجبابرة والظَّلَمَة فرعون وقارون وهامان؛ إذن فيه نبأ مَن كان قبلكم.

---

[91] صحيح ابن حبان (٦٠٨٥)، صححه الأرنئوط.

- قال: «وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ»، يعني خبر ما سيكون بعدكم موجود في القرآن.
- قال: «وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ»، إذا حصل الخصام والقضاء والتَّنازع، سواء بين الأمم أفرادًا أو جماعات؛ فالذي يحكم بينهم هو القرآن العظيم، ولهذا فمن توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- للملكة العربية السعودية -زادها الله توفيقًا وَنَصَرَ الله بها الإسلام وأهله- أنَّ الدُّستور -كما يُسمَّى في الدول الأخرى- وهو النِّظام الأساسي للحكم، موجود فيه في المادة السَّابعة: أنَّ الحكم هو لكتاب الله وسنَّة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكل نظام يخالف القرآن والسُّنَّة فهو باطل؛ وهذا من توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهذه الدولة أن تعتصم بالقرآن؛ لأنَّه سبب نجاتها ونجاة غيرها من الأفراد والجماعات، وهذا من تحقيق وصيَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالاعتصام القرآن، ولهذا فالمحاكم الشَّرعيَّة تقضي بكتاب الله وسنَّة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذه نعمة ينبغي أن تُذكر فيُحمَد الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليها، ويُشكَر ولاة الأمر عليها، ونقول لهم: زادكم الله توفيقًا وهُدًى وثباتًا على هذا الدِّين؛ لأنَّ هذا الدِّين عزٌّ لهذه الدَّولة -بإذن الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- قال: «وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ»، القرآن فصلٌ، فيه مواعظ وحياة للقلوب، وشفاء لأمراض الشُّبهات التي ترد على القلب، فوساوس الشَّيطان لا يقطعها إلا القرآن العظيم.
- قال: «مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ»، هذا يعني أنَّ كلَّ شخص-سواء أفراد أو جماعات أو دول- تُقيم عقيدتها أو دولتها على غير القرآن؛ فهي إلى انتهاء، ولهذا ما يعارض القرآن إلا وهو ساقط، ولهذا عارضت القرآن أممٌ كالفُرسِ والرُّوم، وكلها زالت وسقطت، وبقيَ هذا القرآن العظيم محفوظًا في الصُّدور متلوًّا.
- قال: «وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ» فمن ابتغى الهدى من غير القرآن من زُبالةِ أفكارِ البشرِ فيما يتعلَّق بالتَّشريع وما يعلق بالأحكام والأخلاق؛ كل ذلك مصيره الضَّلال، فالهدى والفلاح للأمَّة وللأفراد والجماعات لا يكون إلا بالاهتداء بالقرآن.
- قال: «وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وهذا يُوافق قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فحبل الله هو القرآن، في تفسير جمعٍ من الصَّحابة -رضوان الله عليهم- وهو الإسلام، وغير ذلك من التَّفاسير، وهذا من اختلاف التَّنوُّعِ لا اختلافِ التَّضادِّ، وقد نصَّ جمعٌ من أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-على أنَّ حبلّ الله المتين هو القرآن، فمن تمسَّكَ به نجا، وهو الحبل الذي يوصل إلى النَّجاة ودخول الجنان.
- قال: «وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ»، وصف الله -عَزَّ وَجَلَّ- القرآن بأنَّه ذِكْر، قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

؟ وإذا سأل سائل وقال: ما أعظم الذِّكر؟

- قيل له: القرآن.

ولهذا فإنَّ ابن تيمية -رحمه الله تعالى رحمة واسعة- كان يجلس بعد الفجر يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فأشكل عليه هل الأفضل أن يتلو القرآن باعتباره ذكر؟ أو يذكر الأذكار والأوراد المشروعة؟

- قال: "فرأيتُ أنّي أُكرِّرُ الفاتحةُ، وأنَّ في قراءة الفاتحة مرَّات عديدة فيه جمعٌ بينَ قراءة القرآن والذِّكر؛ لأنَّ فيها ذكر"، وهذا من لطائف الاستدلال.
- قال: «وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، جاء في تفسير الصحابة أن الصراط المستقيم هو القرآن، فمن تمسَّكَ بالقرآن هُديَ إلى صراطٍ مستقيم،قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إذن الصراط المستقيم هو القرآن.
- قال: «هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ»، الأهواء لا تزويغ بالقرآن؛ لأنَّه واضحٌ بيّنٌ، محكمه واضحٌ، المتشابه في القرآن يُردُّ إلى المُحكَم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].
- قال: «وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ»؛ لأنَّه محفوظ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فيتميَّز كلام ربِّنا عن كلام غيره.
- قال: «وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ»، صَدَق! فالعلماء لا يشبعون من القرآن؛ لأنه لا تنقضي عجائبه، والعلماء يستدلُّون بالقرآن على كلِّ شيءٍ حتى في تعبير الرُّؤى، فتجد في القرآن إشارة لتعابير الرؤى، والاستدلالات بالنُّصوص وما شاكل ذلك.

إذن: كلَّما تلوتَ هذا القرآن وقرأت فيه وقرأت في تفسيره فإنَّك لا تشبع.

- قال: «وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ»، فكلام البشرِ إذا كُرِّرَ يَخلَق –يعني: قد لا تتقبله الأنفس- أمَّا كلام الله فلا يخلَق، تسمعه في المساجد، ويُتلَى عليك، وهذا من إعجاز القرآن، أنَّك كلَّما تسمع الآيات كلَّما تتجدَّد لك المعارف والمعاني والمواعظ، ويحصل لك السُّرور والسَّعادة ويزداد إيمانك وأنت تسمع، فمثلًا أنت تقرأ الفاتحة مرارًا ومع ذلك تجد أنَّك كلما تقرأ هذه الفاتحة كلَّما أنَّها لا تخلق عن كثرة تكرارها، وهكذا كل آيات القرآن.
- قال: «وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ»، لا تنقضي عجائب القرآن، ولهذا نقول: مَن أراد الهُدَى، مَن أراد المعارف؛ فليُقبِل على القرآن بكليَّته، وابن تيمية -رحمه الله تعالى- لما سُجِنَ في سجن القلعة وأُخذَت منه الدَّفاتر والأقلام والقراطيس؛ يقول: "فأقبلتُ على القرآن، فحصل لي شيءٌ من النَّدم أنِّي لم أجعل عمري كله في تفسير القرآن"، فالقرآن له خير وبركة، وأحكام، وتوجيهات، نسأل الله أن يرزقنا الانتفاع بالقرآن، كما قال مطرِّف بن عبد الله الشخير: "تفكرتُ في الخير فإذا الخير كثير، وتفكرتُ في جِماعه، فإذا جماعه الدُّعاء". نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يهدينا إليه.
- قال: «هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا...»، الجنُّ هم خلقٌ آخرٌ غيبيٌّ خفيٌّ عنَّا، قال تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف: ٢٧].
- قال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، تعجَّبوا من القرآن، وجملة من مسترقي السَّمع.

- قال: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، إذن القرآن يهدي إلى الرُّشد، الجنّ وهم الخلق الخفي عنَّا علموا أنَّ القرآن يهدي للرُّشد! فما بالنا نُقصِّر في القرآن العظيم ونتوانى!

وهذا الخطاب لنفسي المقصِّرة أولًا ولإخواني وأخواتي المشاهدين والمشاهدات؛ فما لنا لا نُقبِل على القرآن؟!

ليكن للإنسان ورد من القرآن قراءة وتدبُّرًا وتعلمًا؛ حتى يكون من أهل الفلاح.

- قال: «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ»، أي: كل مَن استدلَّ بالقرآن فهو صادق.
- قال: «وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ»، أُجرَ أجرًا عظيمًا.
- قال: «وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ»، أعظم العدل هو أن يُحكَم بكلام الله، وبكلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- قال: «وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، إذا أردتَّ أن تعظ النَّاس أو توجِّههم؛ فعليك بالقرآن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وذكر بعض العلماء أنَّ خطبة الجمعة إذا خلَت من الاستدلال من ذكر ولو آية؛ فلا تصح هذه الخطبة!

فوصيَّتي للدعـاة وللناس جميعًا: أن يُكثِروا من الاستدلال بكلام الله، وبكلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأنَّه أعظم الذكر، وأعظم الوعظ، وأعظم نفع للناس، وعلينا جميعًا حفظ القرآن، لأنَّه شيءٌ عظيم، ومَن لم يستطع حفظ القرآن فليحفظ شيئًا قليلًا منه.

- وكذلك آيات القرآن التي فيها المفصل العظيم، الذي من سنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه يُتلى في صلاة الفجر، فعلى الأئمَّة والذين يُصلُّونَ بالنَّاس أن يُراعوا سنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قراءة المفصَّل، ففيه المواعظ العظيمة التي تذرف لها الدُّموع وتوجل لها القلوب، فالقرآن العظيم فيه نفع للمسلمين جميعًا، أسأل الله أن ينفعنا وإيَّاكم بالقرآن العظيم، وأن جعلنا من أهل القرآن، وأن يوفقنا لتدبُّر هذا القرآن وتعلمه وتعليمه، وأن يرزقنا التَّمسُّك بهذا القرآن العظيم إلى حين الممات.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.







الدرس الحادى عشر



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{ سنبتدئ في هذه الحلقة -بإذن الله- من كتاب "أصول الإيمان" للشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- من عند حديث أبي الدرداء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مرفوعًا: قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ. فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾». رواه البزار وابن أبي حاتمٍ والطبراني}.

- هذا الحديث حديثٌ عظيم، وهو حديث أبي الدرداء، وصحَّحه جمعٌ من الأئمَّة المتقدمين، وممّن صححه الإمام الهيثمي، وله شواهد كثيرة، وإسناده بمجموع طرقه لا شكَّ أنَّه حديث صحيح.
- هذا الحديث مِن جوامع كلم النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسبق أن قلنا: إنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أوتيَ جَوامع الكَلِم، واختُصِرَ له الكلام اختصارًا، فكلام النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لو أرادَ أن يَعدَّه العادُّ لعدَّهُ، ولكنَّه مع ذلك فهو عظيم النَّفع والمعاني، وممَّا يُمثّل به أهل العلم هذا الحديث، ولهذا فإنَّ هذا الحديث قال عنه أهل العلم: إنَّه من أصول الإسلام، وهو أصل تتفرَّع عليه قواعد كثيرة جدًّا، ولهذا قال السَّمعاني -رحمه الله تعالى: "إنَّ هذا الحديث أصل كبير من أصول الدِّين وفروعه"؛ لأنَّه يتضمَّن معانٍ وأحكامًا وقواعدَ كلُّها مَردُّها إلى هذا الحديث النَّبوي الكريم، فصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ.
- ولهذا فإنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- له روايات، وهذه الرِّواية التي ذكرها المؤلف -رحمه الله تعالى- وهي رواية أبي الدرداء، وثَمَّ روايات عن بعضِ الصَّحابة على غير هذه الرواية تختلف ألفاظها.

- المقصود: هو معاني هذا الحديث العظيم.

ولهذا فإنَّ أبا الدرداء يقول: قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ».

الكتاب: يُراد به القرآن، والسُّنَّة النَّبويَّة، فيُراد بالكتاب في هذا الحديث: كتابه وكلامه ووحيه الذي هو القرآن، وسنَّة النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنَّها الوحي الثَّاني، ولأنَّ وجوبَ الطَّاعة للنَّبيِّ من دلالةِ الكتابِ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود لما ذكر النَّامصة والمتنمّصة -وهذا ورد في السُّنَّة- قال عبد الله بن مسعود وهو من أئمَّةِ الصَّحابة وعلمائِهم؛ قال: "وَمَا لِي أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ"، فهذه إشارة إلى هذا المعنى الذي ذكرته له. قال امرأة مستشكلة: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ!

- قال: "لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ أَمَا قَرَأْتِ قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]"[٩٢]، رواه البخاري.

- وفي قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ»، يعني: ما جاءَ حلالًا في القرآن، وما جاءَ حلالًا في سنَّة النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- بمعنى آخر: ما دلَّت النُّصوص على أنَّه حلالٌ فهو حلالٌ، وما حرَّمت النُّصوص فهو حرام، وهذا الحديث يُبيّن أنَّ المؤمنَ يكونُ وقَّافًا عند حدودِ الله في التَّحليل والتَّحريم، لأنَّ التَّحليل والتَّحريم ليس مِن شأنِ الخَلقِ، وإنَّما هو مِن أمرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا يقول الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، والذي أمرَ بتحكيمِ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا دلالتُه ظاهرةٌ وبيّنةٌ بحمد الله.

- قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ»، وجاء في الحديث عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه قال: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»، يعني أنَّ الشَّريعة وضَّحت ما هو حلال وما هو حرام وبيَّنته، فلا مزايدة على ذلك، ولا مكانة لأحدٍ أن يتقوَّل في الحلال والحرام، إذن ثَمَّ حلال وثَمَّ حرام، وهذا معلوم لأهل الإسلام جميعًا، ولهذا ثَمَّ من المسائل ما هو مُجمَع عليه في مسائل التحليل والتحريم، أن هذا حلال وذاك حرام.

- ولهذا قال أهل العلم في مسائل التحليل والتحريم: "إذا استحلَّ ما هو معلوم من الدين بالضَّرورةِ"؛ ورتَّبوا عليه أحكام شرعيَّة، ومنها الكفر

والاستحلال: هو أن يعتقد أنَّه حلال ويُصرِّح، كأن يعتقد أن الخمر حلال، فهذا باتِّفاق المسلمين أنَّه وقعَ في ناقضٍ من نواقض الإسلام. إذن هذا من جهة هذا التَّصوُّر واضح.

- ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»، أي واضحة النصوص.

---

[٩٢] صحيح البخاري (٤٥٣٢).

- ثم قال في الحديث الآخر: «وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ»[٩٣]، يعني ثَمَّ أمورٌ قد تشتبه عليك. والواجب هو الاجتناب، قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك»[٩٤]، وقال: « الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ »[٩٥]، إلى غير ذلك من النصوص التي وضَّحت الموقف فيما يشتبه، ولكن الكلام فيما هو حلال وما هو حرام.
- قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ»، ثَمَّ شيءٌ سَكَتَت النُّصوص عن الكلام فيه بالتَّحليل أو التَّحريم، ولهذا قعَّدوا لهذه الكلمة «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ»، قاعدةٌ مصرَّحٌ فيها كالقواعد الفقهيَّة لابن رجب الحنبلي، ففيها قواعد مترتِّبة على هذا الحديث النَّبوي، وهو: المسكوت عنه.
- من فروع هذا الأصل الشَّرعي: ما يُقرِّره أهلُ العلم وأهلُ الأصول بمصطلح "البراءة الأصليَّة"، يعني أنَّ الأصل خلوُّ الذِّمَّةِ من الحكم الشَّرعي فيما سُكِتَ عنه، ولهذا رتَّبوا عليه أمورًا شرعيَّة، فقالوا: إنَّ الأصل في المعاملات الإباحة، وكله باعتبارِ النَّظر إلى حديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ»، فالأصل في الأشياء هو الإباحة، والأصل هو براءة الذِّمَّة؛ وكلها على هذه القواعد الشَّرعيَّة، وحينما نقول إنَّ الأصلَ هو الحلُّ في أمور العادات والمعاملات؛ فمَن أراد أن يُحرِّم لابدَّ أن يأتي بالدَّليل مِن كلامِ الله ومِن كلامِ رَسُوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا يُقال من جهة الرأي.
- كذلك مِن القواعد التي قد تُعتبَر من التَّفريعات، أو قرينة لهذه القاعدة "البراءة الأصليَّة" أنَّ الأصل في العبادات التَّوقيف، عملًا بقول النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حديث عائشة «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[٩٦].

إذن الأصل في العبادات: التَّوقيف، فليسَ لأحدٍ أن يخترعَ عبادةً من عنده، أو يستحسن ذوقًا، أو يفعل شيئًا وينسبه إلى الشَّريعة إلا بدليل.

- وكذلك ليسَ له أن يُحرِّم ما سكتت عنه الشَّريعة دونَ أن يُظهِر أنَّه حرام، فليس له أن يقول ذلك، ولهذا فإنَّ التَّحريم لا يُقال من جهة الرأي ولا من جهة الذَّوق، ولا من جهةِ الاستحسان؛ بل لابدَّ من الدليل والبرهان، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، لأنَّ تحريم ما سُكِتَ عنه يحتاج إلى دليل.
- ولهذا فإنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- حرَّم القولَ عليه بغيرِ علمٍ، فالكلام فيما سُكِتَ عنه التَّحريم هو قولٌ على الله بغير علم، وهذا من كبائر الذُّنوب؛ بل هو قرين الشِّرك، لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولهذا فلا يجوز للمسلم ولا للمسلمة أن

---

[٩٣] صحيح البخاري (١٩٢٠).

[٩٤] أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وأحمد (١٧٢٣)، والنسائي (٥٧١١).

[٩٥] مسلم (٢٥٥٣).

[٩٦] صحيح البخاري (٢٥١٢).

يتكلَّموا في أمورِ التَّحريم دونَ دليلٍ، فلابدَّ من الدَّليل، وهذا مِن تعظيمِ النَّصّ الشَّرعي، وأنَّك تقف حيثُ أوقفَتْك النُّصوصُ.

- وهذا لا يعني أنَّ الشَّريعةَ فيها أمورٌ فارغة، أو هنا أمور لم تُغطِّها الشَّريعة، فالشَّريعة الإسلاميَّة -بحمد الله- غطَّت كلَّ فروعِ المسائل الفقهيَّة، ولكن بدلالة النُّصوص، ولهذا فإنَّ بعض المفتونين يتقوَّل على الله -عَزَّ وَجَلَّ- بغير علم، ويخوضُ فيما ما لا يُحسِن؛ فيزعم أنَّ النَّصَّ الشَّرعيَّ يُنظَرُ فيه من جهةِ القَبولِ والرَّد، ولا شكَّ أنَّ هذا -والعياذ بالله- من الضَّلال!
- يقول بعضهم: إنَّ النَّصَّ الشَّرعي لابدَّ أن تُنزَعَ عنه القَداسَة، ويخضع لقواعد النَّقد كغيره من النَّصوص"! وهذا -نسألُ الله السَّلامة والعافية- كلامٌ من بعض المفتونين والمتهوِّكين!
- إذن يكون الإنسان عنده توازنٌ في كلِّ هذا، تعظيمُ النُّصوص الشَّرعيَّة، وتعظيمٌ في النَّفسِ أن يقول الإنسانُ عن شيءٍ أباحه الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّه حرام دون دليلٍ، فمن شِعار أهل الإسلام تعظيم النُّصوص، والوقوف عند حدود الله -عَزَّ وَجَلَّ.

◆ **المسألة الثَّانية:** في دلالةِ النَّص السَّابق مِن قول النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَمَا سَكَتَ عَنْهُ»**، هذا يجرُّنا إلى مسألةٍ تكلَّم فيها أهلُ العلم، وهي: هل الله -عَزَّ وَجَلَّ- يُوصَف بالسُّكوت أخذًا بظَاهرِ هذا النَّص أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- سكتَ عن أشياء في حديث أبي ثعلبة الخُشني **«وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ»**؟

- ❍ بعضُ أهلِ العلم يُطلِقُ القولَ بأنَّ الله كما يُوصَف بالكلامِ فهو يَسكتُ عن الكلام، بدلالة هذا الحديث.
- ❍ وبعضُ أهلِ العلمِ يتوقَّف في نسبةِ السُّكوت إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- ويرى التَّعبير بما جاءت به عبارات السَّلف، وهو أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يتكلَّم إذا شاء، أمَّا السُّكوت المذكور هنا فهو ليس السُّكوت عن الكلام، لأنَّه تارةً يُعبَّر بالسُّكوتِ عن الكلام، وتارةً يكون تعبيرًا عن السُّكوت عن إظهار الحُكم، وليس باعتبارِ أنَّه لم يتكلَّم فيه، وإنَّما لم يتعرَّض له.

- فالظَّاهر من النَّص السَّابق هو عدم إظهار الحُكم، فقوله **«وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ»**، أي: لم يُظهر الحكم فيها، لا سكوتًا عن الكلام، وعليه فالأولى التَّوقُّف في وصف الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذا الوصف حتى يثبت النَّص الشَّرعي الخالي من المعارضة والاحتمال، فالأولى أن يُقال: إنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- يتكلَّم إذا شاء، وأرجو أن تكون المسألة من مسائل الاجتهاد.
- قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ»**، وهذا النَّص يُفهَم في سياق النُّصوص الأخرى، لأنَّ النُّصوص تُجمَع ولا تُفرَّق في دلالاتها، وقول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا يتوافق مع قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩]، فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ٤٤]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، ومن هذه الدَّلالات النَّصيَّة الواضحة البيِّنَة -التي هي من دلالةِ المُحكَم وليست

مِن دلالةِ المتشابه- نفهم أنَّه ليس في التَّشريع منطقةٌ فارغة، فالشَّريعة غطَّت كلَّ شيء، ولهذا اجتهد العلماء -رحمهم الله- بتفريع القواعد الشَّرعيَّة لضبطِ فروع المسائل، وإن كانت الفروع متَّسعة، ولكن في ضبطِ أصولهَا وفي تفريعاتها، ولهذا قعَّدوا قواعد عظيمَة عليها مدار الشَّريعة وأحكام الشَّريعة، سواء في باب المعاملات، أو في باب العبادات، أو في باب الأقضيَةِ التي تحكم بها المحاكم الشَّرعيَّة ويصير النَّاس إليها، مثل حديث «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»، مع أنَّه حديثٌ ضعيفٌ إلا أنَّه قاعدة مشهورة ومعروفة، فرتَّبوا عليه مسائلَ سدِّ الذَّرائعِ، ودلالةِ الموافقة، ودلالةِ الخالفة، ودلالةِ الاقتضاء، ودلالةِ الإيماء، والمصالح المرسلَة؛ وهذا الاجتهادُ وهذه التَّفريعات التي انبثقَت من النُّصوصِ ليست وليدة يوم وليلة؛ بل هذه الاجتهادات كانت في قرونٍ، وما زالَ أهل العلم في هذه المسائل ينقل بعضهم عن بعض، ويتَّفقون على الأخذِ بها.

- إذن ليست الشَّريعة كلأٌ مباحٌ لكلِّ أحدٍ أن يتكلَّم فيها، ويتكلَّم في مسائل التَّحليل والتَّحريم بغير علم، ولذلك فالله -عَزَّ وَجَلَّ- أدَّب أهل الإسلام فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث: «أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا ، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»[٩٧].
- فالواجبُ على أهلِ الإسلام أن يرجعوا إلى أهل العلم، وهذا -بحمد الله- يشهد به القاصي والدَّاني من أهلِ الإسلام ومن غيرهم، أنَّ الإسلام صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وباب الاجتهاد عند العلماء بابٌ مفتوحٌ لم يُغلَق، فالاجتهاد في المسائل وفي الفرعيَّات وفي النَّوازل؛ ولكن هذا الاجتهاد لابدَّ أن يُضبَط بالنَّص الشَّرعي، ولا يكون مورد الاجتهاد الذَّوق، أو الخضوع لما يُسمَّى بضغط الواقع، فثَمَّ مسائل متَّفق عليها، ولهذا دائمًا في مسائل العلم يُنظر إلى مسائل الإجماع، فثَمَّ مسائل مُجمَع عليها بين أهل العلم، وهذه محلُّ اتِّفاقٍ ولا يجوز لأحدٍ أن يُخلَّ به، مسائل التَّحليل والتَّحريم ومسائل المعاملات: هناك مسائل كثيرة جدًا مُجمَع عليها، أمَّا أن يُستسلَم لضغطِ واقع النَّاس في جعلِ الشَّريعة تبعٌ لأذواقِ الناس وأهوائهم؛ فهذا من الغلط ومن الانحراف!
- فالشريعة -بحمد الله- صالحة في بلادنا وفي غيرها؛ بل هذ صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهي تتوافق مع المتغيرات من الحوادث، فليس في الشريعة ضيق؛ بل فيها السَّعة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالشَّريعة كلها -بحمد الله- ثابتة وواضحة، فعلى أهل الإسلام إذا أرادوا العزَّ والرِّفعَة أن يلتزموا هذه الشَّريعة، لأنَّ بها تجتمع القلوب، وبها تحصل العزَّة للإسلام، وقمع أهل الباطل، لأنَّ أهل النِّفاق في عهد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وفي أزمانٍ فيما بعد ذلك هم الذين يقولون هذه الكلمات السَّاقطة التي تتعلق بأحكام الشَّريعة، ولذا إذا جاء باب المناظرة والحِجاج في مسائل كثيرة؛ فدائمًا يقفُ أهلُ العلم على مسائل الإجماع، فتجد أنَّ أهلَ الباطِل وأهلَ الفتنةِ والذين لا يُريدون أن يلتزموا بشرائع الإسلام؛ تجدهم أوَّل مَن يخرق إجماع المسلمين في المسائل.

---

[٩٧] أخرجه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١/١٨٩)، والبيهقي (١١١٥).

- وترى ذلك في مسائل كثيرةٍ جدًّا، تارةً في مسائلِ تحليلِ ما حرَّم الله -عَزَّ وَجَلَّ- ممَّا هو معلوم من الدِّين بالضَّرورة، وما شاكلَ ذلك، فثَمَّ مسائل مُجمَع عليها، ولا أريدُ أن أُفصِّل في هذا حتى لا أُطيل؛ ولكن هذا يُفيد طالب العلم في الحِجاج والمناظرة مع هؤلاء، أنَّه دائمًا يُحيل إلى المسائل المُجمَع عليها.
- ولهذا لو نظرتَ في مسائل كثيرة جدًّا بين فقهاء المذاهب الأحناف والشَّافعيَّة والمالكيَّة والحنابلة؛ تجد أنَّ صورَ الخلافِ قابلةٌ للأخذِ والرَّدِ والرأيِ والرأي الآخر، ولكن مسائل الإجماع متَّفق عليها، فمَا يجمع أهل الإسلام أكثر ممَّا يُفرقهم -يحمد الله- فلا تظنَّ أنَّه لو قيل إنَّ هذا حنليٌّ أو هذا شافعيٌّ أنَّهم مختلفون؛ بل هي مدارس، وهم -بحمد الله- يتفقَّهون، وعندهم تسليمٌ للنَّص الشَّرعي، وهذا منقول عن الإئمَّة، وهذا شيء يشهد به الواقع وتاريخ المسلمين، فما يجمعهم أكثر ممَّا يُفرّقهم.
- والحاصلُ والمطلوبُ: هو الخضوع للشَّريعة الإسلاميَّة، أمَّا مسائل النَّوازل وما شاكل ذلك فهي محلُّ اجتهادٍ؛ لكن لا يُتنازَل عن النُّصوص الشَّرعيَّة، ولا يُزال عنها، ولا كما يقولون أنَّ في الشَّريعة منطقة فارغة؛ بل إنَّ الشريعة قد غطَّت كلَّ شيءٍ، ولهذا فإنَّ المخالفين في الشَّريعة كما في باب الأقضية والقوانين تجد جزءًا من دساتيرهم التي يفتخرون بها مأخوذٌ عن الشَّريعة، ولا نبرّر لهم هذه الدَّاساتير لأنَّها أحكامٌ وضعيَّة، ولكن جزءًا كبيرًا جدًّا من الدَّساتير المعمول بها في بعض الدُّول الغير مسلمة تجده مأخوذٌ من كتب فقهاء المذاهب، وهذا يدلُّك على أنَّ الشَّريعة فيها غُنيَةٌ عظيمةٌ جدًّا.

واجب على المسلمين حكَّامًا ومحكومين أن يلتزموا بشريعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- ففيها كل خير للإسلام والمسلمين.

{قال -رحمه الله: (وعن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه- أن رسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنَبَتَيِ الصِرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ ! لَا تَفْتَحْهُ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ». ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ: "أَنَّ الصِرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللَّهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ ". رَوَاهُ رَزِينٌ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ والترمذي عن النواس بن سمعان بنحوه)}.

- حديث عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرضَاه- من الأمثال النَّبويَّة، وهو من الأسَاليب النَّبويَّة المؤثِّرة التي كانَ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يستخدمها في تعليم أصحابه -رضوان الله عليهم- وهي تُقرِّب المعقول في صورةِ المحسوس لتعزيزِ الخيرِ والتَّنفيرِ من الشَّرِّ.
- وضربُ الأمثال من أساليبِ العربِ التي يُعرفونَ بها، ولكنَّها ممَّن أوتي جوامع الكلم -عليه الصَّلاة والسَّلام- أبلغ وأوجز وأنفع، ولهذا فإنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا»، الصراط المستقيم هو الذي يسأله المؤمنُ ربَّه في كلِّ ركعة من ركعاتِ الصَّلاة، ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].
- وتعدَّت أقوال أهل العلم في تعريف وبيان ما هو الصراط المستقيم:

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى: "**والقول الجامع في تفسيره: هو الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنةِ رسله، وجعله موصلًا إليه، وهو إفراده بالعبوية، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**".

- ولو اطلعتَ على كتب التَّفاسير لوجدَّتهم يُفسِّرون الصِّراط المستقيم بتفاسيرٍ متعدَّدة -لا أقوال مختلفة- ولكن متعدِّدة، فتارة يقولون: إنَّ الصِّراط المستقيم هو القرآن. وتارة يقولون: هو الإسلام. وينقلون عن أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويذكرون أشياء كثيرة جدًّا.

وهذه التَّفاسير لا تحسبها من الاختلاف الذي يُفهم منه التَّضاد، ولكن هي من اختلافِ التَّنوُّع.

والمراد باختلاف التَّنوُّع: هو تفسير الشَّيء بجزء من معنها لا بكلِّهِ، فالصَّراط المستقيم هو: القرآن، والرَّسول، والإسلام، والجماعة، وما شاكلَ ذلك، وكلُّها تجتمع على هذا الصِّراط المستقيم، وهو الالتزام بامرِ الله، وأمرِ رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي يسأله المؤمن في كلِّ ركعةس من ركعاته، فيسأل ربَّه أن يهديه الصراط المستقيم.

- إذن تفسير الصِّراط المستقيم بالهِدَاية من جهة الدَّلالة والإرشاد، فقد هدانا الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى الصِّراط المستقيم، مِن جهةِ أن دلَّنا على أسباب الهداية ووضَّح معالمها، فليس في هذا المعنى التباس، فمن التزم الإسلام، والتزم القرآن، والتزم النَّص، والتزم إجماع أهل العلم، والتزم فهم السَّلف فقد عرفه من جهة دلالة الإرشاد، فأرشده الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[98]، وذلك من جهة دلالة الإرشاد، ولكن من جهة دلالة التَّوفيق فهذه من الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا يسأل المؤمن ربَّه هذه الهداية حينما يقول ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ فيسأل ربه دلالة التَّوفيق والإلهام لهذا الصَّراط المستقيم، لأنَّه لا يُنَال بالأسباب، وإنَّما هو إمدادٌ من الله -عَزَّ وَجَلَّ- وإعانة وتوفيق.وفي استفتاح النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لصلاة الليل كان يدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ ، وَمِيكَائِيلَ ، وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[99]، وهذا مِن أجزاء الهِدَاية التي يسألها المسلم ربَّه، لأنَّه ثَمَّ اختلافٌ، وثَمَّ فتنٌ، وثَمَّ معضلاتٌ، أمورٌ سيمرُّ النَّاس بها، فلا موفَّقَ إلا مَن وفَّقه الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولا مَهدي إلا مَن هداه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن هذه الهداية: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ [القصص: ٥٦]، نسألُ الله لنا ولكم وللإخوة المشاهدين والمشاهدات أن يهدينا الصراط المستقيم.

- ثم قال: «**وَعَنْ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ**»، إذن ثَمَّ صِراطٌ وهو مستقيم، لا اعوجاج فيه.
- قال: «**وَعَنْ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ**»، يعني على الجانب الأيمن والأيسر لهذا الصراط «**سُورَانِ**»، السُّور: هو الذي يحولُ بينَ الشَّيء وبين رؤية الناس له.

---

[98] أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٤).

[99] صحيح مسلم (١٢٩٥).

- قال: «فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ»، إذن ثَمَّ سورٌ على اليمين، وثَمَّ سورٌ على اليَسار، وعلى هذا السُّور أبواب، وهذه الأبواب موصوفة بأنَّها مُفتَّحة، السور الأيمن عليه أبواب، والسُّور الأيسر عليه أبواب مفتَّحة، وهذه الأبواب لا تحولُ بينكَ وبينه، يعني ثَمَّ فتحةٌ للباب، ولكن هذا الجزء المفتوح لا كالأبواب التي يوصَد عليها الأبواب، وإنَّما عليها ستور، والآن -كما تعرفون- أنَّه ربما تكون فتحة الباب عليها باب، وأحيانًا يكون عليها ستار.

إذن هذه الأبواب لا تحول بينك وبينه إلا ستور مرخاة عليها، فأنت لا ترى ما خلف هذه الأبواب، وهذا من تمثيل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومن أبلغ ما يكون وصف الشيء.

- قال: «وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا»، يعني لا تميلوا يمينًا ولا شمالًا، لأنَّ الاعوجاج هو الميل عن هذه الأبواب، وجاء في بعض الأحاديث «على كل باب داعٍ يدعو إليه»، أي: شيطان يدعو إليه، والرِّوايات تُجمَع، فالشَّيطان يُسوِّقُ لهذا السِّتر.
- قال: «وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ»، فمن طبيعة الإنسان أنَّه يتشوَّف لما هو مخفي.
- إذن ثَمَّ بابٌ وعليه سِترٌ، فتدفعه نفسه إلى أن يرى ما خلفَ هذا السِّتر، فهذا من دقَّة المثل النَّبوي، قال: «كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ»، ثَمَّ همٌّ وتشوُّفٌ لدى الناس، وفي بعض الروايات «على كل باب شيطان يدعو إليه، هلموا...»[100]، أي: ادخل فيه، ويُزيِّنه لك أن تدخل، وهذا اعوجاج عن الصِّراط المستقيم.
- قال: «كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ. قَالَ : وَيْحَكَ ! لَا تَفْتَحْهُ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ»، تلجْه: أي تدخل فيه، ولهذا فإنَّ الباطلَ مزيَّنٌ بأشياء، فإذا فتحت السِتر دخلتَ، وكما قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»[101]، فالقرب من هذه الأماكن ربَّما أوقعك.
- قال: (ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ)، بعد هذا المثال البليغ فسَّر ابن مسعود هذه المفردات.
- قال: (أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللَّهِ)، المقصود بمحارم الله: هي كل ما حرم الله -عَزَّ وَجَلَّ، فكل هذه السُّتور المرخاة على الأبواب هي كل ما حرم الله من الصَّغائر والكبائر، ولابدَّ للكبائر من توبة، وأمَّا الصَّغائر فإنَّها تكفِّرها الحسنات الماحية، والصلوات الخمس كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

إذن محارم الله هي: الأبواب.

[100] ثبت من حديث عبد الله بن مسعود أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَّ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا "، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذِهِ السُّبُلُ، وَلَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ" مسند أحمد (٤٢٩٤).

[101] البخاري ومسلم

- قال: (وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللَّهِ)، يعني ما حدَّه الله -عَزَّ وَجَلَّ- ألا تتجاوزه، فهَتكُكَ للسِّتر يُعدُّ تجاوزًا منكَ لِما حدَّه الله -عَزَّ وَجَلَّ، فقد تجاوزت من منطقة الحلال إلى منطقة الحرام.
- قال: (وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ)، لأنَّ القرآن وما جاء فيه هو الذي يُبنَى عليه مسائل التَّحليل والتَّحريم.

إذن هذه أمور عظيمة جدًّا يمرُّ بها الإنسان، وهذا يدلُّ على أنَّ سلوكك لهذا الصِّراط المستقيم، والتزامك بالقرآن والوحي هو التزامك لهذا الدَّاعي، ولهذا أوصاك الله -عَزَّ وَجَلَّ- به في نصوص كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

- قال: (وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ).

إذن ثَم داعٍ على الصِّراطِ وثَمَّ واعظٌ، والفِطرة السَّليمة التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها من محبَّة الخير وغرس الإيمان في قلب المؤمن. والنفس اللوامة، قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢].

- قوله: (وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ)، هو واعظ الخير وهو الذي يعظك ألا تلج هذه السُّتور التي زُيِّنَت لك، وأنَّك إذا وجلتها دخلتها -نسأل الله السَّلامة والعافية.

وطبعًا هذه المحارم تشمل ما حرَّمه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويشمل الوقوع في الفتن، لأنَّها هتكٌ لتلك السُّتور، والإنسان لابدَّ أن يمرَّ على هذه الأحوال التي أخبر بها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه من المواعظ العظيمة التي وعظها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بها أهل الإيمان، فلابدَّ من الثبات على الصراط المستقيم، ولزوم هذا الثبات إنما يكون بعمل الصالحات، وبسؤال الله -عَزَّ وَجَلَّ- الثبات، ولا تثبيت إلا مَن ثبَّته الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا فينبغي لنا أن نُكثر من دعاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة -نسأل الله السلامة والعافية.

- إذا كان الصراط المستقيم هو الإسلام، وإذا كان المسلم يدعو الله -عَزَّ وَجَلَّ- في قراءة سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو مسلم، فكيف يتفق المعنى؟.
- لأنَّ الهداية لها أصلٌ ولها زيادة، فأنتَ مهديّ من جهة أنكَ لزمتَ طريقَ الإسلام، فأنت تسأل الله المزيد من الهداية، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فأنتَ تسأل الله المزيدَ، والإيمان لا يزال يزيد وينقص، وهذا من قواعد أهل السنَّة، وتسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- مزيدًا من الهداية لأنَّ الهداية مراتب وأحوال، فثَمَّ هداية كاملة وثَمَّ هداية ناقصة، ومع هذا السؤال تسأل ربَّك الثبات على الصراط المستقيم، فأنت تتصوَّر في سؤال ربَّكَ الهداية أن يزيدك الله منها، وأن يثبتك عليها، لأنَّ الحي لا تؤمَن عليه الفتنة، وأنت تعرف - يا عبد الله ويا أمة الله- أن الإنسان ما دامت نفسه وروحه في جسده فإنه معرضٌ للفتن، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢]، زيَّن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه الفتن ليعلم الله مَن يخافه بالغيب، وليعلم

الله الصَّادق من الكاذب، وهو عالم -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- ولكن ظهور علمه -عَزَّ وَجَلَّ- لا يكون إلا بهذا، لأنَّ كلٌّ يدَّعي الإيمان، ولكن يظهر جوهر الإيمان وأصله بالثبات على الإسلام والاستقامة، ولا يزال الإنسان يُفتَن بفتنٍ كثيرة جدّصا، في بيته، في أهله، في ولده، في علاقاته؛ فلا يزال يُفتَن، ولهذا أمرك الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذا الدعاء العظيم، وهو دعاء الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فلا تزال تسأل ربك الهداية، اللهم اهدني فيمن هديت، اللهم وفقني إلى الهداية، اللهم اهدني إلى الصراط المستقيم، اللهم جنبني الفتن، وهكذا.. فكل مسلم يستلزم بهذا.

{قال -رحمه الله: (تَلَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»)}.

- هذا الحديث العظيم عن أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَلَا هذه الآية من سورة آل عمران، وهي من أصول الإسلام في بيان ما قامت عليه الشَّريعة.
- يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾، أي: أنزل الله على محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾، هو: الوحي، الوحي من كلامه -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- والوحي الآخر من سُنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- والوحي منه ما هو محكمٌ ومنه ما هو متشابهٌ، قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾، يعني: أنَّ القرآن منه آيات محكمات.
- قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، يعني: هي أصل الكتاب، وأصل الكتاب قد بانَ بالمحكمات، وبعض أهل العلم يقول: أصول الشَّريعة وقواعد الشَّريعة الكبرى وأركان الإسلام وما يتعلق بذلك هو واضح وبيّنٌ بالمحكمات، فأغلب ما في النُّصوص هو المحكم.
- قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، يعني بعض الآيات متشابهات.

إذن ثَمَّ مُحكَم وثَمَّ متشابه، ولهذا قال أهل العلم: أجمَعُ ما يُقال في تعريف المُحكَم: هو"البيّنُ الواضح الذي لا يلتبِس"، وهو الغالب في النُّصوص، وهو أصل الكتاب.

والمتشابه: هو الذي يشتبه أمره على بعض النَّاس دون بعض، أو ما لا يُعلَم معناهُ، ومن المتاشبه ما لا يعلمه إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ:

- ويُمكن أن يُقال: إنَّ المتشابه:
  1) متشابه حقيقيّ.
  2) متشابه نسبي.

◆ **الحقيقي:** مثل كيفيَّة صفات الرَّب -سُبْحَانَه وَتَعَالَى- قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قال الإمام مالك للسائل: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول"، فكيفيَّة أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذا من المتشابه، وممَّا استأثر الله تعالى به، فكيفيَّة اتِّصاف الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالصِّفات فهذا من المتشابه.

◆ **والنِّسبي:** يعني يختلف من شخصٍ إلى شخص، فقد يشتبه عليك نصٌّ ولا يشتبه على غيرك، يشتبه على هذا العالم ولا يشتبه على غيره، فلانٌ دونَ فلان، هذا يراه أنَّه من المُحكم الواضح البيّن، وهذاك مشتبهٌ عليه.

- قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، إذن ثَمَّ مُحكمٌ وثَمَّ متشابه متَّفق عليه، وهذا لا يخصُّ القرآنَ ولا السنَّةَ فقط؛ بل المحكم والمتشابه يكون دونَ دلالةِ الكتاب والسُّنَّة؛ بل بكلام أهلِ العلم قد يكون هناك محكم وهناك متشابه، بل كلام النَّاس أيضًا يحصل فيه المحكم والمتشابه، ولهذا تحصل الخصومة في المتشابه من الكلام، يعني أنتَ أردَّتَ بهذا الكلام كذا -لأنَّه مشتبه وحمَّال أوجه- وذاك أراد كذا...، وهذا يحصل، حتى يكون الإنسان على ذُكْرٍ من هذا وفهمًا له.

إذن القرآن فيه محكَمٌ ومتشابه، والسُّنَّة كذلك، قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

- الآن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يُصنِّف موقف الناس من المُحكَم والمتشابه، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾. يعني لا يذهبون إلى المُحكَم، بل يذهبون إلى المتشابه، ولهذا فإنَّ عمدَة أهل الضَّلالة ودعاه قديمًا وحديثًا أنَّهم لا يذهبون للمحكم، ولا يستدلون به؛ إنَّما يستدلون بالمتشابه لضربِ أصولِ الإسلام وقواعد الإسلام الكبرى، وهذا ليسَ في مسألة واحدة؛ بل في مسائل متعدِّدة، وبه يَبينُ لك ما يُريد الحق ومَن يُريد الزَّيغ، لأنَّ ليسَ كلُّ داعٍ للضَّلالِ يقول أنا داعٍ للضَّلال أو رافضٌ لأحكام الشَّريعة! هو يريد أن ينقض أحكام الشَّريعة ببعض دلالات المتشابه! فعمدتهم المتشابه، لأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لم يُرد بهم الهداية ولا الخير، فجعل أنظاهم لا تنصرف إلا إلى المتشابه، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾.

يقول أهل العلم: الزَّيغ هو الميل، والضَّلال، والشَّكُّ، وقل ما شئتَ عن الزَّيغِ في تفاسير أهل العلم، فهؤلاء في قلوبهم مرض.

وإنَّما ضلَّت الخوارج باتِّباع المتشابه من النُّصوص، يقول السّلف -رحمهم الله: "إنما أتوا من العُجمَة". والعُجْمَة ليست بمعنى أنَّهم ليسوا بعرب؛ ولكنم لا يفهمون دلالات النُّصوص، وأعرضوا عن فهم الصَّحابة والتَّابعين، فوقعوا في الزَّيغ، لأنَّ الله يعلم ما في القلوب.

- قال تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾، فمرادهم الفتنة. وجاء في بعض التَّفاسير: إردة الشِّرك أو إرادة الإضرار بأهل الإسلام، أو ما شاكل ذلك.

وتارة يكون اتِّباعهم ابتغاء تأويله، يعني ابتغاء معرفة المتشابه، ومعرفة المتشابه لا يكون بالنَّظر إليه، وإنَّما بردِّه إلى المُحكَم.

يعني يكون موقف طالب العلم وطالب الحق أن يرد المتشابه إلى المحكم.

نعم، يكون كذلك.

- وليس هذا في مسألة واحدة، ولكن في أبواب العلم كلها، وتذكر لمَّا تكلَّمنا عن باب القدر قلنا: إنَّ المُحَكم فيه أنَّ الله حَكَمٌ عدلٌ لا يظلم؛ مسائل يعقد الإنسانُ قلبَه عليها، حتى إذا استشكل عليه النَّصُّ فإنَّه يردُّه إلى المُحكَم، والمحكم يكون في جميع أصول العلم، كأصول الفقه، وغيرها، فلو جئتَ مثلًا في كتاب الطَّهارة؛ تجد أنَّ فيه مسائل محكمَة، فإذا اشتبهت عليك المسائل تردَّها إلى المُحكَم وتلزمه، فهذه طريقة أهل العلم.
- فطريقة السلف -رحمهم الله- أنَّهم يُعلِّمونَ النَّاسَ بصغار العلم قبل كباره، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿كُونُوا رَبَّانِيّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، جاء في تفسير "الرَّباني" عن ابن عباس وغيره: أنَّه هو الذي يُربِّي النَّاس بصغار العلم قبل كباره.

صِغارُ العلم: هو تعليمهم المحكمات، وليس تعليمهم المتشابه، فإذا جئتَ تُقرِّر مسألة ما تقول إنَّ المسألة فيها خلاف؛ بل تُقعِّد لهم القواعد، حتى إذا استقرَّت نفوسهم على ذلك استطاعوا أن يلجوا في المسائل المختلف فيها.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.







الدرس الثاني عشر



الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{سنبتدئ في هذه الحلقة -بإذن الله- من عند قول المؤلف –رحمه الله: (وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت: «تلا رسول اللَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ». متفق عليهِ)}.

- هذا الحديث العظيم حديث عائشة، فيه أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تلا هذه الآية من سورة البقرة، وقد سبق الكلام عن معنى المُحكَم والمتشابه، ومن باب إعادة ما ذُكر حتى يكون الشرح واضحًا فقد بيَّنَّا وقلنا:
  - إنَّ **المُحكَم**: هو البيِّن الواضح الذي لا يلتبس، وهو الغالب والأعم، وهو أصل الكتاب.
  - **والمتشابه**: هو الذي يشتبه أمره على بعض النَّاس دون بعض، فيعلمه العُلماء دون غيرهم، ومنه ما لا يعلمه إلَّا الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- ✓ وذكرنا أنَّ من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ- مثل: كيفيَّة اتِّصاف الرَّب -سبحانه وتعالى- بالصِّفات، كما قال الإمام مالك عن الاستواء: "والكيفُ مجهولٌ".
- ✓ وذكرنا أنَّ من المتشابه منه ما هو حقيقي، ومنه ما هو نسبي، وقلنا:

- المقصود بالنِّسبي: ما يَشتبه على بعضٍ دون بعض، فقد يشتبه عليك وتظنُّه من المتشابه ولا تعرف معناه، فترده إلى المحكم.

وقد لا يشتبه هذا النَّص عليك، فيكون ليس داخلًا في دائرة المتشابه، وتكلمنا عن هذا، وذكرنا أنَّ التَّشابه يقع في كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- بنصِّ هذه الآية، ويقع كذلك في كلام الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وفي كلام العلماء؛ بل وفي كلام النَّاس بعضهم لبعض، وهذا واضح وبيّن.

- ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧]، الله -عَزَّ وَجَلَّ- يمتنّ على هذه الأمة، ويمتنّ على النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنَّه أنزل على نبيهم هذا الكتاب العظيم، وأخبر أنَّ من الآيات ما هو مُتشابه، الذي نزل جبريل به على قلب محمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وأمّ الكتاب يعني: أصل الكتاب، فأصل الكتاب قد بانَ بالمُحكمَات.

قلنا: أصل الكتاب هو أركان الإسلام وشرائعه العظام قد بانت بالمُحكمات، ولا اشتباه فيها. ولهذا فأغلب ما في القرآن هو المُحكَم وليس المتشابه، فالمتاشبه هو الأقل، والأكثر هو المحكم، وقواعد الإسلام بانت بهذه المحكمات.

- وأمَّا المتشابهات فقد تقع في كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- فقال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ﴾، يعني: بعض الآيات مُشتبها ومتشابهات؛ فهذه الآيات المتشابهات قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن موقف الناس منها: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، يعني: من كان في قلبه انحراف وضلال ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، هذه قاعدة من قواعد أهل السُّنَّة لابدَّ أن تُعلَم، وأنَّ أهل السنة هم أهل المحكمات، وأهل البدعة هم أهل المتشابهات، فلهذا أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾، إمَّا لغرض إيقاع الفتنة بين أهل الإيمان، وإيقاع الشِّرك، فالفتنة يدخل في معناها الشرك والانحراف، وتفريق كلمة المسلمين، وما شاكل ذلك من المعاني التي تدخل في معنى الفتنة.

- قال: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، يعني: طائفة منهم تحملهم معرفة معنى المتشابه إلى اتّباع المتشابه وعدم ردّه إلى المحكَم، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

- وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ قال بعض أهل العلم: يعني تحريفه عن معناه، لأنَّهم يبتغون تحريفه.
  - ❖ وقال بعضهم: يبحثونَ عن تفسيره، فقد تكون طائفة تريد التَّحريف، وطائفة تريد معرفة هذا المتشابه فلا تلزم الجادَّة، وتأويله يكون بردّه للمحكَم.
  - ❖ ولهذا كان قول الجمهور أنَّ الوقف يكون عند لفظِ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، فهذا هو قول الجمهور.
  - ❖ وبعض أهل العلم يرى الوقف على قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾.

والأقرب: هو الوقف على لفظ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، فهذا هو قول الجمهور، ويكون ما بعدها استئناف ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، وهذا هو واجب أهل الإيمان.

- والمراد بالتَّأويل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾:

* تارة يُراد به **التفسير**، كما جاء في دعاء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لابن عباس: «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[١٠٢].
* وتارة يُراد به: **الحقيقة التي يؤول إليها الشَّيء**، مثلما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- به من نعيم الجنة، فإن حقيقته لا تُعلَم إلا بدخول الجنة.
* **وتارة يُراد به: صرف اللفظ عن معناه الظَّاهر -أو معناه الرَّاجح- إلى معنى غير ظاهر -غير مرجوح- لدليلٍ أو قرينة.**

- فلابدَّ أن يُعلَم أن التأويل قد يُراد به هذا وذاك ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**﴾.
- **وكما قلنا**: إنَّ آيات الصِّفات مُحكمةُ المعنى، ولكن مِن جهة الكيفيَّة هي من المتشابه.

وكذلك ممَّا ينبغي أن يُعلَم: أنَّ الأصل في القرآن وفي السُّنة هو المحكمات، وقواعد الإسلام بانت بالمحكمات.

ثُمَّ ذكرنا أنَّ في كلِّ بابٍ من أبواب العلم لابدَّ لطالب العلم وللمعلم أن يُعلِّم النَّاس بالمحكمات قبل المتشابهات؛ لأنه إذا تعلم المتشابه قبل أن يتعلَّم المحكم لم يستطع أن يرد المتشابه إلى المحكم، ففي كل باب من أبواب العلم ثَمَّ محكمات هي الأصول والقواعد الكبرى.

على سبيل المثال: في باب القضاء والقدر قلنا: **إنَّ ثَمَّ أمور محكمَة، منها:**

- ☑ أنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- لا يظلم.
- ☑ وأنَّ القدرَ سرُّ الله في خلقه.
- ☑ وأنَّ تفاصيلَ القدرِ لا يعلمها إلى الله.

- وهكذا من الأمور التي يُركَّز في التَّعليم عليها، حتى يقع القلب على الثَّبات، فيستقر بهذا، وهذه طريقة أهل العلم في التَّعليم، كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ [آل عمران: ٧٩]، جاء في تفسير ابن عباس: "**الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ**"[١٠٣]، ومن صغار العلم -يعني: من قواعده- ليس المسائل السَّهلة، وإنَّما القواعد الكبرى، فيتعلمها الإنسان، كتعلم أركان الإسلام، يتعلم أنواع التوحيد، فهذه أصول، ثم تأتي المشتبهات، وعند المشتبهات يرد المتشابه إلى المحكم.
- وأعظم أسباب الضَّلال للفِرَق الوعيديَّة الذين قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عنهم: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**»[١٠٤]، فمن أعظم أسباب الضلال: اتِّباع المتشابه، ولهذا فإن الإمام أحمد في كتابه "الرد على الزنادقة والجهمية" قال في مقدمة الكتاب: "يتكلَّمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهَّال الناس بما يُشبِّهونَ عليهم".

---

١٠٢ صححه الحاكم ووافقه الذهبي والعراقي والبوصيري والألباني.

١٠٣ رواه البخاري عند ترجمة (باب العلم قبل القول والعمل) وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ

١٠٤ رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسَّنه ابن العربي في " أحكام القرآن " (٣ / ٤٣٢)، والعراقي في "تخريج الإحياء" (٣ / ٢٨٤)، والألباني في "صحيح الترمذي".

- إذن عمدتهم هو المتشابه، فالقاسم المشترك بينَ أهل الأهواء كلهم: أنهم يتبعون المتشابه، ولا يأخذون بالمحكم، كما قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ».
- على سبيل المثال: ضلَّت الخوارج في مسألة الفاسق الملِّي، وأن مرتكب الكبيرة كافر؛ ضلَّت باتِّباع المتشابه من النُّصوص، فأخذوا بما جاء في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، الآية.
- فالمعنى الذي اشتبه عليهم في هذه الآية هو قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾، فلم يعلموا أنَّ الخلود خلود إلى أمد وخلود إلى أبد، فأخذوا بهذا النَّص وتركوا غيره من النُّصوص، مثل قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فأثبتَ لهم اسم "الإيمان".
- أيضًا تركوا قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وتركوا قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قال أبو ذر: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»[١٠٥].

وأعرضوا عن نصوص كثيرة جدًا من كتاب الله، ومن كلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحينما استمسكوا بهذا النَّص الذي تبادر إلى أذهانهم منه معنًى متشابه، فجعلوه أصلًا، وأعرضوا عن بقية النُّصوص.

- وهذا ليس لهم وحدهم؛ بل كل الطَّوائف، فالذين قدحوا في أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكفَّروهم وزعموا أنَّهم ارتدوا فهم يتبعون المتشابه، ومن المتشابه الذي اتبعوه: حديث الحوض الذي قال فيه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه ليُزاد عنه أُناس، فأقول أصحابي!! فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[١٠٦]، وفي رواية «إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، هذا الحديث جعلوه في أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا المعنى الذي اعتقدوه هو معنى مُتشابه، والواجب أن يُفسَّر كما فسره أهل العلم، وأهل العلم فسَّروا الحديث وبيَّنوه، فهو غير مُشتبه عليهم، وليس من المتشابه، فقالوا: هذا

---

١٠٥ مسلم (٩٤)

١٠٦ ورد الحديث بعدة روايات وهذه بعض الروايات بألفاظها المختلفة؛ منها: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي).رواه البخاري (٦٢١٢) ومسلم (٢٢٩٠)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا) قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ) فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ؛ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ. فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا). رواه مسلم (٢٤٩) .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُهُ عَلَيَّ مِنْكُمْ ، فَلَيُقْطَعَنَّ رِجَالٌ دُونِي ، فَلَأَقُولَنَّ : يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَلَيُقَالَنَّ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ. رواه أحمد (٤١ / ٣٨٨) وصححه المحققون .

عن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرُفِعُوا إِلَيَّ اخْتُلِجُوا دُونِي فَلَأَقُولَنَّ: أَيْ رَبِّ أُصَيْحَابِي أُصَيْحَابِي ، فَلَيُقَالَنَّ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ). رواه البخاري (٦٢١١) ومسلم (٢٣٠٤) .

عن عَبْد اللَّهِ بنِ مسعود قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ لَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي يَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ). رواه البخاري (٦٦٤٢) ومسلم (٢٢٩٧) .

الحديث في الذين ارتدوا بعد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وفي أهل النِّفاق، وذكروا أجوبة أخرى، ففهموا هذا النَّص وفق النُّصوص الأخرى، أمَّا هؤلاء فجعلوه أصلًا وهو المتشابه، ولم يردوه إلى المحكم.

- أمَّا الواحد من أهل السُّنَّة إذا اشتبه عليه النَّص ولم يعرف معناه ولم يعرف كلام أهل العلم فيه: فالواجب عليه أن يرده إلى المحكم، فالمحكم هو النُّصوص الكثيرة التي فيها ثناء على أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة جدًّا التي يطول المقام بذكرها.

ولهذا قلنا: إنَّ الاشتباه قد يكون نسبيًّا، فهذا النَّص إذا اشتبه عليك ولم تعرف الجواب عليه فلا تأخذ به وتجعله الأصل؛ بل رُدَّ هذا النَّص إلى المحكم.

إذن ما تشابه عليك رُدَّه إلى المُحكَم، حتى في مسائل الفقه، وقواعد الشريعة العظام؛ تردها إلى المُحكَم.

- وعمدة أهل النِّفاق هو الأخذ بالمتشابه، فمثلًا تجد في باب العلاقات، كعلاقة الرجل بالمرأة؛ تجد أنَّ بعض النَّاس يُريد أن يُشبِّه على النَّاس بقصَّةٍ أو بقضيةِ عينٍ ليضرب بها قواعد الشَّريعة العظيمة، وكمسائل الحجاب وما شاكل ذلك؛ لابدَّ أن يعلمها الناس جميعًا، ألا تكون بضاعتهم وعدتهم اتِّباع المتشابه.

- وطريقة أهل العلم وأهل الرُّسُوخ هي التي تُبيِّن لك ذلك، فإنَّ فتاوى أهل العلم من المتقدمين ومن المتأخرين قد بُنيَت على هذه الأصول العظيمة، وأهل السُّنَّة هم أهل المحكمات، وأهل البدعة هم أهل المتشابهات.

{قال -رحمه الله: (وعن عبد اللَّه بن مسعود -رضي اللَّه عنه- قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ». ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ. ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. رواه أحمد: والدارمي والنسائي)}.

- هذا بيان من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأهل الصِّراط المُستقيم، وهذا يُسمى عند أهل التربية الحديثة "وسيلة إيضاح". فالنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُوضح لأصحابه هذه الأمور بكل وسيلة، ومن الوسائل: أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خطَّ لهم خطًّا وقال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، وهو الصِّراط المستقيم، وهؤلاء الذين على هذا السبيل هم أهل السنة والجماعة، وهم أهل الأثر والحديث، أتباع منهج السلف؛ فهذه أوصاف لهم، وإلا فهي فرقة واحدة وإن تباعدت أقطارهم؛ لأنَّ الميزان عندهم والمنهج قائمٌ على الكتاب والسُّنة بفهم سلف هذه الأمَّة، وهم الغُرباء في كل زمانٍ ومكان، وهم الفرقة النَّاجية والطَّائفة المنصورة.

- فهي الفرقة النَّاجية: لقول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، فهم الواحدة؛ لأنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُئل عنها فقال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[107]، فمن أراد أن يعرف نفسه هل

---

١٠٧ رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسَّنه ابن العربي في " أحكام القرآن " (٣ /٤٣٢)، والعراقي في "تخريج الإحياء" (٣/٢٨٤) والألباني في "صحيح الترمذي" .

هو من الفرقة النَّاجية أو لا: فلينظر هل هو ممَّن يأخذ الكتاب والسنة بفهم السلف أو لا؟ فإن كان على هذا النَّحو فهو على هذا السَّبيل، ويسأل الله الثَّبات والاستقامة عليه.

- ولهذا فهم لا شِعَار لهم إلا "اتِّباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمَّة"، وهذا السَّبيل هو السَّبيل الموصل للجنَّة، ولا يُمكن أن يتوحَّد المسلمون على غير هذا السبيل؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ما وحَّدهم إلا على هذا، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فدلَّ على أنَّ الاعتصام يكون بحبل الله وبكتاب الله وبسنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وقال عن أهل الاختلاف: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

إذن؛ لا سبيل إلى وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم إلا باجتماعهم على كِتابِ الله وهو بينَ أيديهم، وسنَّة نبيهم محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بفهم سلف هذه الأمَّة.

- وباستقراء تاريخ المسلمين استقراءً تامًّا خلال أربعة عشر قرنًا لم نجد أنَّ أهل الإسلام قامَ لهم شأنٌ وصارت لهم راية وشَوكة ضدَّ أعدائهم إلا بتوحِّدهم على كتاب الله، وسنة نبيه محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بفهم سلف هذه الأمَّة، فلا يُمكن أن يتوحَّد المسلمون إلا على هذا، والتَّاريخ شاهدٌ بهذا.

❑ **والواجب على المسلمين أفرادًا وجماعات:** أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى كتاب الله، وإلى سنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بفهم الصَّحابة والتابعين، ولهذا ما في أحد مِن المخالفين ينفر عن هذا لو كان يُريد أن يتَّبع الحق، لأنَّ الذي يدعوه لا يدعوه إلى رأيه، وإنما يدعوه إلى كتاب الله، وإلى سنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بفهم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا محل اتِّفاق ومحل إجماع بين المسلمين، فالواجب عليه أن يترك الرجال، وأن يصير إلى هذا الاجتماع الحقيقي، ولهذا فالنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، هذه السُّبل هي البدع والشَّهوات المحرمة -في قول بعض أهل العلم- والشيطان هنا يشمل الإنسي والجني، ويتظاهر شياطين الإنس والجن بدعوة النَّاس إلى هذه السبل التي تحرفهم عن الصِّراط المستقيم، فتوقعهم في النَّار -أعاذنا الله وإيَّاكم من ذلك.

- ولهذا نقول: أهل السُّنة هم أهل الصِّراط المستقيم، وهم الفرقة النَّاجية، وهم الطَّائفة المنصورة، يعني منصورة في الدُّنيا، لأنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصفها بأنَّها منصورة بالحق الذي معها، فقال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[١٠٨]، فقد يُخذلون، وقد يُخالَفون، وهذه بُشرى لأهل هذه الطَّائفة، أنَّهم منصورون بنصر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وبوعد نبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

---

١٠٨ رواه مسلم (١٩٢٠)

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، ولهذا لما قامت دعوة الإمام المجدد على التوحيد حصلَ التَّمكين، وحصل الاجتماع، وحصل الرَّخاء، وتحصل الناس خيري الدنيا والآخرة، فهذه للمسلمين جميعًا في كل مكانٍ وزمانٍ، فإذا أرادوا أن يجتمعوا فعليهم أن يجتمعوا على هذه الكلمة العظيمة، وعلى هذا الصِّراط المستقيم، عل كتاب الله، وسنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بفهم سلف هذه الأمَّة، أما أن يجتمعون على أسماءٍ ومسميات أخرى؛ فلا يُمكن!

- وذكرت لكم أنَّ استقراء التَّايخ التام يدلُّ على هذا، ولهذا فلو أنَّ أحدًا درسَ التاريخ بتمعُّنٍ وبقراءةٍ فاحصة يجد أنَّ الأمَّة لا يُمكن أن تتوحَّد ولا يكون لها شَوكَة ولا غلبة على أعدائهم إلا باجتماعهم على هذه الأصول العظيمة، وأمَّا ما عداه فزيفٌ وتزوير.

{قال -رحمه الله: (وعن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- قال: كان ناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّم فقال: «إنَّ أحمقَ الحُمقِ وأضَلَّ الضَّلالَةِ قومٌ رغِبوا عمَّا جاء به نبيُّهُمْ إلى نبيٍّ غيرِ نبيِّهِمْ ، وإلى أمَّةٍ غيرِ أمَّتِهِم» ثمَّ أنزل اللَّهُ -عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. رواه الإسماعيلي في "معجمه" وابن مردويه.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ. فَقَالَ: هَذِهِ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ.

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَغَيُّرًا شَدِيدًا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ لِعُمَرَ: أَمَا تَرَى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا.

فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «لَوْ نَزَلَ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ. أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ». رواه عبد الرزاق وابن سعد والحاكم في الكُنَى)}.

- الحديث الأوَّل فيه ضعف، والحديث الثَّاني حسنٌ بمجموع طُرقِهِ، ويدل على أصول مهمَّة جدًّا نذكرها على سبيل الإيجاز:

لابدَّ أن يُعلم أنَّ هذه الأحاديث تتحدَّث عن مسائل:

- المسألة الأولى: أصل الديانات السَّماويَّة واحد؛ لأنها من عند الله، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران ٣، ٤].
- ولابد أن يُعلَم أنَّ شريعة الإسلام جمعَت محاسن الرسالات السَّابقة، فكل خير في الكتب السابقة قد جُمِعَ في الإسلام، وفي كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- ولابدَّ أن يُعلم أنَّ القواعد العامَّة واحدة للكتب السَّابقة كالتوارة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، والزبر، وما شاكل ذلك ممَّا ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الكتب؛ فمثلًا: وجوب العدل وتحريم الظلم،

موجود في كل الشرائع، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم ٣٦ - ٣٩]، فهذا موجود في كل الكتب.

- وكذلك الأمر بالمعروف وإنكار المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٧٨، ٧٩].

- وأما تشابه شريعة الإسلام مع الشرائع السَّابقة هو في الاسم فقط دون المضمون، فما أخبر به الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الصلوات ومن الطهارة إنما هو متشابه في الاسم، أمَّا المضمون فمختلف؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالصَّلاة عند اليهود في أصلها كان فيها ركوع وسجود، ولكن حدث فيها تغيير، وأخذت أطوارًا مختلفة، وقبلة اليهود مختلفة عن قبلة أهل الإسلام، وما شاكل ذلك من هذه الأمور.

- حديث النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حينما أصاب عمر ذلك الكتاب من أهل الكتاب وقرأ فيه؛ فكان يريد الخير، وجاء في بعض الروايات أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال لعمر بن الخطاب: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً»، يعني: شريعة الإسلام. قال: «لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[١٠٩]، فَدَلَّ على أنَّ واجب الأمة اتباع النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباع النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو إيمانٌ بما جاء به الأنبياء السَّابقون؛ لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أخذ على أهل الكتاب وعلى الأنبياء أنَّه لو بُعث محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيهم أن يتبعوه، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

- إذن أخذ الله الميثاق على النَّبيين السَّابقين، وهذا الميثاق يشمل أمم الأنبياء السَّابقين، فيجب على أتباع موسى -عليه الصلاة والسلام- وأتباع عيسى أن يتبعوا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه أرسله الله -عَزَّ وَجَلَّ- خاتم النبيين، وأمرهم باتباعه، وكل الخير في اتباع هذا النبي الرحيم، الذي أرسله الله -عَزَّ وَجَلَّ- للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فدين الرَّحمة هو دين الإسلام، وواجب الأمم جميعًا أن يؤمنوا بمحمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعمر: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟»، أي: أمتحيرون؟.

---

١٠٩ رواه مسلم (٢٢٤٢)

فهذا الحديث وما أخبر به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوجب على أهل الإسلام أن يعلموا أنَّ الخير فيما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأنَّ الكتاب الذي حفظه الله -عَزَّ وَجَلَّ- من التَّحريف هو كتاب واحد، وهو القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- إذن الكتاب المحفوظ هو القُرآن، وهو الذي يجب على الأمَّة وعلى البشريَّة أن يتبعوه؛ لأنَّ فيه الهدى والنُّور، أمَّا الكتب السَّابقة فقد حصل فيها التَّحريف في معانيها وفي ألفاظها، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]، بل إنَّ الكتب السَّابقة - التَّوراة والإنجيل- وما يُسمونه بالعهد القديم والعهد الجديد حصل فيه التَّحريف؛ لأنَّها نزلت باللغة العبرانيَّة، ثم نُقلت وتُرجِمَت، حتى أنَّ علماءهم يشهدون بوقوع التَّحريف والتَّبديل، فكلها ترجمات لما كان، ووقع التَّحريف والتَّغيير في هذه الكتب، وبالتَّالي يجب على أهل الإسلام أن يعرفوا أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- كفاهم بهذا الكتاب عن غيره، ولا ينظروا إلى ما عند الكتب السَّابقة، وما فيها من أخبارٍ أو معانٍ، ولا يطلبون الحكمة، أو ما شاكل ذلك؛ فإنَّ الخير كله في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا فلا يجوز القراءة لا في التَّوراة ولا في الإنجيل إلا لمن يريد أن يرد الباطل الذي عندهم، ويُلزمهم بالحق الذي معهم، أن يؤمنوا بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو الرسول الخاتم، الذي أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يؤمنوا به، ولهذا فقد ورد في الحديث أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غضِبَ؛ لأن هذا سيفتح بابَ شرٍّ على أهل الإسلام، وإنما فعل عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ذلك بحسن نيَّة، فنهاه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

  - ❑ **ومَن هذا قال أهل العلم:** لا يجوز القراءة في كتب أهل البدع والضَّلال، ولا يجوز القراءة في الكتب التي توقع الإنسان في الحيرة والشكِّ؛ لأنَّك على الحقِّ المبين، وسلوكك لهذا المسلك هو انحرافٌ عن الجادَّة، وأنتَ أيُّها المؤمن، وأنتِ أيتها المؤمنة- بحاجة عظيمة إلى أن يُعمَر القلب بالقرآن العظيم، وأن يُعمَر قلب المؤمن والمؤمنة بالحق الذي جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وهذه قواعد عظيمة فيما يتعلَّق بما يجب على أهل الإيمان من أن يكتفوا بما في القرآن وسنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فما من خير إلا وفي القرآن، وقد قال النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في رواية «**لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً**».

- كما أنَّ شريعة النبي محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رفع الله بها الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السَّابقة، فلو نظرتَ عند اليهود لوجدت أنَّ ثَمَّة اشتداد في عباداتهم وذبحهم، وعندهم أمور شديدة رفعها الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن أهل الإسلام، فالحق كله فيما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهذه قواعد عظيمة، ولهذا قال عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما رأى في وجه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التَّغيُّر: (**رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا**).

ومقتضى الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا: الاكتفاء بما جاء في القرآن وفي السُّنَّة.

- وهذا يشمل مَن يطلب صَلاح أحواله وصَلاح قلبه بأمورٍ محدثات ليست في كلام الله، ولا في كلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فبعض الناس يطلب الاهتداء -أو ما يسمونه بالسَّلام الدَّاخلي أو الطمأنينة- بغير ما جاء في الإسلام، وكل هذا يسير على النَّسَق السَّابق، وهو طلب الاهتداء في غير كلام الله، وفي غيرِ كلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- إذن: لا حياة للقلب، ولا اهتداء للقلب؛ إلا باتِّباع ما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، فإذا أرادت الأمة العزة والتَّمكين، وإذا أراد الإنسان أن يعيش الطمأنينة؛ فعليه بكلام الله، وبكلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ولهذا فلا حياة للقلوب إلا بهذا القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فكل هذه قواعد وثوابت يحثُّ بها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أهل الإسلام على الاستقامة على هذا، فليس عند اليهود ولا عند النَّصارى هدى؛ بل عندهم التَّحريف والضَّلال، والله -عَزَّ وَجَلَّ- أخذ عليهم الميثاق، وأخذ على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهم يعرفون وصفه، ويعرفون أنَّه النَّبي الخاتم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولهذا فإنَّ وصفَ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- موجودٌ في كتبهم بوصفٍ دقيقٍ، ومع ذلك أعرضوا عن متابعة النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
  - ❑ **ولهذا فواجب كل الأمم السابقة ممَّن أرسل الله لهم الرسل:** أن يتَّبعوا النَّبي الخاتم، ودين محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليس دين جنسٍ مُعيَّن؛ بل هو دين البشريَّة جميعًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا فرق لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، فهذا هو تمام المساواة، فلا أحد أعلى من أحدٍ في الإسلام، وليس هذا خاصّ بالعرب؛ بل هو للناس جميعًا، وهذا موجود بين دفَّتي هذا المصحف العظيم، فلا تجد فيه إلا المساواة بينَ الناس، ومساواة عظيمة لا تجدها في غير دينِ الإسلام، فهي مساواة حقيقيَّة.
- ولهذا تجد الصلاة -مثلًا- من شعائر هذا الدِّين، فيها مُساواة بينَ الناس، فلا أحد أعلى من أحد في الصلاة، فجميع الناس يقومون بعبادةٍ واحدةٍ على هيئةٍ واحدة، وكذلك الصيام من شعائر الإسلام الظاهرة، يلزم المسلمين جميعًا، فلا أحد يفطر قبل أحد، ولا أحد يصوم قبل أحد في الإسلام، كل مسلم يلزمه ذلك، ولا يُفرَّق بين هذا ولا ذاك في شرائع الإسلام، وكذلك الحج، جميع النَّاس، الملك والمملوك والغني والصعلوك؛ كلهم يقومون بنفس الشَّعائر، وهذا لا تجده إلَّا في شريعة الإسلام؛ فدلَّ هذا على أنَّ الإسلام للنَّاس جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].
- فكافَّة الناس يلزمهم الإيمان بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- واتِّباع ما جاء به من الهدى والنُّور، وما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- محفوظ لم يحصل له التَّغيير ولا التَّبديل، فالقرآن محفوظ، وسنَّة النبي

-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التي نقرأ شيئًا منها الآن هي محفوظة، ولهذا فلا يُعرَف لأمَّة من الأمم ما لهذه الأمَّة المحمَّديَّة من حفظِ أحاديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهم لا يقبلون هذه الأحاديث إلا بالسَّندِ المتَّصل عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن اتُّهِمَ في أحد الأسانيد بأنَّه سيء الحفظ فإنَّهم لا يقبلون أحاديثه، ومَن اتُّهِمَ بأنَّ كذَّاب رُدَّ حديثه، وكل هذا من حفظ الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهذا الدين.

- ولهذا فإنَّ القرآن والدين الإسلامي هو كما أنزله الله -عَزَّ وَجَلَّ- غضًّا طريًّا كما أُنزِلَ على محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها، وحتى ينزل عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- ليحكم بشريعة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلا يحكم إلا بشريعة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الدين سيكون محفوظًا من التَّحريف والتَّبديل إلى أن ينزل عيسى بن مريم من السَّماء إلى الأرض ليحكم بشريعة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه بشرى لأهل الإيمان وأهل الإسلام، أنَّ العاقبة لأهل الإسلام، وأنَّ الغلبة والتَّمكين لأهل الإسلام.
  - ❑ **وواجبنا:** أن نكون من أهل هذا الطَّريق، وأن نستقيم على هذا الصِّراط المستقيم، لأنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أمرنا بذلك، والنَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصَّانَا بذلك، وحثَّنا على ذلك، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ نَزَلَ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ**».
- فكل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة يسأل ربَّه أن يكون من أتباع محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الاتِّباع الحقيقي، وذلك بمتابعة ما جاء به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في كلامه بفهم الصحابة والتابعين.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

